مُكتَشِف الدّينوصُورات

مُكتشِف الدّينوصُورات

رواية

بقلم

أحمد القاسمي

عنوان الكتاب: **مُكتشف الدينوصورات.**
المؤلف: **أحمد القاسمي (elkacimiahmed63@gmail.com)**
رسوم: وليد محمد معوض محمد (جمهورية مصر العربية).
الرقم الدولي المعياري للكتب (ISBN): 978-9920-8673-0-6

الطبعة الأولى؛ 1445 هـ؛ الموافق لِـ 2024م.

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إنّ أحداث هذه الرواية مُتخيلة، ولا شيء فيها قد وقع بالفعل؛ بما في ذلك الشخوص، فلا يُشير السّرد إلى أيّ شخص موجود في الواقع؛ اللهمّ المدن والأماكن.

الفصل الأول

الأَحْيائي والإحاثي

في بيت من بيوت تلك القرية التي تُشاهد من بعيد مبنيةً على الجزء الأسفل؛ من سفح جبل شاهق من جبال الأطلس الكبير[1]؛ يجلس ذلك المدعو بِـ(نَادِر) على كُرسي خشبي؛ يستند مرفقاه على مِنْضدة؛ خشبية هي كذلك؛ يرفع إلى فمه بيده اليمنى كأسا ملأه سائل ساخن؛ غلت فيه أوراق الشّاي المجففة؛ فيرتشف منه، ويُدْنيه منه ليَنعم بدفء البخار؛ لأن ما يسود في الأجواء هو برد فصل شتاء قارس، وينظر من وراء زجاج نافذة عريضة الإطار؛ بعينين يقظتين؛ كانتا قد تعوّدتا على أن تضبطا شيئا ما، أو تقعا عليه؛ إلى هنالك أبعد مما يُتيح له ذلك الوادي، وتلك القمم الجبلية المحيطة به، وتلك الأشجار البرية الخضراء؛ الكثيفة الأغصان والأوراق، والمُتمفصِلة الجذوع والفروع، وتلك الصخور المتشظية، والمكعبة منها والمدملكة، والمسنونة والمشحوذة، ويرى الثلج وهو يتساقط، ويتراكم ليصير رداء أبيض؛ يُغطِّي القمم والسفوح الصخرية ذات اللون البُنّي، والنباتات، وأعلى المساكن؛ كانت جُدر هذه مبنية بأتربة وحجارة المكان الوافرة، وسقوفها من جذوع الشجر؛ مُقطّعة الأوراق والفروع؛ بفأس ألهب حديدَه في الفُرن حدّاد القرية.

ومرة بعد مرة يُدير نادر وجهه إلى اتجاه، وتظل عيناه تُطيلان النظر في ناحية لا تُفارقانها؛ مُسترجِعا صورة تلك البُحيرة التي اكتشفها هو والذين رافقوه؛ كانت في طريقهم إلى معرفة لأي حيوان كان ذلك الصوت الذي وصل إلى أذنيه، واستغربته هاتان؛ في إحدى ليالي تخييمهم بإحدى قمم جبال الأطلس، بينما هم كانوا نائمين. أطلوا على مائها من بين أغصان أشجار مورقة، وفروع نباتات

[1] هي وحدة من أربع وحدات جبلية توجد في المغرب: جبال الريف، وجبال الأطلس المتوسط، وجبال الأطلس الكبير، وجبال الأطلس الصغير، تمتد في شمال المغرب، وفي وسطه.

ملتف بعضها ببعض؛ ثم رأوا رؤوسا وأعناق حيوانات عملاقة تبرز من ماء البحيرة، وأمعنوا النظر فيها فوجدوا أنفسهم أمام دينُوصُورات[2] حية؛ فتكون إذن قد ظهرت في بيئة؛ في الجبال؛ في هذا الزمان، في آخر أحد عصور الكرة الأرضية المناخية؛ أعقب آخر عصر جليدي بعد أن انقرضت أصلابُها، فاندهشوا من ذلك؛ وتحيّرت عقولُهم.

فلو لم تكن لنادر رغبة شديدة في معرفة البيئات القديمة؛ وحيواناتها المنقرضة؛ بالقراءة عنها ودراستها، وبالرحلة إلى طبيعتها المتحجرة، لما قصد هو والثلاثة الآخرون القمم الجبلية العالية، ويسمع دونهم ذلك الصوت، ويتفاجئون جميعا بتلك البحيرة، والدينوصورات التي تعوم فيها؛ قادمة من غابة ظليلة عبر مدخل غار تحت مياهها؛ غطسوا إليها.

وتحرك مرفقُه الأيمن، ورفعت يدُه طرف سرواله، ولمست أثر رصاصة غائرا في لحم ساقه اليمنى؛ يستعيد به واقعة محاولة الإجهاز على تلك الدينوصورات من طرف مُستغلين للطبيعة، وهو يذود عنها.

كانت هذه الدّناصير العاشبة التي ظهرت، والتي امّحت في عهد قريب لأن الإنسان روّعها، والبحيرة التي كانت تقصدها لنباتات الضفاف الصخرية المعلقة تتغذى عليها، والغابة التي تسرح فيها ما بعد الغار الباطني، والتي بدأت في الاندثار هي كذلك؛ هي التي رغَّبَت نادر في أن يختار القرية التي تُلائِم دُنوّه سواء من حفريات المنقرضة من تلك الدّناصير، وبيئتها المتحجرة، وهذه التي كانت قد ظهرت كائنات حية، وهذا أحد مساكن تلك القرية الطينية يقطُنُه؛ ليختلي بجميع ذلك، وكانت زوجته صَفاء هي التي هيأت له كوب الشاي ذاك، وهي التي سمّته بـِ(نادر)، وتعرف لماذا؛ في زمن كان قد جمعهما فيه فصل الدراسة الجامعي.

وكَرّت بنادر الذاكرة في صباح ذلك اليوم أيضا؛ من أيام الشتاء، والذي تُمطر غيومه نُدف الثلج، وما تزال تهب فيه الرياح باردة كما في السابق، وكما ستكون

---

[2] ليس لكلمة (دينوصُور) مقابل في اللغة العربية، فهي من وضع عالم المستحاثات الإنجليزي (ريتشارد أوين؛ 1804م- 1892م، Richard Owen)؛ يعود أصلها إلى اللغة اليونانية.

في الأيام اللاحقة، ويكاد الماء أن يتجمد في الأنهار، فتخلو المعابر والمجازات والأزقة والقناطر؛ فيعُم الهدوء؛ إلى ذلك اليوم الأول الذي سلك فيه شارعا أفضى به إلى باب كلية العلوم الرئيس، فدلف إلى الداخل مُتأبّطا أوراق ملف التسجيل، وكانت علوم الأرض هي التي رغب في دراستها، ولم تكن نزوة؛ بل تشهد على ذلك غرفته التي لم تكن تتسع لسرير ومكتب صغير فقط؛ بل كانت كذلك متحفا طبيعيا؛ من محفوظاته فراشات فريدة في أشكالها وألوانها، وطائر مُحنّط لم يُر مثله، وأوراق إبرية بَهِتت خُضرتُها وذَبَلَت حوافُّها بالمناخات الجافة، وأخرى عريضة بخضرة المناخات المطيرة وبرّاقة، ولحاءُ جذوع الأشجار؛ ركّب به مُجسما بديع الهندسة، وتُرس سلحفاة، وهيكل سمكة، وجُمجمة أرنب برّي، وأرجل جراد صحراوي؛ ذات تمفصُلات ونواتئ.

ولم يكن أبوه وأمه وأخواه ينادونه إلا بـ«يا جامع الحشرات؛ أقبِلْ فإن المائدة قد جُهّزت للفُطور أو الغَداء أو العشاء، ويا أيها اللاهث في أثر الهَوامّ فإن الساعة المقننة قد حانت، ويا هاوي الكائنات الحية فإن جيوب سروالك أو سترتك غافلتك؛ فما يزال في ثناياها ما وجدت على ذلك الشاطئ الصخري، أو في تلك الأجمة من سراطين ونمل وزنابير وخنافس»، ويسألونه عن حَجَرة تُغطيها خُضرة، فيجيب بأنها تُسمى بـِ(خضراء الدّمن[3])، وهي المنزلة الأولى للنبات بعد التراب، فهي بهذا ترتيب في ظهور الحياة على كوكب الأرض، ويسألونه: «وما هي وكيف؟»، فيجيب «ابحثُوا في الكتب».

بنى سفينة صغيرة بقِطع من الخشب؛ بصاريين وأربعة أشرعة وحبال، وعجلة تُدير دفّة التوجيه؛ بتفاصيل دقيقة، فأثار شكلُها المتقن إعجاب أفراد أُسرته، ولم يسألوه لماذا؛ أَلإضفاء أجواء السفر في البحر على المكان فقط؟ فقال:

– كان عليكم أن تسألوني، فأجيب بأنها نموذج مُصغّر لسفينة اِسمها (البيكَل؛ The beagle)؛ فتستفسرون عنها: ما هذه السفينة؟ فأقول بأنها السفينة التي

[3] (الدّمن) هو السّماد المتلبّد، و(خضراء الدمن)، كما ورد في رسائل إخوان الصفاء، غبار مُتلبّد على الأرض أو التراب، ويتحول إلى خُضرة بندى الليل أو بالمطر، وهي منزلة في الطبيعة.

كان عالم الطبيعيات الإنجليزي تشارلز داروين[4] من بين رُكابها، وقد أبحرت في سنة 1832م؛ من مدينة (ديفونبورت؛ Devonport)، التي تقع في الجنوب الشرقي من جزيرة إنجلترا؛ في رحلة بحرية حول العالم؛ دامت خمس سنوات؛ فماذا كان على ذلك العَالِم المفتون بالطبيعة والمتيم بالكائنات؛ سواء كانت برية أو بحرية، وبالحشرات وبالنباتات؛ أن يفعل؟ فلم يصرفه أي شيء آخر طوال أوقات السفر؛ عن ملاحظة ما تتفرد به المناطق من حيوانات وحشرات، وجَمْع ما وقعت عليه يداه منها، وتسجيل وتوثيق كل ذلك، فما تمخضت عنه رحلته العلمية تلك هو أنه عاين الكائنات وهي في بيئتها، وقد طافت به السفينة (البيكَل) حول الكرة الأرضية من غربها إلى شرقها، فيكون بذلك قد تكونت لديه رؤية واضحة ودقيقة؛ حول كل حيّ ينمو من طور إلى طور؛ سواء كان إنسانا أو حيوانا أو نباتا، فلما آب من ذلك السفر الطويل صاغ نظريته في أصل الأنواع، وفي نشوء هذه وارتقائها، وقد أثارت جدالات وسجالات. كان بحق نموذج العالم الطبيعي الذي يَطرُق الأماكن والبيئات الطبيعية.

وليزيد نادر من معلوماته، ومما يضم متحفه؛ فإنه خطط لأول رحلة يقوم بها إلى منطقة كانت فيما مضى من الأزمنة الجيولوجية بحرا يزخر بالكائنات الحيوانية والنباتية، فانحصر عنه الماء وتراجع وجفّ، وترسّبت أحياؤه وتحلّلت، فتحوّلت إلى (فوسفاط)، فوجد امتدادا بخام تلك المادة ما بين مدينتي (خريبكَة)[5]، و(وادزم)[6]؛ بين ذراتها ما تزال أشكال جوفاء؛ كانت قد أحاطت الرمال بفروع نبتة بحرية، وتلحّمت حباتها وتصلّبت، وماتت الأوراق والفروع وذبُلت فاندثرت، وبقي الفراغ والهيكل المتحجر، وأروع من هذه وما يُثير الدهشة والإعجاب؛ هو أسنان سمك القرش؛ جعلها (مِينَا)[7] الأسنان أن تبقى حيث هي لملايين السنين،

---

[4] شارلز داروين، (1809م- 1882م؛CHARLES DARWIN)، عالم طبيعيات انجليزي؛ هو الذي صاغ نظرية التطور.

[5] مدينة تقع إلى الجنوب الغربي من عاصمة المغرب الإدارية الرباط، بمسافة 154 كلم، يبلغ عدد سكانها 196196 نسمة حسب إحصاء 2014م.

[6] مدينة توجد إلى الجنوب الشرقي من العاصمة الرباط؛ على مسافة 174 كلم؛ يصل عدد سكانها إلى 95267 نسمة؛ حسب إحصاء 2014م.

[7] (مينا) الأسنان هو مادة صلبة وبيضاء تغطي تاج الأسنان عند الإنسان والحيوان.

فكانت الرحلة أول تجربة، فقد بدأ نادر يعي ما يتوجب عليه أن يفعل أولا، وهو أنه قرأ البعض مما كُتب عن ذلك البحر البائد، وعن جيولوجية المجال الحالية، واشترى خريطة تُبين الطرق المعبدة والمسارب، وتفحّص التي سيسلكها إلى هناك، وطلع عليه السؤال وألح: كيف سيهتدي إلى ما سيبحث عنه؟ وما هي المخاطر؟ كان قد روى عليه ممن شبّ في المنطقة أن الجماعات من الفتيان هي التي تتوجّه إلى تلال من تراب، تبدو إلى الشمال الغربي من مدينة (وادزم)؛ كانت ربما أول ما يُجرف من الأنفاق التي تُمدّ في أطوالها أسمطة مُتحرّكة لاستخراج الفوسفاط. عُدّة الأفراد غرابيل طحين الحبوب؛ يحملونها خُلسة من بيوتهم، وفي غفلة من أُمهاتهم؛ يفرزون بها أسنان القرش وعظام هذا الأخير المتحجرة، ومجسمات أعشاب البحر الجوفاء، وأن قُطّاع الطرق يترصّدون لك هناك، وينهبون ما حصلت عليه؛ مما نبشت عنه وغربلته.

ومن الأسئلة التي طرحها على نفسه آنذاك هي: هل للرحلة وقت يُناسبها؟ ففصول السنة تتعاقب؛ ففي الفصل المطير تُصبح الأرض أوحالا، وفي فصل الربيع تتكاثف الأغصان وتُورق، وتينع الحقول بساطات من السنابل، فلا يسمح أصحاب الحقول أن تُداس زُروعهم، وفي فصل الصيف يكون الحصادون عائدين، والحصادات آيبات، وما تزال حُزم السنابل المحصودة، وأكوام السيقان متفرقة في مساحات المزارع، فعشرة أيام؛ من آخر الصيف إلى بداية الخريف أفضل من أي زمن آخر، ولا يعرف أستُطاوعه التربة كانت مبللة أو جافة، فتنساب عبر ثقوب الغربال؛ أم لا؟

ثم فكر فيما يفيد، وما يحتاج إليه ويُيَسِّر له ما عزم عليه؛ هو ما سيرتديه من ملابس؛ كقمصان قصيرة الأكمام، وسراويل متينة النسيج والخياطة، وما يتطلب التنقيب والحفر والفحص؛ مِعول ومجرفة، ومُكبّرة للتعرف على الذرات الصغيرة الحجم؛ هذه إذا ما سمح الظرف بذلك.

أين سيبيت لياليه في تلك المدينة؟ وهو غريب عنها، ولا يعرف أحدا، ولم يسبق له أن سافر إلى هناك.

استيقظ في الصباح على رنين يُعلن عن الساعة الرابعة من وقت السّحر، وأفطر على خبز بزُبدة ومُربّى المشمش، وشرِب حليبا مخلوطا بالقهوة، وملأ حقيبته الظهرية بما أعد من الأدوات، وغادر البيت مُتّجها إلى محطة الحافلات.

لم يكن ضياء الشروق قد ظهر بعد، فكان ظلام الليل يعم مدينة (الرباط)[8]، والمصابيح تُضيء الأزقة والشوارع والطرق، ومواطئ ومعابر الأقدام. اِستأجر سيارة؛ كان سائقها يتثاءب طاردا بقية النعاس، ويمسح وجهه، ويعصر عينيه بيديه؛ أدار المقود ومال بالسيارة إلى جانب، وفاه قائلا وهو يلتفت إلى الجهة الأخرى؛ باحثا عن شخص آخر يكون في انتظار سيارة أجرة:

– محطة الحافلات.

لم يكن نادر يجهل المحطة، ولا في حاجة إلى من يُرشده إليها، فهو يعرف إلى حد ما أين توجد، وإن لم يسبق له أن كان يتردد إليها ليُسافر؛ إلّا لِماما فيما مضى من سِنين الصِّغر. أعطى للسائق ما سجلته الآلة من مبلغ المقابل، وترجّل، ثم دلف إلى داخل البهو. لم يكن من ينتظر من المسافرين في ذلك الوقت إلا القليل، وقصد مكتبا تعلو بابَه لوحة كُتب عليها: (وادزم)– (الفقيه بن صالح)– (بني ملال)[9]. ولم ينتظر البائعُ فدفع بتذكرة هشة برقم تسلسلي، ونطق بالثمن، وأضاف:

– عبر ذلك الباب. الرصيف الأيمن. الحافلة رقم 3؛ ستنطلق بعد أقل من عشرين دقيقة.

هبط نادر دَرج سُلّم، وسمع محرك حافلة؛ يستمر هديرُه في ذلك الفجر الهادئ؛ وضع رجله اليمنى على دَرَجة مُستدّقة الحديد، وعلى الثانية، ثم إلى الممر، فالكرسي الحامل لرقم تسلسلي، ولم يكن ما بيده ما يُطابقه. كانت ماتزال الحافلة فارغة الكراسي، وصعد إليها بائعوا (ساندويتشات) البيض المسلوق، ومراهم التدليك، والسُّبحات، وقِناني عطر التطيّب، وكُتيبات أسماء الله الحسنى، ومُتسول يسترحم الناس بعاهة بإحدى يديه، وفتاة رثة الثياب تستجدي الراكبين.

---

[8] (الرباط)؛ عاصمة المغرب الإدارية؛ تقع إلى الشمال الغربي؛ على ساحل المحيط الأطلنتي؛ يبلغ عدد سكانها 717.572 نسمة؛ حسب إحصاء سنة 2014م.

[9] مدن مغربية تابعة لجهة ترابية توجد في وسط بلاد المغرب.

ضخ السائق سائل الوقود في المحرك، فدارت التُّروس؛ فأدارت هذه العجلات، فلم يكن بد لهذه الأخيرة إلا أن تجري على أسفلت شوارع المدينة، وانعطافاتها وتقاطعاتها، ثم لفظها حي عمراني إلى طريق ريفي؛ يستقيم بها تارة، وينعرج بها تارة أخرى، وقد بدا شعاع الشمس الشارقة من خلال نافذة الحافلة الزجاجية الأمامية؛ يُضيء الدنيا، فشرع نادر ينظر إلى حصائد الأراضي اليابسة؛ ترتع في مساحاتها الشياه والدّواب، وإلى أحواض تشقق غِرْينُها، وتخلف عن الربيع بريق خضرة نبات السّمّار، وعشب ينتعش ببقية ماء مُنخفَض؛ كانت قد جرت فيه السيول، وتخيّل ضفادع صغيرة تسكن تلك الأجمات المحصورة؛ تُصدر نقيقا يُثير الإحساس بعزلة المكان، ثم إلى السماء؛ المملكة التي لا يُنازِع فيها الطيرَ أحدٌ من الكائنات الأخرى، فيرى أسرابا من الحمام والقمّري والعصافير واللقلاق؛ تحلق مهاجرة أو تحوم أو تحط، أو تعود إلى الأعشاش، وامتد بصره إلى التلال البعيدة؛ البعض منها مكسو بغطاء من نباتات قصيرة أو بالأشجار، وتخيل مرة أخرى ما تعيش فيها من حشرات وحيات وسحال وعقارب وجراد وأرانب وقنافذ وطيور وذئاب وثعالب؛ تقتات على بعضها البعض، فلا سيادة لأحد منها على تلك الأصقاع.

اِنبسطت الطريق وامتدت؛ تخترق سطح الأرض؛ بمرتفعاتها ومنخفضاتها. أبطأت الحافلة في سيرها في منعطفات حدور وادي (كريفلة)[10] وعقباتِه؛ تهادتُها وتلاينُها، فأُتيحت لنادر فرصة النظر إلى السفوح المهدمة أجزاؤها؛ التي حادَّت الطريق، حيث ظهرت أتربتها وصخورها وحجارتها، فتساءل: «أتحتوي هذه الطبقات الصخرية على مُستحاثات؟ وإذا كان ذلك قد حصل، فكم عددها، وما مقدار الكمية؟».

كلما تقدمت الحافلة إلى الجنوب الشرقي؛ بدا لنادر أن مناخ الأجواء يتغير، ويتدرّج من الساحل إلى داخل القارة، والبيئة وحياة الناس، وأنماط عيش هؤلاء تختلف، وكان يتطلع إلى الأمام؛ إلى هنالك؛ إلى الأفق؛ يريد أن يشاهد ما يدل على تلك البلاد التي لم يظهر له بجلاء كيف سيستكشف أرجاءها؛ التي لا

[10] يجري فيه نهر هو رافد لنهر (عكراش)؛ أحد أنهار المغرب.

يعرف الآن غير أنها أتربة وصخور مُترسبة، وهل سيجد ما يرغب في حيازته وما يفيده، ويستزيد به علما؟ ولم يعرف نادر من يجلس على الكرسي المجاور؛ أهو امرأة؛ أم رجل، أهو شاب أم كهل أم شيخ، ولم يسترق النظر إلى أطراف ما يرتديه. بعد مدة زمنية قصيرة قال صوت أجش:

– أرى أنك تتمتع بمشاهدة هذه الحقول المحصودة؛ كأن سيقان السنابل المجزوزة أردية صفراء تُغطيها؛ مُوشَّاة بتلك السّيّاجات من الأشجار والنباتات القصيرة الخضراء.

اِلتفت نادر أخيرا إلى جاره، وأمعن النظر فيه؛ كان رجلا شيخا؛ وجهه طويل وأحمر وجاف؛ عيناه حمراوان؛ تلمعان ببريق؛ شابت بعض شُعيرات حاجبيه الكثين؛ شاربه مقصوص؛ ولحيته خفيفة؛ يلبس عِمامة بيضاء، ويرتدي جلبابا خفيف النسيج؛ أبيض اللون. تنفرج شفتاه عن سن مُغشاة بمعدن فضي اللون.

قال نادر:

– لنا نحن الذين وُلدوا بالمدن والقاطنون بها دوما فرصة.

قال الرجل بحماس:

– أرى هذه الأراضي بَهَمٍّ من سكن بالبادية واشتغل أجداده بالزراعة، فما استنتجتُ من أكوام الحصيد تلك؛ أن موسم زراعة الحبوب وافر الإنتاج.

واستطرد الرجل مُحدقا في وجه نادر:

– أهو سفر عودة أم سفر ستؤُوب منه؟

أجاب نادر:

– سفر سأرجع منه.

بعد لحظة صمت سأل نادر الرجل:

– أأنت مُزارع؟

أجاب صاحب السن الفضية:

– لا؛ أنا تاجر فضة، والبعض القليل من أقراط وسلاسل وأساور ذهبية. اليوم الإثنين؛ أنا ذاهب الآن إلى سوق (بني خيران)[11] الأسبوعي؛ تكثر زيجات البادية

[11] قبيلة توجد إلى الجنوب الغربي من العاصمة (الرباط).

في هذا الوقت من السنة، فتروج تجارة بائعي الحلي وينشط العُدول محررو العقود، ويتوارث نساء البادية عادة التحلّي، وتَسْتمْرِرن في ذلك، ويُبدين تزينهن لُبسا وحلية في أعراس القبيلة، وتبيع الواحدة منهن سوار ما تشتري به خواتما وأقراطا، وما يبقى من النقود هو لاستيفاء ما هو عينيّ؛ في وقت الشِدّة، أو رأسمال للتجارة، أو لشراء أرض تشفيع، وإني أرى أصابع يديك خِلوا لا من معدن رخيص أو ثمين؛ يحيط بخِنصرك أو بأُصبع الوُسطى.

أجاب نادر بفُتور:

– لا أرى فائدة في ذلك؟

اهتز جسد تاجر الحلي، وارتعدت وجنتاه، وجحظت عيناه؛ بأثر ما سمع؛ قال بانفعال:

– وقد قلتَ أنه سفر ستعود منه؛ هبْ أن مالك سُرق، وأنت غريب في بلاد بعيدة، أو لم تقتصد، أو استدرجك بعض المحتالين إلى صفقة خاسرة؛ أستسأل غيرك؟

قال نادر:

– فِعلا، وأنا أقصد بلادا لم أحُلّ بها من قبل، وليس لي علم مما سيقع، ولا بد لي أن أعود؟

نظر الرجل بعيدا، وقد استحضر من الماضي ما يدْعم كلامه؛ قال:

– سأحكي لك ما حدث، فاصْغ... كنتُ أصغر إخوتي، ولم يكن سنّي يتعدى الخمسة عشر عاما؛ عندما ألمّ مرض بوالدتي، وشعَرتْ بدنو الأجل، وهي طريحة الفراش إذ كانت تنادي علي وتُدنيني منها، وتمسح بحنو الأم الرؤوم على رأسي، وتلثُم جبهتي، وتدمع عيناها، قالت في أذني وهي لا تريد أن يسمعها أحد من أبنائها الآخرين: «هل ترى يا أصغر أبنائي ذلك الصندوق؟»، ولم أكن أعرف غير ذلك الصندوق الخشبي الموضوع في ركن الحجرة؛ لم يُنقل أبدا من مكانه؛ منذ أصبحت أعِي الأشياء، وكان مألوفا، ولا شيء فريد فيه يدفعنا إلى التفكير فيه؛ نعم كنت أحبو بجانبه، وربما كان أول ما تشبثت به، وقمت أخطو خطواتي الأولى. أجبتها «نعم؛ صندوق حاجاتك.» قالت: «افتحه وابحث عن كيس من كتّان، وأخرج من هذا ما لا أملك غيره ذا قيمة، لأتركه لك بعد

وفاتي». ما كان هو دُملُج قديم من فضة سميك، وثقيل؛ منقوش بأشكال هندسية، وبمهارة صانع تقليدي، وبحَفْر أدوات يدوية، ومختوم بعلامة دليل أصالة صنعه؛ ربما كنت قد رأيتها وهي في رَيَعان شبابها تلبسه بين المرفق والعضد. قلت لها: «من أين كان لك هذا الدُّملج يا أمي؟». قالت: «كنت أشتغل حصّادة عندما يحل الموسم؛ عُدّتي (ترازة[12]) حيكت من أوراق نبات الدّوم؛ تحميني من لفحات شمس فصل الحصاد، و(تْبانْدا[13])، وقصباتٌ تقي أصابعي من ضربات قَطْع سيقان السنابل، ومنجل ذو أسنان مشحوذة، فكنت أقبض أجري قِطعا نقدية من نحاس، أصرُّها في صرة من القماش، فوفرت مبلغا من المال اشتريت به هذا الدُّملج، كنت أتحلى به في بعض المناسبات، وأجعله في الصندوق في أغلب الأوقات». اِسْألني أنتَ ماذا فعلتُ به؟ بِعْته، واشتريت بالمال حُليّا، وصرت أعرضها للبيع في الأسواق الأسبوعية وفي قيساريات المدن؛ أغتنم فرص الكسب ومناسبات الرواج، وخبرت هذه التجارة فكثر مالي، فاشتر لك يا أيها الانسان خاتما، وارتد من خام أفلاذ الأرض، وكن ذا عقل؛ يبحث عن حكمة الأشياء ويبتغيها، واذخره مالا.

إن فيما نطق به التاجر إلحاحا في عرض سلعة كالعادة، وتساءل نادر بينه وبين نفسه قائلا: «وهل هي ذات قيمة فعلا تجعلها ادخارا للمال؟». قال:

– أرني ما أثمرت عنه تجربتُك في الاتّجار فيما قلت.

ابتسم التاجر وهو يُثرثر بجودة سلعته، وظهرت سِنّه المُصفّحة من بين أسنان اصفرت، وبرزت من لثة دكناء ميّتة، وأدخل يده اليمنى في طيّات أثوابه عبر فتحة الجلباب، وأخرج محفظة جلدية؛ فتحها وأخرج منها هي أيضا كيسين بلاستيكيين؛ فتح الأول وعرض منه خاتما من فضة عريض وممتلئ بالمعدن؛ حُفرت عليه نخلتان بسُعوفهما، وعرض أيضا الآخر، فكان كالأول في سُمكه وفي وفرة المعدن؛ يبرز منه سيفان معقوفان؛ بشفرتيهما المسنونتين، وبمقبضين مُتقنين، فكانت النخلتان الغائرتان في الفضة، والسيفان المنحوتان هو ما أُعجِب به نادر، ولم يجذبه ذاك بعيدا، فرسم في خياله خواتما محفورة أو منحوتة بأنواع من

[12] الترازة؛ قبعة تُحاك من أوراق نبات الدّوم.

[13] واقية تُلبس على صدر الحصّاد؛ تحاك من نبات الدوم هي كذلك؛ لها حزام وحامل.

الحشرات، كالنمل، والسرطانات، والعقارب، أو رؤوس النمل؛ بعيونها الكبيرة، وفكوكها، وقرونها الاستشعارية، أو ناب نسر، أو إبرة العقرب القاتلة، وبأسمائها العلمية، أو صفائح منقوشة ببيئات جُزرية أو غابات؛ تنتهي بحلقتين تشدها أسْورِة جلدية، أو فُصُوصا بشفافية زجاج؛ تُدفن فيها تلك الكائنات الدقيقة، أو صفائح بطائق معدنية من نحاس، أو مذهبة؛ تُحفر عليها أسماء تلك الحشرات، وعاهد نفسه على أن تكون هياكل لا حياة فيها.

قال نادر بحماس:

– إن بضاعتك حِلية وتحفة فنية في آن واحد؛ تستحق الاقتناء.

وأدى نادر إلى تاجر الحلية ما ارتضياه من ثمن.

وأدخل التاجر يده مرة أخرى إلى داخل محفظته، وأخرج كيسا بلاستيكيا آخر، وصبّ ما بداخله على كفّه، فوقعت قطع نقدية. قال وهو يُظهرها بوجوهها إلى نادر:

– واشْتَر هذه أيضا؛ قطع نقد حسنية[14]؛ تزيدك علما بتاريخ بلادك.

أمسك نادر القطع النقدية بأناة؛ باديا استغرابه، وصار يتأمل كل وجه من وجوهها، ويحاول أن يقرأ ما طُبع عليها بعد الضرب، وجوانب حوافّها، ثم قال:

– البحث فيها؛ في معدنها وما هو، أهو خام استُخرج من أحد مناجم البلاد أم صُهارة معدن نقد آخر؛ جُلب من بعيد، وأين ضُربت، وفي أي عهد من عهود السلاطين، وفي أي عام، ومن أولئك الذين وُكّلت لهم مهمة الضرب، وما هي ظروف ضربها الاقتصادية والسياسية، وما مضمون كتابتها ومن أي ثقافة، وإلى أي حضارة يعود ضربها، وكيف كان نظام الضرب في المعامل والوَرَشات، وما هي الأدوات؟ هذا فيض من معلومات يُغني مقالا يُنشر ليُقرأ؛ سأشتريها منك. ما أُريده منك الآن هو أن تقصّ علي كيف انتهت في إحدى مراحل رحلتها عبر الزمن إليك؛ يُستحسن أيضا أن تُوثق الكيفية التي احتُفِظت بها.

قال التاجر:

---

[14] قطع نقدية ضُربت في عهد السلطان العلوي المولى الحسن الأول ؛ (1836م-1894)م.

– طَلع عليّ في أحد أيام السوق رجل بدوي أعرفه؛ ممن يترددون على خيمتي، وبرفقتهم زوجاتهم، ليعرضوا للبيع ما يمتلكون من حُليّ وليَشْتروا أخرى، ولا يعرف غير أن قلادات؛ كانت جداتهم وأمهاتهم يتوارثنها ويتزين بها؛ شُدّت إليها مسكوكات من نقود فضية بحلقات حديدية أو فضية؛ لحّمها الصّياغ ويبيعها تجار الحلي. قال بأنه كان أحد الوارثين بعد وفاة والده؛ لقطعة أرض كانت نصيبه بعد الاتفاق على (ضرب العود)[15]، وفي أحد فصول الحرث اجتَثّ دغلا من سِدرات النّبق؛ نبتت في جانب من حقله ليحرثه هو أيضا؛ فغارت سِكّة فلح التربة في حفرة هشة الصخر، وضربَتْ في شيء صلب؛ كان جرة من طين؛ لها عُروتان، ومُغلقة بإحكام بقطعة جلد مدبوغة ومتينة. فتحها، فوجدها مليئة بقطع من نقود حسنية، هل خبأها أحد من أجداده، أم أحد المالكين للأرض السابقين؟ اقتسمها مع إخوته، وباع لي حصته منها، وما بقي بعد بيع البعض منها ستحصُل عليه أنت.

وسأل نادر عن الثمن، وأجاب الرجل المعمّم، وهو يحملق في نادر بعينين تنتظران فوزا بالربح. لم يوافق نادر، وعاد فذكر التاجر بأنه اقتنى الخاتمين، فيكون قد اسْتفأل منه؛ في الساعات الأولى من اليوم؛ قبل أن تطأ قدماه السوق، فلم يشفق التاجر، وإنما خَفَّض الثمن ببعض الدراهم، ليُحفّزه، وأطال نادر النظر في القطع النقدية، واستنكر بقاءها في يد من لا يرى في الأشياء إلا عرضها على أي أحد كيفما كان؛ سواء كان عارفا أو جاهلا، وكم سيجني من بيعها من مال، وهي ذات قيمة تاريخية، فالتقفها منه ودسها في جيبه، ومد يده بالنقود إليه، واسترخى على كرسيه، وهو يسمعه يقول:

– حاول أن تستنفع ما استطعت بما ابتعت، وابحث عن سوق رائجة البضائع، ومُستقطِبة، وفكر بروية وذكاء؛ فتبيع بما اقتنيت وبزيادة؛ تُشعرانِك بأن ما ترجو أو تتمنى يتحقق وباجتهادك.

---

[15] العود جزء من غصن شجرة، وعملية (ضرب العود) تتم بتجزيئ العود إلى أطوال مختلفة؛ وإلى عدد الوارثين؛ يوافق كل واحد قطعة من قطع الأرض الموروثة؛ ويُرفع لكل واحد عوده الموافق للقطعة الواحدة من الأرض.

قال نادر، وقد عاد إلى الاسترواح بالأراضي المحصودة، وبالتفرج على بعض الأشكال الصخرية، وانحدارات السفوح، ومسالك تتوغل بين الأودية والبيوت المتناثرة:

– لا أدري؛ فقد أبيعها لأحصل على المال، أو أحتفظ بها إلى أن تظهر فائدة أخرى منها.

كان بائع الحلي والمسكوكات يُنصت إلى كلام نادر، ولم يتفوه بأي كلمة، لأنه صار يستعلم من انعراج الطريق، ومن قرية كانت الحافلة قد مرت بها؛ ما إذا كان المكان الذي تتقاطع فيه طريق الحافلة بطريق سوق (بني خيران)؛ قد قَرُب، ولم تمض عشر دقائق حتى نادى مساعد السائق فيمن يقصد السوق، فنهض التاجر مُتحسّسا بيديه؛ ما إذا كانت محفظة الحلي في الجيب الآمن، وهبط من الحافلة وركب سيارة أجرة؛ كانت مُتوقفة على جانب الطريق الآخر في انتظار المتوجهين إلى السوق، وطفق نادر ينظر إلى جرّار يجر مقطورة يركبها قرويون؛ كانوا رجالا ونساء، فهم أيضا ذاهبون إلى السوق الأسبوعي، وإلى رجل يدفع دراجته دفعا؛ بتحريك محور دواستيها بقدميه؛ على الكرسي الخلفي عقد حبلا حول آلة خياطة من نوع (سانجير) قديمة الصّنع؛ فهو قطعا أحد خياطي السوق.

توقفت سيارة أجرة؛ كانت قادمة عبر طريق السوق، ونزل منها شاب، وتناول صندوقا حديديا من تلك المركبة من أدراج متحركة؛ تُرتب فيها أدوات ومفاتيح الميكانيكي، ورفع الشاب يديه إلى مساعد السائق؛ كأنه يطلب منه أن يُؤخر الإقلاع؛ في الوقت الذي كان فيه السائق قد استعد لذلك، وصعد وصوّب عينيه في الأرجاء باحثا عن كرسي شاغر، فلم يجد غير واحد في الخلف، والذي يوجد بجانب نادر، فأودعه جذعه، وهو يمسح متأففا بمنديل العرق الذي يتصبّب من وجهه وقفاه، واسترخى بيده اليسرى على المتكأ، وألقى برأسه على حافة أعلى الكرسي، وأغمض عينيه، وقال:

– قد أغفو، لأنني لم أدع جفوني تغمض منذ الساعة الواحدة من الليلة الفائتة.

لم تتحرك أسطوانات محرك تلك الحاصدة؛ إلا بعد فكٍّ وتركيبٍ، ويطول انتظار من ذهب ليأتي بقطع من جهاز؛ كانت التي انخرم شكلها، ولم يكن قد عُرف

أنها العنصر المتآكل، والذي يُثبّط حركة الدوران المحورية، وبعد محاولات عديدة لتشغيل المحرك.

كان نادر يسمع ما ينطق به جاره، فلولا أنه ثابر وبمعاناة في إصلاح الحاصدة، وامتد به ذلك العمل وقتا طويلا، وأثناء الليل؛ لما وصف عمله المُتعِب، فأدار وجهه إليه، ورأى شابا في العشرين تقريبا من عمره، وجهه مستطيل؛ داكن البشرة؛ ابتسامته هادئة، ونظراته عميقة وهادئة، ثائر قليلا؛ قامته طويلة، وممتد المنكبين والأطراف؛ قوي الهيكل. قال له:

– وفي إصلاحك للحاصدة شُغل يستوجب تدريبا وامتلاكا لتقنية وخبرة، وكانت ثمرته أن محركها شُغّل فتزحزحت، ثم تحركت وسارت.

انتبه الشاب من غفوة؛ كانت تكاد أن تُطبِق على جفنيه؛ إذ أنهضته كلمات نادر الغريبة على مسمعيه، ونبرة صوته التي لم تكن مألوفة، فنظر إليه، وحدق، وأمعن؛ وجد شخصا في مثل سنه تقريبا، أو أقل منه بسنتين أو ثلاث، ولم يستبعد أن يكون وافدا، وأن المدينة التي تلي هي (وادزم). قال باطمئنان:

– نعم؛ وأن الميكانيكي لا يهِن ولا يستسلم، ويحاول ألا يؤخّر عملا، فلابد من أن تدور الأسطوانات والتُّروس، والحزام ذو الأسنان ليُوزع حركة الدوران، والمحور، ليُصدر المحرك صوتا فيهدر، وينفث دخان احتراق الوقود؛ عندئذ يُلقي الميكانيكي بمفاتيحه ومِفكّاته، وفيما نطقتَ به تشجيع، ويزيد من ثقة في النفس.

مد الشاب يده إلى نادر وصافحه بصدق، واستطرد قائلا، وقد اطمأنت نفسه إلى جاره، واستشف من هيئته أنه شخص فاضل، ورغب في التعرف إليه:

– اسمي عبد الرحمن.

قال نادر:

– سُمّيت بنادر؛ ينادون عليّ بذلك، تستغرب هذا الاسم، ربما ستعرف لماذا. أنا طالب في علم الطبيعيات؛ بكلية العلوم بـ(الرباط). أتسكن بِـ(وادزم)؟

أجاب عبد الرحمن:

– إن أجدادي مقبورون في تربتها، وأنحدر من إحدى قبائل المنطقة، وأشتغل بميكانيك المركبات في محل إصلاح السيارات والشاحنات والحاصدات؛ الذي

ورثه أبي عن جدي، فقد تعلمت حرفتَهما، وتابعت دراساتي إلى مستوى آخِر المرحلة الثانوية، تلقيت دروس الميكانيكا النظرية والتطبيقية في معهد التكوين، فحصلت على دبلوم؛ بمعدل تخرج عال، وذلك يعود إلى أنني كنت أحب تعلم الميكانيكا، فقد استهوتني، لأنها خوّلتني معرفة بوظائف كل جهاز من أجهزة المحرك، فهذا الأخير نظام حركة مركزي؛ يتكون من عناصر، وكل عنصر يؤدي دوره في تناغم مع باقي العناصر الأخرى، وأهم من هذا هو ما يسمى بالميكانيكا الحرارية، فمحرك (الديزل) مثلا لا يدور بسلاسة إلا في درجة تسخين ثمانمائة درجة مئوية، وإلا فإن هناك عَطْبا في رؤوس التسخين الأربعة، التي تبث الحرارة اللازمة في حقل الاحتراق، إنه بحق علم بالمحرك الانفجاري، وإني الآن أقرأ من وقت لآخر عن المحركات التي تعتمد على طاقات أخرى للتشغيل؛ كالهواء المضغوط، أو سائل الهيدروجين، أو الطاقة الشمسية، ومُولع بالسيارات القديمة وبتاريخها.

أُعجِب نادر باهتمامات، وميول وثقافة عبد الرحمن الميكانيكية، فقال بابتهاج:

– يُؤهلك ما تكوّنت فيه، وما تطمح إلى معرفته من الأشياء، وولعك بتاريخ وإرث السيارات؛ إلى إعادة تهيء محلك وتنظيم مرافقه، والتفكير في نظام تسيير يُثمر، وليَخلق جميع هذا ورشة إصلاح وتجديد وترميم؛ عالية التسيير والتقنية.

إن ما قاله نادر كلام حُكم من الآخر؛ شعر عبد الرحمن بإيجابيته، وبدا له أنه فوز، وفيما دار بينهما من تبادل في الإفصاح عن الرغبات والاهتمامات تجاوب وتفاهم. سأل عبد الرحمن:

– هل أنت في زيارة، أم في سياحة، أو لغرض آخر؟

أجاب نادر:

– قد أخبرتني من تكون، وذلك لثقة بي؛ كانت نتيجة لما ظهر بيننا من إخلاص في الحديث، وكما أعلمتك من قبل بأنني طالب جامعي في علم الأحياء، ولذلك فإني أهتم بمعرفة بيئات الحياة القديمة، وبما انقرض من الحيوانات، وربما بما هو في طور ذلك، وأجمع ما هو نادر، وأسبر الأغوار، وأجوب الأدغال، وإني في رحلة الآن لمعاينة بيئة بحر كانت تغمر هذه الأرض في الأزمنة الجيولوجية القديمة، والتي أنتجت مادة الفوسفاط، التي لا تبعد مناجم

استخراجها كثيرا عن مدينة (وادزم)، وسأحاول أن أُنقّب بيدي في أتربتها وفي طبقاتها عن أسنان القرش، أو عن أشكال لحياة مُندثرة، أو مُستحاثات، وقد خطّطْت أن أقضي عشرة أيام أو أكثر، لكني لا أعرف هل أقيم في فندق، أو في حجرة بيت أكتريها؟

قال عبد الرحمن، وقد انتبهت عيناه، وأظهرت العلامات التي ارتسمت على وجهه؛ أنه على استعداد ليُرشد نادر؛ قال:

– لقد سعدت بمعرفتك، وأصبحت آنس بك؛ بل صرت صديقا، فلا تبقى مهموما، فقد وُلدت في (وادزم)، وكبُرت فيها، ولا أجهل زُقاقا من أزقتها، أو مرفقا من مرافقها العمومية، أو شِعبا من شِعاب باديتها، وأكاد أعرف جميع من يقطنونها؛ من سكانها الأصليين، والمهاجرين إليها من موظفي الدولة المدنيين والعسكريين، ورجال الأمن، والتجار، والعمال، وأغلبهم يقصدون محلّنا الذي هو أقدم ورشات إصلاح المحركات؛ لتغيير خامدات الاهتزازات، وكاتمات الأصوات؛ وأنابيب صرف العوادم، وضبط الفرامل، وقد ورثنا خصال البدو عن آبائنا وأجدادنا؛ في استضافة عابر السبيل، أو وافد يكون غريبا عن المنطقة، أما إذا كان طالب علم بإحدى الجامعات، وذي أخلاق، فهو يُستقبل بإعجاب وبحفاوة، ويُستضاف. أنت ضيف عندنا الليلة أيها النَّادر، وفي الغد سأبحث على من يدُلّنا على حجرة تكتريها، ولن أتركك وحيدا؛ سأصحبك في جميع رحلاتك في أرجاء المدينة، أو إلى خارجها؛ حتى تُحقق ما لأجله قدِمت؛ إلا إذا أردت أن تكون بمفردك في بعض الأوقات.

سعد نادر بما أبدى عبد الرحمن من استعداد لمساعدته، وفرح كثيرا، لأنه التقى بمن سيعرف عن طريقه أشياء كثيرة ستُمهِّد له الطريق إلى استكشاف مخزون المنطقة من الطبقات الجيولوجية، والمستحاثات، وما يعيش فيها من الحشرات والزواحف والطيور. قال:

– إنه من جميل الأعمال ما ستفعله من أجلي، وفيما سنُنجزه متعة لنا معا.

عبرت الحافلة جسرا؛ تمر تحته سكة حديد؛ قال عبد الرحمن بأنها تلك التي تربط بين (خريبكَة)؛ المدينة المنجمية، و(وادزم)، وامتدت بعيدا؛ لتنعرج متجهة

إلى المدينة، وتظهر قضبان تغيير وتنظيم القاطرات والعربات، ومستودعات كبيرة؛ قال عبد الرحمن:

– بعدها هنالك محطة القطار.

وخففت الحافلة سرعة عجلاتها، وسارت في شارع بين البنايات، وسابلة وسيارات متوقفة، ورأى نادر سيارة سوداء اللون؛ من نوع (بيجو 304)؛ من خمسينيات القرن العشرين؛ تركة زمن مضى يصل بين ماضي المدينة وحاضرها، وضمت الحافلةَ ساحةٌ تحيط بها مقاه ومطاعم ومتاجر، اسمها (ساحة الشهداء)، وفي جهة منها ما تزال كنيسة قائمة البناء، تظهر في جزئها الأعلى آثار الناقوس.

نزل عبد الرحمن وتناول صندوقه الحديدي، ونادى على سيارة أجرة، وتبعه نادر، فركباها معا، ولم يسأل السائق عن مكان وجهتهما، لأنه يعرف الميكانيكي عبد الرحمن ومحله، وردّ بتحية، وسُئل عن الحال فأجاب بسعة خاطر وبنفس قانعة، وانطلقت بهما السيارة، فكانا راجعين في نفس الشارع الذي اتجهت في طوله حافلة السفر إلى المحطة، وانعطفت السيارة شمالا، وصعدت شارعا عريضا؛ الذي هو الطريق الآتي من (خريبكَة)، ويتفرع داخل (وادزم) إلى اليمين؛ إلى طريق يتجه إلى مدينتي (الفقيه بن صالح) و(بني ملال)، وإلى اليسار إلى مدينة (أبي الجعد)[16]، وبعد توقف في علامة مرور؛ دارت حول نفسها، وعادت في طول ممر مواز، وكبح السائق اندفاعها أمام ورشة الإصلاح؛ تعلو أبوابَها المشرعة لوحةٌ باسمه؛ بخط كبيرة حروفه، وترجل عبد الرحمن، وكذلك نادر الذي طفق ينقل ناظريه في محل واسع الأرجاء؛ تقف سيارات داخله، وجرار ومُمهدة طرق، ورافعات للمحركات يدوية؛ بسلاسل بكرات معدنية أو هيدروليكية، وثلاثة أو أربعة ميكانيكيين؛ متسلحين بالمفاتيح وبأدوات وآلات الفك والتركيب والضخ؛ كل واحد منهم عاكف على ما هو مكلف به، وبرز من بين هذا الجمع من المركبات، ومن يذهب ويؤوب في الفُسحات؛ كأنه في متاهة؛ شاب أطول من عبد الرحمن؛ عُتلّ؛ عالي الجذع وعريض المنكبين ومندفع الصدر؛ يرتدي بذلة الإصلاح الزرقاء، وبيده عُدة الميكانيكا؛ قال عبد الرحمن؛ وهو يُقدّمه إلى نادر:

---

[16] مدينة توجد إلى الجنوب الشرقي من العاصمة الرباط؛ على مسافة 174 كلم؛ يصل عدد سكانها إلى 46893 نسمة؛ حسب إحصاء 2014.

– هذا ابن عمي إحسان.

وعرَّف ابنَ عمه بنادر قائلا:

– المسمى بنادر؛ طالب علم بالجامعة؛ زائر لمدينتنا، ضيفنا هذه الليلة.

مد إحسان يده للمصافحة مُرحبا، وأسرع نادر ومد هو الآخر يده، وهو يرى رجلا في سن الشيخوخة يجلس على كرسي في عمق المكان؛ يُغطي رأسه بطاقية بيضاء، ويرتدي قميصا طويلا في نفس اللون؛ تتكئ يداه على عكاز بمقبض منحوت، وبلون بني لامع؛ ينظر بملامح بصرامة السِّنين المديدة، وظهر لنادر الشبه. قال عبد الرحمن مُعرّفا به إليه:

– والدي محمد.

رفع الوالد محمد عينين حيّتين تبرقان؛ وإن تثاقلت الحركات؛ في وجه نادر؛ يتفرسه ويُدقق فيه. ابتسم وقال بصوت خفيض:

– إنه ابن فصول الدراسة؛ يتعلم بجد.

وسأله:

– كيف حالك وحال والديك؟

أجاب نادر، وقد شد يد الوالد محمد المتباطئة، وتصافح معه؛ قائلا:

– بخير والحمد لله.

نطق عبد الرحمن مُوجها كلامه إلى والده:

– سيحتاج إليك يا والدي في أمر يهمه.

حرك الوالد رأسه بالموافقة، وقد أدرك وهو الذي بلغ من العمر أكثر من سبعة عقود أن نادر قدم للحصول على أشياء من المدينة. خطا عبد الرحمن في اتجاه باب حديدي من دفتين؛ ودفع إحداهما، وأشار إلى نادر بالتقدم، ودخلا معا ساحة داخلية واسعة، توجد في الخلف، وتُطل عليها واجهة من طبقتين؛ تعلوان محل الإصلاح؛ جزء منها دون سقف، والجزء الآخر مسقوف بإتقان؛ تحته سيارتان؛ عندما شاهدهما نادر؛ لم يخط قيد أُنملة، وتسمر في مكانه، وهو لا يكاد يتفوه.

قال عبد الرحمن:

– إنهما يجعلان الإنسان سعيدا، ويحيا بهما ماضي السيارات الميكانيكية الزاهر؛ هذه (بوجو 203)؛ بلون رمادي؛ (موديل) 1948م، وتلك شاحنة (فورد F 100)؛ بلون أزرق فاتح؛ (موديل) 1955م؛ هما لك، فشاهد، واستنتج كيف كان يفكر صنّاعها؛ أولئك القوم، وكيف أحدثت السيارات في أوج ابتكاراتها؛ تغيرات جذرية في مجتمعات الغرب، وكيف تقدم ذلك الغرب، وخطا إلى الأمام، فامتلك ما هيمن به، وأدار بلدان العالم.

لم يترك نادر السيارتين إلا وأمعن نظره فيهما وتأملهما، وشغّل المحركين، وأضاء الأضواء، وماسحات الزجاج، واشتم رائحة الماضي؛ ما تزال تفوح منهما؛ من جلد كراسيهما المحشوة، ومن المذياعين؛ اللذين ما يزالا يلتقطان ما تبُثّه الإذاعات على الموجات الطويلة والقصيرة، ومن الأجهزة المركّبيْن بها المحركين، وساقهما مُتقدما بهما، وأرجعهما إلى مكانيهما.

التفت نادر إلى عبد الرحمن، وإحساس بالمتمنيات والرغبات يغمر كيانه. قال:

– كم أتمنى أن أمتلك واحدة؛ إنها البهجة الحقة، أنت من أدركت الجانب الأكثر إغراء في مهنة الميكانيكا.

قال عبد الرحمن:

– ذلك ما وجدتني أفكر فيه، وقد أبدأ بالتخطيط في الاتجار في مثل هذه السيارات، قد استرجع البعض منها ما يزال يأكله الصدأ في المغرب. إنها لسعادة النفس، وفائدة وعائد مالي، والمواقع الإلكترونية تُتيح مجالا للعرض... هيا بنا لنستريح من السفر، ونتناول وجبة، فالجوع يكاد يقضي على شعورنا بالأشياء الجميلة في الحياة.

وصعدا على السلّم إلى الطابق الثاني، ودخلا غرفة، كان أول ما لفت انتباه نادر هو صور فوتوغرافية لسيارات كلاسيكية مُعلقة على جدرانها، وبترتيب حسب تاريخ صُنعها، والتي انجذب إليها؛ هي تلك التي تعرض سيارة (فورد T) موديل 1919م الأمريكية، وكان يعلم أنها الأولى التي رُكّبت بطريقة الإنتاج التسلسلي، أو خط التجميع؛ فكانت تمثل أزهى مرحلة الاستعمال الواسع للسيارة في أمريكا؛ في العقد الثاني من القرن العشرين، وغاب عبد الرحمن خمس دقائق، ثم عاد ليقول إلى نادر:

– لقد أعددت لك كل ما يلزم لينتعش جسدُك، فيزول عنك التعب، وتستمتع بالراحة بدفق الماء البارد في هذا الجو الحار، وسأُلِيك، ورائحة لمرق لحم الضأن يغلي؛ يشمها أنفي؛ تأتي من المطبخ، فأشتهيها إلى حد أنني أتعجل غمس قطع الخبز في السائل الدسم.

قال نادر بارتياح:

– لقد أحسنت إليّ كثيرا، وقد كنت فزِعا بسفر أقوم به إلى مكان أجهله، ولم أكن أعرف كيف ستكون إقامتي، وأين.

قال عبد الرحمن:

– وأنتَ وجدتُ فيك من هو مُؤهّل ليُشاركني عالم أمنياتي.

بعد عصر ذلك اليوم كان إحسان قد استدرج أحدا يحترف الجِزارة في أسواق المنطقة؛ جاء ليُصلح شاحنته؛ إلى حديث عرف من خلاله أن في وسط المدينة دارا يُكترى بعض حُجراتها، وبخاصة لتجار الأسواق الأسبوعية، ولحصادي المواسم، وللعمال، ولبائعات الدجاج والزبدة البدويات، واسمَ صاحبها، وأخبر ابن عمه عبد االرحمن ونادر بذلك؛ خرج هذان، وسارا في ذلك الشارع العريض؛ كان نادر يتفحص البنايات؛ كان منها ما هو حديث البناء، ومنها ما هي جُدر قديمة؛ بحجارة وأتربة وطلاءات الماضي؛ مُشققة المِلاط، ومُذَرْذرة التراب، تنبت عليها نباتات، ووجوه المارة، والساكنين. غادرا الشارع الكبير، ومَشيا في زقاق واسع؛ ظهرت في آخره وفي جانب منه صومعة جامع؛ لم يصلا إليها؛ إذ سلم عبد الرحمن على رجل في مثل سن والده؛ يجلس على دُكانة[17]؛ مبنية بالحجارة؛ أمام باب بدفتين كبيرتين برؤوس دبابيس ضخمة؛ رد السلام، ولفت نظره نادر؛ إذ عرف أنه غريب عن المدينة، وابتسم في وجه عبد الرحمن، ورحَّب بهما، وتأهب إلى تنفيذ ما يُطلَب منه. قال عبد الرحمن:

– حجرة للكراء لضيفنا نادر.

ضحك الرجل وقال مازحا:

– وهل عجلت بضيافته وأحسنتها؟

[17] تأنيث لكلمة (دكّان)، وتعني المصطبة.

قال عبد الرحمن:

– إنه في ضيافتنا معا، قم واختر حجرة تليق بالوافد.

قال الرجل:

– حجرة بسريرين؛ كان يقيم فيها سائق حاصدة ومساعده؛ رحلا هذا الصباح؛ تحتاج إلى كَنْس وتطهير وغسل، وسآتي لضيفنا بفراش وغطاء نظيفين؛ يليقان به، ومِنضدة لم يسبق لي أن جلبتها لأحد.

قال عبد الرحمن:

– إنه طالب علم، وله شوق فضولي إلى معرفة تاريخ مدينتنا، وحياة الناس فيها، وما في باديتها من حيوانات برية، وطيور، وحشرات. سيبيت هذه الليلة في بيتنا، وفي الغد سأرافقه، لأقف بنفسي على حالة الحجرة.

قال الرجل:

– سترى ما ستطمئن إليه، وسيَسْعد زائرُنا نادر.

ودفع نادر للرجل ثمن كراء عشرة أيام.

الفصل الثاني

رحلة إلى البادية

أشرقت شمس أيام الصيف الأخيرة على (وادزم) ؛ هذه المدينة التي تقبع بناياتها في أسفل حافة هضبة الفوسفاط؛ البعض من بيوتها واطئ؛ موروثة حيطانه الحجرية العريضة السمك عن عهد فائت؛ يوم كانت السقوف مخلوط تراب منشور على جذوع شجر أُزيلت أوراقها وفروعها؛ حيطانه مطلية بالجير الأبيض؛ تنتهي أزقة المدينة بمنازل، وتمتد شوارعها الفسيحة إلى الداخل؛ حيث تضيق في أزقة تمتلئ بالمطاعم والمقاهي ومحال بيع المواد الغذائية والأثاث والأثواب والأقمشة والحلي.

كأن المدينة خَرَزَة عِقد منثور الحبات، ومقذوفة هنالك أبعد من مدينة (خريبكَة) ذات المنجم العالمي، والموثق اسمها في سجلات وزارات بلدان القارات الخمس، وآلاتِ استخراج الفوسفاط العملاقة، وعلاماتِ سكة الحديد؛ هذه المبسوطة قضبانها إلى ميناء (الدار البيضاء)[18]، ولوحاتِ تحذير كبيرة؛ منصوبة على الطريق المصقول بالقار؛ تمتد على جانبه تلال أتربة المنجم، وأراضي البادية تنفسح؛ إلى حيث تظهر في صفاء سماء الصيف قمم جبال الأطلس الهائلة؛ يتراقص على حصائدها، وعلى حجارة أسوار التَّعدين[19] –قصيرة تحجز بين الحقول– لهيبُ حرارة القرص المشع.

كأن المدينة منسية، كأنها مكانٌ للمغامرة، واختلاس الأفعال، ونقطة عبور يصل بين مراسي الساحل الأطلنتي؛ التي أُلقيت فيها مراس سفن الغزاة الأوروبيين، وسهول البلاد الداخلية، ومقدمات تلال تلك الصروح الصخرية جبال الأطلس.

---

[18] هي عاصمة المغرب الاقتصادية؛ توجد على ساحل المحيط الأطلنتي؛ يبلغ عدد سكانها 8.183.593 نسمة حسب إحصاء 2014م.

[19] مصدر فعل عَدَن؛ عَدَن الحجارة بمعنى قلعها.

والقادم من (خريبكَة) يُفاجأ باجتياز قمة الحافة -وقد نُجرت فيها الطريق- ببيوت (وادزم) في ذلك المنحدر، يهبط بك حدور بنسبة انحدار زاوية ضعيفة؛ إلى أدنى منخفض؛ حيث مجرى مياه نابعة، أكان ذلك الينبوع من الماء مقصد العابرين الظمأى؛ فيما مضى من القرون، فوُلدت مدينة (وادزم)؟ إليها كان يتجه، أو ينطلق منها؛ الباحثون عن أماكن تُلائم، ولعرض سلع الربح؛ لاستكشافها أو لاستقرار موسمي؛ قد يمهد للدائمين.

فما سِرّ (وادزم) وكيف آل بها؟ وما الحكاية وما اللغز؟ هل هي كقرار آبارها. كانت بيوتها الحجرية خفيضة، وكانت المدينة ستكون زاهرة العمران؛ لكن سفن تيارات البحار والمحيطات المستكشفة؛ كانت ترسو، فجذب ساحل المغرب الأطلنتي التجارة الرائجة، وأقفرت القارة أو كادت.

ارتفعت حرارة جو (وادزم) في الظهيرة، وكان عبد الرحمن ونادر يأخذان في ذلك الوقت طريقهما؛ إلى دار الحجرة التي اكتُريت. كان الرجل في انتظارهما باشا؛ يجلس على (الدُكّانة) التي انتبه نادر إلى شكل بنائها، فسأل عنها عبد الرحمن؛ الذي أجاب بأنها عادة بناء في المدينة، وهي تحكي عن عادة الجلوس عليها في أزقة المدينة الفسيحة، وخاصة بعد العصر وفي ليالي الصيف الحارة المقمرة.

اجتازت قدما الرجل عتبة الباب الواسع، فتبعه الإثنان. سمع نادر وقع الوطء في مدخل مسقوف، ثم باب جانبي أوسع، فساحة رحبة؛ مربعة ومُبلّطة بالأسمنت؛ تحيط بها عدة حُجرات؛ لكل واحدة باب بدفتين خشبيتين، وفي وسطها بئر؛ عليه حائط دائري؛ يتدلّى من بَكَرة تعلوه حبل؛ إلى عقدة مُحكمة بدَلو موضوع على الأرضيّة، وفي جانب منها ساق دالية؛ مفتول الجذع، خشن ومعقود، ترتفع أغصان الدالية وتتمدد على سقيفة بأعمدة تُزهر عليها أوراقها، وتتدلى منها عناقيد العنب الناضجة الخضراء. تسطع أشعة الشمس على المكان، فيتبخر الماء المبتل به الحبل والدلو، وما تدفق من الدلو ومما فاض منه، ولم يمش الرجل بعيدا، فالحجرة التي تُجاور المدخل هي التي فتح دفتيها، رفع عليهما ستارة من نسيج، تُتيح دخول نسائم الصباح والمساء، وقال مُوجها كلامه إلى نادر:

– هذه هي الحجرة، وما أُثّثت به؛ سرير، ومنضدة تتناول عليها وجباتِك وتكتب وتطالع، ومن جيرانك من هم من بدو المنطقة؛ كُرماء وغيورون، فاستجب إذا دعُيت إلى عشاء هذه الليلة.

كانت أصابع يد الرجل اليمنى تُمسك بمفتاح؛ نظر إليه نادر بدهشة وابتسم؛ كان شكل صنعه بسيطا؛ شُد إلى حلقته الكبيرة خيط مُتسخ مفتول بمتانة، وحديدة الفتح بسيطة التقنية، وتآكلت بعض الشيء، ونظر كذلك إلى القفل؛ كان هو أيضا بسيط التركيب. أخذه ولم يتحر، ولم يسأل هل يُوصِد المفتاح حقا، ويُستأمن.

وفارقهما الرجل وخرج.

دخلا إلى الحجرة، وجالت عيونهما في أرجائها؛ وجداها نظيفة، وإن كانت ما تزال تحتفظ بروائح من سكنها من قبل.

قال عبد الرحمن:

– سأتركك الآن؛ لتُنظم حاجاتك، وتُخطط لرحلاتك، وما ستقوم به. سآتي بعد العصر لنذهب إلى حديقة بركة الماء المعروفة عند السكان باسم (اللاّك؛ Lac)؛ لنبحث من بين معروضات الأرصفة عن لوحة لأسنان قروش سالمة؛ مما يُعثر عليه ونفحَصها.

قال نادر:

– ليكن لقاؤنا بعد آذان تلك الصومعة.

كان المسكن إذن داخليا، فعَزَله تصميمُه عن حركة الشوارع الدؤوبة، والضوضاء، فأحاط بنادر سكون، ولم يكن يسمع غير وقع أقدام هادئ ومحتشم، وأنين بكرة البئر، وارتطام الدلو بماء الفرشة الباطنية، وصرير حبل يرفع الماء العذب، وقرقعة صحن، أو قدر، أو كأس، أو نحنحة كهل، وسعال كبير السن، وبكاء طفل، وتسربت إلى أنفه رائحة قِدر؛ يغلي مرقُه الشهي على مجمر لاهب.

أتاح الهدوء لنادر تسطير برنامج، فبعد الخروج بخمس ساعات من ذلك الوقت؛ كما اتفق مع عبد الرحمن؛ سيعود، وسيختلي بقلمه ومذكرته؛ ليكتب بما أوحى إليه السفر، وأجواء هذه المدينة، ونواحيها المترامية الأطراف، وسيقترح على

عبد الرحمن أن يسلكا في الغد أحد طرق البادية، ثم أحد مساربها التربة ليتوغلا في البرية؛ وفي بيئتها الطبيعية؛ نهارا ووقتا طويلا من الليل.

وهو في عوالم خيالية؛ إذ سمع طَرْقا، فآب من هنالك، ونهض، ورفع طرف السِّتارة؛ كان الطارق صبيا؛ في الخامسة من عُمره؛ يرفع رأسه وينظر إلى نادر فحَسب؛ بعينين لا تنطقان بشيء، ولم يتفوه بأي كلمة. أعطى إلى نادر ما هو مصرور في منديل أبيض؛ مُطرّزة جوانبه؛ بيد أنثى حالمة. أخذ نادر يد الطفل الصغيرة والبريئة، وحياه، وأخذ ذلك الشيء، فما كان من الطفل إلى أن التفت ناحية حجرة وجرى، وقد تربى على خُلق اسمه (الكَرَم). رجع نادر، وفك أطراف الصُرّة، فوجد خبزة ساخنة؛ صنعت عجينَها تلك اليد المرحبة بغبطة الحياة، وطَهتْه. خرج واشترى عُلبة حليب، فكان خبز قمح المنطقة والحليب؛ هما غَداءه في ذلك اليوم، ثم تمدد في استرخاء على السرير، فأنّت عيدان هذا الأخير الخشبية التي ترفعه، وغفا في جو البيت الهادئ.

هل نام؟ لم يعهد هذا، فلكل مكان أجواؤه، فقد استيقظ كأن أحدا ينادي، ونقر الدفّة، وسمع صوت عبد الرحمن، فنهض وقال:

– أُدخل؛ لقد رعتْني سماءُ مدينتكم، وأسمعتني أغاني التِّرحال والبُعد، فنِمت.

دخل عبد الرحمن وسأله:

– هل تغدّيت؟

أجاب نادر:

– على كرم الجيران؛ ما أطيب عِشْرتهم!

قال عبد الرحمن:

– لننطلق؛ حتى نجد متسعا من الوقت، سنذهب مشيا على الأقدام لتتعرّف على المدينة.

وبرحا محيط الحجرات الهادئ، وكان في مثل ذلك، وسيظل ربما حتى تُدكّ حجارتُه في يوم سيأتي، ليتعمّق الحفر الميكانيكي؛ في طبقة التراب العذراء، وسيُردم البئر؛ لبناء أساسات أسمنتية، ودهليز مظلم، وسترتفع فوق جميع هذا عمارة من طبقتين، أو ثلاث، أو أربع، وسيكبُر الطفل، ويبقى السؤال: وسجية الكَرَم؟ لعل تغيرا سيحدُث.

سار عبد الرحمن ونادر يرافقه؛ في ذلك الزقاق الذي قادهما إلى داخل حي الدكاكين؛ تسوده حركة تجارية رتيبة، ومشيا في طريق ضيق آخر أفضى بهما إلى ساحة الكنيسة، والتي هي محطة الحافلات، وسيارات الأجرة، وعربات نقل البضائع تجرها الدواب، وانحدر بهما شارع؛ في جانبه الأيمن باب حديقة؛ على إحدى ساريتيه لوحة قديمة؛ مُحيت بعض حروف كتابتها، فلم يعد يُقرأ منها شيء، ودلفا إلى الداخل، فسمعا حفيف أوراق الشجر، وتغاريد العصافير، ونقيق الضفادع، ونعيق طير أتى من بعيد، وخطوا في ممرات؛ يتمشى في طولها بعض المتجولين، وتحت ظل أيكة موروثة عن غدير؛ كانت تتدفق فيه مياه عين؛ جلس على كراس من يعرضون لوحات مختلفة الأحجام، رُتبت عليها أسنان القرش، وعليها زجاج؛ واحد منهم تعددت وتنوعت سِلعته، ولا يظهر منها ومن ملامحه إلا أنه محترف، فاتجه إليه عبد الرحمن، ونادر يتبعه؛ سلّما عليه، ثم سأله عبد الرحمن:

– أرى في كل لوحة على حدة؛ من الأسنان ما هو سالم وما هو مرمم الرأس المكسّر بالجبس.

راح تاجر أسنان القرش ينقل ناظريه بين عبد الرحمن ونادر، ويُحدّق في وجه وهيئة نادر بالخصوص.

يوم نزل نادر من الحافلة التي قدم فيها من المدينة الساحلية؛ لم تحدث هزة تكتونية؛ لكن هذه المرة مادت بنية (وادزم) الصخرية تحت قدمي التاجر الشاب، فأصابه دُوار، وظل جالسا بعض الوقت مكتوم الأنفاس، ثم نهض واصطنع ابتسامة؛ قال:

– أتريدان أسنانا سالمة مائة بالمائة، ولوحة تضم أنواعا تقريبا كاملة؟

أجاب نادر:

– نعم، ودون كُسور أو خدوش.

التفت وغاب وراء جذع الشجرة، وعاد يحمل لوحتين عرضهما عليهما. همس عبد الرحمن في أذن نادر سائلا:

– ما رأيك؟

لم يجب نادر، وأخرج من جيبه مُكبرة، فالتصقت عيناه بعدستها المصقولة، وصار ينظر بإمعان إلى الأسنان؛ واحدة واحدة، ثم قال:

– أسنان قرش أصلية، وبِـ(مينا) واضح، وببريق طبيعي؛ سأشتري اللوحتين معا.

لم يفاوضا البائع في الثمن، فقد أنقده نادر المبلغ الذي يريد؛ لأن قيمتها الإحاثية أثمن من ذلك كله.

كُوّمت اللوحتان في ورق مُقوّى شُدّ بشريط لاصق، وتأبط كل واحد منهما إحدى اللوحتين، وتتبّعا ممرات الحديقة، وهما يستروحان أشجارها وبحيرة الماء؛ التي يسبح فيها نوع من السمك، وطافا حولها، ورجعا في ممر آخر مواز، فرأى عبد الرحمن ما جعله يستغرب؛ فقد اختفت ألواح أسنان القرش التي كانت موضوعة للبيع في الظل، ولا أثر لعارضها، فبحثت عيناه في جميع الاتجاهات، فرآه يحمل اللوحات ويجدّ في السير، ثم ينحرف عند نهاية سور ويختفي؛ توقف وهمز شاكلة نادر، وقال:

– لقد شاهدتُ فعلا غريبا.

– سأل نادر:

– ماذا شاهدت؟

أجاب عبد الرحمن:

– كأن بائعَ أسنان القرش ترك الحديقة؛ بعد البيع مباشرة، وهو يتعجل خطواته؛ هل الأسنان مُزوّرة؟

قال نادر وهو ينظر إلى أسفل فروع الشجرة الخالي:

– لقد دققت فيها نظري، وحسب معرفتي فلا غش فيها.

أتى عبد الرحمن مرة أخرى بحركة استغراب، وخطا، فتابعا سيرهما في صمت، لأن عبد الرحمن كان يسترجع من حين لآخر صورة مغادرة بائع اللوحات، وانطلاقته الحثيثة، ولا التفاتة إلى الوراء؛ كأنه كان يريد أن يختفي دون أن يسترعي ذلك انتباه أحد، وبالأخص البائعين الآخرين، وكأنه اكتشف أمرا خطيرا، وأسرع في إخبار أحد به.

إنه إحساس بغرابة موقف، وتساءل عبد الرحمن بينه وبين نفسه: «هل لذلك علاقة بنادر؟»، فهو مُتيقن أن للبائع تجربة، وأنه عرف أن لنادر قدرا من الخبرة،

وأنه حَدَس شيئا، وأن نادر الآن بمدينة الحكاية؛ ستُسِرّ إليه، وستمُدّه بما مضى، وما يجري في الحاضر.

من يكون ذلك الشخص الذي هَرع إليه البائع ليُنبِئه، أو هو اعتاد أن يستخبره؟

تتناقل الأخبار همسا أو غمزا أو لمزاً بين أفراد ثُلة؛ يُظن بأنهم عناصر عصابة؛ هو ما لا يعرفه أحد من القاطنين، ولا من كسابي الماشية، ولا من يَمُدّون المدينة بخضر وبُقول الضواحي، وبنعناع الأحواض المسقية، ولا من بائعات الدجاج والبيض وزبدة حليب النعاج، وأن (وادزم) لؤلؤة عقد منثورة حباته؛ على مرمى حجر من (خريبكَة)؛ ذات بقايا بحر الأزمنة الجيولوجية؛ المتحجرة منها والمتحولة، وذات المصداقية الأحفورية، والصيت التعديني العالمي، ومما كان يُعرض على أرصفة الحدائق هو قليل مما يُؤمل أن يُعثر عليه من طرف تلك الجماعة.

فنادر قَدِم من عالم من يبحثون في إحداثيات المواقع الجغرافية، وفي العيّنات، ويتوغلون في المغاور.

في كل الأمكنة والأزمنة تواطؤ ومناورات.

لاح لنادر انعكاس ضوء الشمس الغاربة على حائط إحدى البنايات الخلفي، فاستحضر وقتا من تلك الأوقات التي يقصد فيها شاطئ البحر، فيجلس على صخرة، ويظل يستمتع بالقرص الأحمر، وهو ينحدر وراء أفق البحر؛ ليغيب وتبقى قلة من ضوئه الخافت.

أضاءت المصابيح الشوارع والأزقة؛ توزّعت أنوارُها المعلقة على الأعمدة؛ على طول الأرصفة، وأنارت أخرى باهتة إلى حد ما المقاهي والمطاعم والدكاكين، أو ظهرت من خلال نوافذ المنازل. نظر نادر إلى سماء صافية، وتخيل في تلك الناحية غير البعيدة إلى الشمال الغربي؛ الآلة الجبارة؛ التي تُفكك تربة الفوسفاط السطحية؛ بعجلتها المسنّنة؛ وهي ساكنة؛ زحف عليها ظلام الليل، فأصبحت تبدو مُبهمة دون شكل، والشاحنات ذوات العجلات الضخمة، والقادرة على حمل التُّلول؛ مركونة، وما تغير من الأرض؛ فتعمقت حُفرٌ، وسُحقت التُّربة، وهمد عَجاجُها، وارتفع الركام أشباحا هائلة مخيفة، وفكر فيما طُمِر منذ أزمان سحيقة،

وتشكلت أمام عينيه صورتُه، وهو حيّ يتحرك ذلك الكائن الذي هو عظام متحجرة، وهو الذي يجعل للأرض زمنا، وتوضع لهذا حِقب.

جعل ليل (وادزم) نادر يبحث في ذاكرة المدينة، ويتفكر في كل من حل بها وسكن؛ ممن قصدها من البوادي القريبة أو البعيدة، واليهود والأوروبيين، وأُقبِر البعض منهم فيها، أو هاجر أو رحل منها ليعود إلى وطنه، وقد تركوا ما غدا لتلك المدينة من وقائع؛ تُروى للأجيال؛ ليست المدينة بذلك التنوع العمراني، ولا بأنشطة من يسكُنونها، ولكنها بزخم ذلك.

لم يتأخرا إلى ساعة يكون الناس فيها قد آووا إلى بيوتهم، فعادا ودخلا ورأيا الأضواء؛ تشع من ستائر الحجرات؛ كأن هذه شفافة. وافق عبد الرحمن على القيام بالرحلة غدا، فبسط نادر خريطة، وصارا معا يختاران الجهة، فكانت تلك التي توجد إلى الشرق، وحدّدا الموعد، ثم فارق عبد الرحمن المكان.

بعد وقت قصير سمع نادر وقع خطوات يدنو، فطَرْق على الدفة الخشبية، ففتحها؛ كان الطارق رجلا طويلَ القامة؛ نحيل الجسم؛ لكنه كبير الهيكل وصلب العود؛ كان الأول من سلَّم، فرد عليه نادر بأدب. قال الرجل:

– لقد علمت بقدومك، وأنك طالب جامعي، ولا يمكن أن تبيت هذه الليلة دون أن تتعشى في بيتي.

لم يعتذر نادر امتناعا، ورافق الرجل إلى تلك الحجرة التي عاد إليها الصبي جريا في هذا الصباح، فجلسا على فُرش صوفية مبسوطة على الأرض، واتّكآ على وسائد جانبية، وأخرى إلى الخلف؛ على الحائط. تحدث الرجل فقال:

– أعمل حفارا للآبار، وقد تعلمت الحرفة من مُعلّم كان يحفر الآبار في المنازل وفي البادية، لأن لا وجود لنهر جار يمد المدينة بالماء، وبالقدر الذي يكفي. إنها مُريعة تلك الآبار، قد يصل عمقها إلى أربعين مترا؛ لأن مستوى ارتفاع الفرشة المائية يختلف من فصل لآخر، ومن سنة لأخرى ومن عقد لآخر؛ حسب تقلبات المناخ، وقد وقعت أحداث؛ حيث كان الناس يسقطون فيها؛ حُكي عن امرأة تسلقت حائط فتحة البئر؛ لتثبيت الحبل في البكرة، ففقدت توازنها وسقطت، وفي بئر آخر غير بعيد عن المقبرة؛ عُثر على فتاة في عمقه؛ رمى بها أحد لسبب اجتماعي. قد يكون زمن الحفر بتلك الطريقة قد ولى، لأن العملية

كانت تتطلب رجالا أقوياء؛ يحفرون ويهبطون مع التعمق؛ أما الآن فالآلة هي التي تحفر بإسفين طويل قناةً عمودية؛ يتسع محيطها لمحرك لضخ الماء كهربائي، وأنا من أُشغّل إحداها؛ صاحبها ينظر إلي ولمساعدي بإكبار، ولا تُملي عليه نفسه بفعل يضُرّ بنا، وإني أعمل جاهدا لأستقل.

كان نادر يُنصت باهتمام، ونقل ناظريه إلى ركن؛ رأى فيه قطعا من الحديد الصُّلب، من تلك الآلة الحفّارة؛ عليها الشحوم والزيوت الميكانيكية. سأل الرجل قائلا:

– وماذا عن الآبار المهجورة؟

أجاب الرجل:

– في المدينة يتم الاستغناء تقريبا عن الآبار، وتُمدّ البيوت بالأنابيب، وفي البادية تبقى، فتُردم بانجراف الأتربة وبالحجارة؛ خلال مدة زمنية طويلة، وتحتاج إلى كنس، وسبق أن قمت بذلك؛ كان قد جاءني قروي وطلب مني إعادة بئر أجداده.

سأل نادر:

– وكيف تهبط؟

أجاب الرجل:

– في جوانب البئر تَتَالى دَرجات داخلية؛ تضع فيها رجليك؛ الأخطر في ذلك شيء آخر...

وابتسم الرجل بثقة؛ مُظهرا خبرته وشجاعته، واستطرد في وقت كان فيه نادر يحدق في وجهه؛ مُتلهّفا إلى سماعه:

– الحيات، والسحالي، وخلايا النحل، وفروع النباتات الشائكة؛ يتطلب هذا سلاحا، وهو قضيب من حديد؛ طويل وصُلب، وغالبا ما يكون من ذلك الذي يصل ما بين محرك المركبات والعجلتين؛ لنقل حركة الدوران؛ يَدُقّ الحداد أحد طرفيه، ويشُقُّه إلى رأسين؛ يُسنّان وتُشحذ جوانبهُما، فيصيران كالسكين في حدته؛ تسبر بها الشقوق باحثا عن الخطر، وتضغط على الحية أو العقرب، فتفصل رأسها عن جسدها.

علّق نادر قائلا:

– فكرة عظيمة وقاتلة.

وزاد على كلامه فقال:

– هذا ما أريد معرفته؛ أن الآبار بيئة تسكنها مثل هذه الزواحف والحشرات، وقال في نفسه: «... وإنها أمكنة مُتاحة لدراسة ما توفره كملجأ للكائنات الزاحفة، ولجمع هذه وتحليل سمومها».

قال الرجل ضاحكا:

– وقد نجد شيئا آخر جميلا؛ كأعشاش الطيور؛ ترى فيها بيضات منقطة بالسواد؛ لم تُفقس بعد، وريش الحضانة، أو عصافير صغيرة حية تشرئب بأعناقها الطويلة، والممدودة إلى من يمد إليها بالطعام، أو البعض منها ميت.

قال نادر مُستنتِجا:

– تلجأ الحيوانات ذات الأظلاف والزواحف والحشرات والطيور؛ عادة إلى مخابئ؛ لحماية نفسها وصغارها من الخطر.

قال حفار الآبار مُضيفا:

– حتى النباتات، فالنبتة تنمو، ويطول جذعها، وتتفرع أغصانها، وتَكبُر أوراقها، وتُزهر؛ في منخفض، أو بين شقوق الصخور، فلا تستطيع الحيوانات العاشبة الوصول إليها.

قال نادر:

– لذلك فالأدغال والأحراش؛ التي لا يطرقها الإنسان، والمحميات المقننة؛ بيئات للتكاثر.

كان الطفل جالسا بينهما في حركات دائمة؛ وينظر إلى نادر بعينين مُستكشفتين، أو مُتكئا على كتف والده، وخرجت زوجة الرجل في أدب واحتشام؛ تسْدُل وِشاحا على رأسها وكتفيها؛ من وراء ستار يتدلّى من أعلى السطح؛ يفصل مكان جلوسهما عن القسم الآخر من الحجرة، وخَدمتْهُما بأن أنزلت مائدة خشبية مستديرة؛ حيث يجب أن تكون، ووضعت عليها صينية بها إبريق شاي بلون فضي لامع، وكؤوس مزينة، وصحنَ زبدة وخبز، ثم بعد ذلك طلعت عليهما بيدين مثقلتين بطاجين طيني كبير؛ وضعته؛ بحيث احتل وسط

المائدة، ورفعت عن محتواه غطاءَه العالي والمتوج بمِقبض، ففاحت منه رائحة مرق لحم الخروف، وبصحن آخر ممتلئ بعناقيد العنب؛ المائلة لونها إلى أحمر شفاف.

لم يطُل بهما الوقت، فلم يكن نادر ممن يروق لهم السهر، وتكلم إلى الرجل بحسن ضيافته له، ونطق الرجل بأنه سعِد بالحديث، ويتمنى أن يجمعهما لقاء آخر، وكذلك نادر، ثم خرج من حجرة المستضيف ودخل إلى حجرته.

سكنت دُنيا المدينة، فحاول نادر أن يقرأ، لكنه غفا ولم يَنَم، فقد أرِق، لأنه لم يتكاسل عن فعل شيء، بل رغِب في أن يُنجِز شيئا، لأنه يتحمس للفكرة، ففتح كُرّاسته، وجذعُه ورأسه على الوسادة، ورجلاه على الفراش؛ هناك مُسترخيتان، وتناول قلم رصاص، فانبسطت الصفحات البيضاء أمام أفكاره، فخط رسومات وتصاميم لقلائد وأساور وخواتم؛ ارتكزت على الأشكال الهندسية المعروفة، كالدوائر والمربعات والمستطيلات والمثلثات، وبالأحجام؛ كالكرات والمكعبات والمواشير والأهرامات والأسطوانات والمخروطات، ثم نقلها على الأوراق المخصصة للرسم؛ واختار زاوية الضوء؛ إذِ استقامت الخطوط وتقوست، وانساب على المساحات الرصاص الأسود، وتمددت ظلالها، فظهرت بأحجامها مُتقنة الرسم، فهي لوحات فنية تشد النظر إليها؛ إذا ما عُرضت، فإنها تُغري بالاقتناء، وكتب في الهوامش أن خام الحلي هو الذهب أو الفضة، وأن مثلا هذه القلادة؛ سلسلة تتالى في حِلَقِها صفائح منقوشة برسوم سمك القرش، وتُدق على الأجزاء المسنونة والمقطوعة من أسنان هذا الحيوان البحري، فينضاف بريق هذه الطبيعي؛ ببريق الذهب أو الفضة، وتُحفر على تلك الصفائح أسماء أنواع الحشرات والحيوانات المتحجرة، فتكون هذه حِليا إحاثية، وفي معدن الخواتم تُحفر أو تُنحث كائنات برية وبحرية؛ حيوانية ونباتية، وفي فصوصها الزجاجية الشفافة تُحنط الحشرات، أو أعضاء من أجسادها أو هياكلها، فتكون حِليا أَحْيائية.

انكب نادر على فنونه وابتكاراته وقتا امتد به إلى منتصف الليل.

هذا ما تفتق عليه ذهنه، وذهب به فكره وخياله في أجواء السفر إلى مدينة البطحاء، وقد عدَّ اللوحات، فكانت أربعين، واكتسبت بقلمه البارع قيمة لها عائدها المالي، بل لا تُقدر بثمن، فهي قد غدت مصدرا لتلك الصناعة؛ صياغة الحلي، ويسيل لها لعاب الصّاغة.

*****

عندما أضاء نور الشروق بادية الشرق من (وادزم)، وكان ما يزال قرص الشمس يظهر خلف ما تضرس من الأرض؛ كان صوت محرك الشاحنة (فورد F 100) القديمة؛ هو من يوقظ الأحياء في ذلك الصباح، وليس غيره؛ وصياح ديوك تلك البيوت الطينية المطلية بالجير الأبيض الباهت، والمنتشرة هنا وهناك في الحقول المحصودة، وكانت الطيور تملأ سماء زرقاء؛ تحوم أسرابا، وتحط على أجمات أشجار، ونباتات كثيفة، وفي الأودية؛ لتشرب من ماء العيون؛ ببرودة ذلك الوقت المبكر من النهار، ثم تطير؛ تنعم بهواء الصباح العليل، والسكون.

كانت يدا عبد الرحمن تقبضان بحرص على المقود، وعيناه على طريق ثانوي؛ ضيق وخشن، فكان صوت احتكاك العجلات به ضخما، وبجانبه يجلس نادر؛ يجول بعينيه في الأرجاء، ويستمد من امتداد المنطقة معلومات تهمه، ويصل إلى أذنيه الحفيف والنّباح وصوت أحد الأدياك، ثم بعد قليل خُوار بقرة وثغاء شاة وصهيل حصان، وموسيقى مذياع الشاحنة.

كان حِمْل الشاحنة مُغطى بالغطاء ذي النسيج الاصطناعي، ومُقيد بإحكام بخيط سميك ومفتول، تُشد أطرافه إلى ماسكات جوانب ذلك الحامل الحديدي؛ تحته خيمة مطوية بطريقة فنية، وأعمدتُها المجزأة، وحبالُها، ونَضَد تُطوى أرجله الأربعة، وكرسيان من نسيج سميك؛ يُضم ما يرفعهما إلى بعضهم البعض، ومقلاة، وإبريق شاي، وقنينة زيت، وعلبتا سكر وحبوب الشاي، ولحم، وخضر، وتوابل، وسكين، وملعقتان.

سمع نادر عبد الرحمن يقول:

– أنظر خلفنا.

أدار نادر وجهه إلى الوراء، فرأى شيئا كان يسمع به؛ قال بانبهار وإعجاب:

– بندقية!

قال عبد الرحمن:

– نعم؛ بندقية صيد.

وتابع قائلا، وهو ينقر بيده اليمنى على صندوق حديدي؛ وُضع تحت كُرسيِّه، وعيناه لا تنصرفان عن الطريق الذي يمتد أمامه؛ كأنه دون نهاية، وينعرج تارة إلى اليمين وتارة إلى اليسار:

– وخراطيش... لا يُستأمن الخلاء. لم تطرأ الفكرة على بالي، وفي الوقت الذي شغلت فيه محرك الشاحنة باكرا، وهدر، وكنت أستعد للمجيء إليك؛ كان والدي قد وقف يتوكّأ على عكازه، والبندقية بيده، فمد بها إلي مُوصيا:

– لا تذهب إلى براري (وادزم) أعزل من السلاح، وقد تنفعك البندقية في صيد طريدة تشويها وتأكلها.

كأن نادر انتبه من غفلة؛ لقد فوجئ وانبهر بحرص الأب محمد؛ قال:

– تطول أعمار أجدادنا وآبائنا، وهم الذين يصلونا بالماضي، وقد تقلبوا في الحياة، وسمعوا عن حوادث كثيرة، أو كانوا في وقائع ومرت وهم في حال؛ قد لا يخبرونك بأي تجربة حدثت لهم؛ إلا عندما يحين وقت الكلام عنها، وأنك قد بلغت سنا من عمرك.

كان عبد الرحمن يُصغي وهو ينقل عينيه سواء في مرآة الشاحنة الداخلية، أو في المرآتين الخارجيتين، وكان يُظهر لنادر بتحريك رأسه أنه يُتابع سماعَه، وفي إحدى اللحظات طفِق يُطيل النظر في المرايا، ولم يعد يُنصت إلى نادر؛ الذي شعر بأن شيئا آخر لفت انتباه عبد الرحمن، فسأله:

– ماذا عَكست لك المرايا؟

خفف عبد الرحمن ضغط قدمه عن مُسرّع ضخ الوقود، فتباطأت الشاحنة قليلا، وقال:

– كأن سيارة تتأخر عنا في طريقنا، ويحاول سائقها أن يُبقيها في مسافة فاصلة قارة بينها وبين شاحنتنا.

لم يلتفت نادر إلى النافذة الزجاجية الخلفية ليرى، وسأل:

– وكيف تأكدت؟

– أجاب عبد الرحمن:

– رأيتها متوقفة في ساعات وقت السّحر الأولى، تُلقي عليها مصابيح الشارع أضواءها؛ في تقاطع طريق (خريبكَة) وزنقة (المسجد)، وفي داخلها شخصان، وإني أفطن لما في المحيط، وأُدرك غير المألوف.

سأله نادر:

– من أي نوع هذه السيارة؟

أجاب عبد الرحمن:

– سيارة (موديل) 1982م؛ ممتدة المؤخرة، فصندوقها الخلفي غير معزول؛ زيد في ارتفاع هيكلها عن الأرض؛ بهدف واحد فقط هو سياقتها في طرق البادية؛ ذات الأسفلت الخشن والمسالك التّربة والوعرة، والذي يجعلك تتيقّن؛ هو أن طبقة من تراب الطرق؛ الذي تطحنه العجلات السريعة ويرتفِع؛ يُغطي هيكلها الحديدي، وزجاج النوافذ، ويحجب لوحتي التسجيل، وكانت قد كشطت الماسحتان مساحتي نصفي دائرة من الغبار العالق؛ من زجاج النافذة الأمامي.

استوعب نادر تحليل مظهر السيارة، ودلالة ذلك، فأولى للملاحظات أهمية، وقال بجدية:

– فإن لم يكونا كسابي ماشية أو تاجري أسواق أو مزارعين؛ فمن هما؟

لم يجب عبد الرحمن على السؤال، وإنما أمر قائلا:

– خُذ البندقية وأرْخِ مَفْصلها، وألقِمها الخرطوشتين، وضعها بيننا.

لم يكن نادر يعرف إلى أي حد كانت البندقية طيّعة وسريعة الاستجابة.

ضغط عبد الرحمن على المُسرّع؛ إلى حد انفجرت عنده قوة المحرك الهائلة، فطوت العجلات بساط الطريق بسرعة، وابتعدت الشاحنة، فرفع عبد الرحمن عينيه في المرآة، فلم ير السيارة المتعقِّبة، ولم تمض ثوان حتى ظهرت، وسائقها يحاول ألا تختفي الشاحنة عن عينيه، فخفّض عبد الرحمن السّرعة، ومال بالشاحنة إلى حاشية الطريق ذات الجوانب المتآكلة، والممتلئة بالحصى؛ إلى أن مرت السيارة بسرعة وغابت في منخفضات ومرتفعات الطريق، فعاد وأسرع، ونظر نادر في الطريق بعد أن انبسط قليلا، فلم ير سيارة الشّبحين؛ قال بخوف:

– اِختفت.

قال عبد الرحمن:

– كما سبق وأن قلت لك؛ إنها ترحل في المجازات الداخلية وغير المعروفة، وهي الآن كعادتها غاصت في عمق البادية.

بعد قطع مسافة طويلة؛ كفّ عبد الرحمن عن همز المحرك، وترك الشاحنة تسير بالقوة التي كان قد دفعها بها محور العجلات المركزي، ثم خفّض التقدّم أبعد من مسلك يتفرع عن الطريق، أو يصب فيه دون أسفلت؛ فهو حجارة وأتربة وحصى؛ يمتد بين الحقول؛ يرتفع في سفوح التّلال، وينخفض في الأودية، ويظهر في شكل منعرجات في بعض الأماكن، ويختفي في بعضها الآخر، فأدار عبد الرحمن المقود، فاتجهت مقدمة الشاحنة إلى الممر الضيق، فسمعا معا صوت الحصى ينسحق تحت العجلات، أو هذه الأخيرة وهي تدوس النباتات الشوكية اليابسة التي طوّحت بها رياح (الشركَي)، وتابعا آثار عجلات غائرة في التربة الجافة والصلبة، تخلفت عن أوحال فصل الشتاء، فأضافت من الوعورة، وكانت العجلات تهوي في حُفرها الطولية، فتكبو الشاحنة، إلى أن عبد الرحمن يُهيج المحرك، فيَنعر هذا، وتدق الشاحنة ما تحتها، والتفت نادر إلى الوراء، وشاهد من خلال النافذة الخلفية سحابة من عَجاج؛ تصعد عاليا وتنجلي بعيدا عن سماء البادية المشمسة؛ نفثت فيها ماسورة العوادم أنفاس وقود المحرك المحترق، ثم راحت عيناه تتنقلان في كل ناحية وتستطلعان الأماكن، ويستكشف بهما ما يمكن أن يتحرك على الأرض من الناس والدواب والزواحف والطيور، غير أن البادية تظل ساكنة، فلا يرى هنالك بعيدا إلاّ شياها؛ ماضية في قضم بعض العشب، وسيقانِ الحصيد، مُتريِّثة وصامتة، والراعي يستلقي بظهره على جذع شجرة منعزل، وتحت ظل تنكمش رقعته أمام ارتفاع الشمس، أو آخر يتكئ على حاجز حقل حجري، يتتبع بعينيه الحيتين بطبيعة الخلاء الشاحنة المارة والقديمة الهيكل؛ باستغراب عفوي، وبابتسامة ساذجة.

وتابعت الشاحنة تعمّقَها في الأرض الممتدة في كل الاتجاهات، وانحدر بها منخفض، ففوجئ نادر بصخور مسطحة مشحوذة، تبرز من التربة، وتحجز بينها مجرى ماء، وعشبا أخضر يرتوي من ذلك الماء، وشجرةَ فاكهة التين الأسود اللون وارفة؛ ذات الأوراق الصيفية العريضة والخضراء، وسمع نقيق ضفادع، وخشخشة أوراق وأغصان ميتة بحَنَش أو سحلية؛ في دغل من نبات الصّبّار. لم

يكن الماء يتدفق آتيا من بعيد؛ كان ينبُع من تحت ألواح صخرية ذات مظهر هندسي، فحاد نادر بالشاحنة عن الحوض، ودار بها حول الصخور، وابتعد بها مسافة مائتي متر ثم أوقفها، وقال:

– إن نسوة الدّواوير القريبة يقصدن العين؛ ليغسلن الملابس واللُّحف والأفرشة والجِزز[20]. سنحط رَحْلنا هنا، ونبني خيمتنا، فيكون هذا المكان مخيمنا في هذا اليوم والذي يليه... فهنا عمق بادية الشرق من (وادزم)، والعين موردنا من الماء البارد العذب التي لا تنضب.

ونصبا الأعمدة، ورفعا فوقها الخيمة، ولم يكادا يفرغان من عملهما هذا حتى برز من بين بساتين بعيدة جدا فارس؛ يضرب جانبي بطن جواد فروسية بالمهماز، فيركض هذا في اتجاههما، وشعْر عُرفِه يتلاعب بريح العَدْو، وتُسمع نحنَحَتُه، وصهيل خافت، ونفير منخريه الواسعين، ورذاذ فمه يسيل من الشّكيمة.، وطفق الراكب يدور ممتطيا الصهوة ناظرا إلى الخيمة وإلى الغريبين؛ بعينين حادتين وحمراوين، ثم ألقى عليهما التحية، وسأل:

– من أي مدينة قدمتما؟

أجاب نادر:

– من (وادزم).

قال راكب الحصان:

– على الأقل فأحدكما على معرفة ببيئة هذا المكان؟

قال عبد الرحمن:

– إلى حد ما.

قال الفارس مُنبها:

– احذروا العقارب، فلسعاتها قاتلة، وكذلك لدغات الأفاعي.

قال عبد الرحمن:

– حملت معي قارورة قطران؛ سأصب السائل الأسود والطارد على الحجارة المحيطة بالخيمة.

---

[20] مفرده جِزّة، وهو ما يُجزّ من صوف الشاة.

قال الممتطي مُبتسما:

– إذا فأنت على دراية بمتطلبات الحال... وإذا قدّر الله وأن...

ولم يكمل جملته واستطرد قائلا:

– فإني مصّاص السّموم ومُلقيها بصقا؛ حتى لا يتسرب السُمّ في العروق فيقتل، وقد قضى طفل بذلك في نواحِيكما.

قال نادر، وقد سبق أن طالع على الإسعافات الأولية للملدوغين والملسوعين:

– إن مص دم المصاب أو كيّ الجرح غير سليم أيها الرجل.

كان الحصان لا يستقر في شموخه؛ يحرك رأسه صعودا وهبوطا، فتُسمع جلجلة اللجام الحديدي، وينبُش بحافره الأرض، ويدور فيُعيده الفارس بجذبة من اللجام الجلدي، فلم يزد صاحب الفرس عن كلامه شيئا، وظهر من عينيه اللتين لا تهدآن، ومن ملامحه المتأهبة أنه لم يبال لتحذير نادر، وأنه غَمَضَ عليه وجود عبد الرحمن ونادر بهذه الناحية، واللذين لم يقولا ما يدفع بالفارس إلى الاستمرار؛ في الاطلاع على ما لأجله توغلا بشاحنتهما في البرية، فهمز مطيته برِكاب قدمه، وانطلقت هي به تعدو وتبتعد.

أبصرت عينا نادر ترابا كثيفا يعلو عن الأرض، ويطول، وتتبدد مؤخرته، وكأن حيوانا زاحفا عملاقا يُذري التراب في دبيب سريع، فسأل عبد الرحمن، الذي أجاب على الفور:

– إنها السيارة؛ يقهر بها سائقها طرق البادية غير الممهدة، وتحوم حولنا كعُقاب يتربص من الأعلى بأرنب بري ابتعد عن جُحره، لينقض عليه.

لم يدرك بعد نادر من شأن السيارة العُقاب شيئا، وسأل مرة أخرى:

– هل هما لِصّان؟

أجاب نادر:

– لا أدري، فاللص لا يظهر ويستغفلك، أما هذان فلربما أمرهما معنا آخر.

سكت وما يزال يتتبع غيمة ذرات التراب وهي ترتفع في الجو عاليا، وتنقشع عن زرقة السماء، وقال:

– الاختفاء المفاجئ لبائع أسنان القرش من حديقة (اللاَّك)، وهذه السيارة التي أبت إلا أن تُربِكنا؛ يذهبان بظنوني مذاهبا... لا تهتم بما أُبهم عليك، وامض في رحلتك العلمية، سأستجلي الأمر.

وقال بصوت منخفض:

– إنهما يعرفاني، لذلك يحومان، ويخافان من مخالبي التي هي أمْضى من الخنجر؛ إني لست أرنبا مُروَّعا، وإنما أنا نسر ضارب لا يرحم؛ رفرفة جناحيه العريضين تُرسل الرياح، فتُطوح بأوراق الشجر، وتُبدّد الغمام؛ سيقتات النسر من لحم جثتيهما إن اقتربا منا.

وسار عبد الرحمن إلى ناحية محجوبة عن الريح، وحفر، وأدار الحفرة بأحجار، ملأها بالأغصان اليابسة، وأضرم فيها النار، ثم جلس على كرسيّه، وأعدّ قِدرا، ووضعه على اللهب ليغلي ماؤه، فيُطهى ما به من خضر ولحم، وفي جانب من الموقد وضع إبريقا، سيصُبّ ما فيه شايا في كوبين.

لم يكن ما يُلهي نادر عن معرفة ما يعيش في هذه البيئة من كائنات، وأن حيزا بكيلومتر مربع لَيُقدم معلومات كاملة إلى حد ما. كانت عُدّته مصورة– كاميرا، والقلم والمفكرة ومُكبرة ومطرقة جيولوجية ومِشرط ومِلقط وأكياس بلاستيكية، وساح على سطح الأرض؛ مُندسّا بين نباتات الأحراش والأدغال والأجمات؛ مُنقِّبا في الجحور وما تحت الحجارة والصخور، وفي تجاويف الجذوع الخرِفة، فعثر على غشاء حَنَش، ورُتيلاء، وضفدع، وأبي جعران، وجراد، ونمل، وسحلية، ومن الطيور (الجوْش[21]) والقُبّرة، وحصاة، وقطعة من صخر، ونباتات تتفرّد بها المنطقة، فأخذ صورا وسجل أشرطة، وجمع ما أسعفه في الأكياس.

كان يسير باحثا ومُحدقا ببصره، ومُتأمِّلا، ومُتصفِّحا للمساحات والوجوه والصفائح؛ لا يرفع عينيه، ففي كل متر مربع حياة تتحرك، وآثار المناخات القديمة، وأمطار الفصل السالف؛ كان التنوع في هذه المنطقة شبه الجافة يأخذ باهتمامه، وفي أي خطوة يخطوها، ونسي نفسه، ولم ينظر إلى الأفق ليُحدّد اتجاه سيره الجغرافي، ولا إلى حواليه ليعرف المسافة التي ابتعد بها عن مكان التخييم؛

[21] (الجوْش) في المغرب هو طائر الدّوري.

إلى أن كاد يصطدم بسور واطئ من حجارة مُتراكمة، ونظر إلى ما وراءه، فرأى راعية فتاة؛ تمسك بعصا، وصبيين يداعبان حُملانا وُلدت في ذلك العام، وعلى بعد منهم جرة صغيرة عُرّضت لأشعة الشمس، ليتخثر ما امتلأت به؛ مما حُلِب من ضُروع النعاج، فيتحول إلى حليب رائب؛ يتناولونه بألياف نبات الْكَلَخ، فتراجع بوطء خفيف، وبهدوء، وأسرع مُبتعدا، وكاد أن يدوس مصيدة تقليدية الصنع؛ نُصبت للإمساك بأرنب بري أو قُنفذ، فما شاهده زاده علما، بما يمكن للطبيعة أن تُوفِّره، وإن هذا المشهد لهو الأول؛ في علاقة الإنسان بالبيئة؛ قبل أن يتم شحن الخام إلى مصانع التحويل ومُركّبات التصنيع؛ كذلك عاش الإنسان الأول، وكانت عينا نادر تبحثان في أدق الأشياء، فأبصر بهما ضفيرة حبل، وحياكة؛ من أوراق نبات الدوم الإبرية والطويلة؛ حيّة الخضرة ناصعة، كذلك كان ذلك الإنسان يَضفِر ويُحيك؛ من محيطه الغني، ولا يذهب أبعد من مُستقرّه إلا للمقايضة.

كان قد استوفى أو كاد قَطْع المجال طولا وعرضا، وخاض مشيا تقريبا في كل مخبأ، واطلع على الجديد في ذلك، فجلس على حَجَرة ونظر إلى أخواتها المتفرقات هنا وهناك، وإلى الذرات الدقيقة المكونة للتراب، فأطال النظر فيما ينتشر من ذلك، ويحكي كيف كان مُعرّضا لأحوال الطقس المتقلبة، ولتغيرات مناخات الآلاف من السنين، فوقع ما هو عليه الآن، ففي كل حي وجماد آثار الماضي، فالكسور والخدوش والدّملكة والتلحيم؛ آثار فعل؛ إنه جزء من قصة كوكب الأرض.

رجع إلى الخيمة، واستظل بها واستراح، ولم يغادرها بعد الغَداء، لأن الشمس علت، وأرسلت أشعتها، ولم يكن في السماء من الغيوم ليحجُب ضوء الجِرم، فارتفعت الحرارة في الأجواء، وإذا ما هبت ريح وكانت ساخنة؛ تبخر ماء اللُّزوجة، وقبل إغفاءة؛ كان نادر يُعاين عبد الرحمن وهو جالس باستعداد ينظف البندقية؛ مما يمكن أن يغزو أجزاءها الحساسة؛ من ذرات التراب، ويُعيدها إلى غِمدها، ويضعها مع صندوق الرصاص في جانب مُوات.

تقهقر قرص الشمس من السماء، وهبط، ولم تنخفض الحرارة إلا قليلا، فقصدا مرَج الغدير الذي تمثل لنادر واحة بارزة وسط اتساع من تربة وحجارة جافة؛

تنوعت أحياؤه، لأنه مقصد جميع الكائنات، لتبقى حية بما يَنبثِق من باطن الأرض عذبا.

فبحث نادر في بعض السنتيمترات المربعة؛ على الأقل ما يظهر للعين المجردة من الكائنات المتحركة، أما المائية المجهرية منها؛ فهي تحتاج إلى ميكروسكوب المختبرات، وما يوجد فهو يقتات على شيء آخر؛ ما هو؟ هذا أحد أسرار وجوده هناك.

اقتعد نادر طرف صخرة مطل على الينبوع، وما فتئ يطيل النظر في ماء الجدول وهو ينساب سريعا، وموسيقى خريره يملأ أُذنيه، ولا يختل الإيقاع، لأن ما يُسمع من حين لآخر من أصوات؛ كدوي النحل، وطنين البعوض، وصرير الجراد، وأزيز الذباب، ونقيق الضفادع، ورفرفة جناحي عصفور، والريح وهي تُصوّت في فروع شجرة، وما تُحدثه الأوراق من رعشات؛ هو سيمفونية الطبيعة.

يفيض الماء صانعا بحيرة لها ضفافها، ونباتات غارقة الجذور والجذوع، فيرحل الخيال بنادر القَهقرَى؛ عائدا عبر الزمن، فيرى البحيرة مرة أخرى وقد تفرقت على جوانبها دينوصورات؛ توجهت إليها لتشرب وتأكل العاشبة منها من أوراق شجر الغابة، وتهجم عليها أخرى لاحمة لتفترسها، وأنها تُخرِج صوتها المقعر والعميق من أقصى حناجرها الكبيرة التجويف؛ يُسمع على مسافة أميال، وتُرجِّعه الأودية والشعاب صدىً، فتُدرِك الحيوانات الأخرى التي قد تكون فريسة أن الدينوصورات هناك، وتُرجِّح أنها ستمر قوافلها عائدة، أو متنقلة من حالة جو مُتغير؛ إلى حالة أخرى تتأقلم معها.

لم يشعر نادر بالشمس وهي تغرب، وهي هنالك على الساحل؛ تغطس في أفق البحر المستقيم، وينسحب ضوؤها عن مَركَب يُبحر أميالا في المحيط؛ مُهادنا الأمواج. التفت إلى ما يحيط به، وسمع عبد الرحمن يقول:

– لقد بدأ الظلام يزحف على البادية.

نهض نادر وفاه بسؤال:

– هل لليل هذا المكان أحياء؟

قال عبد الرحمن وهو يجهل طبيعة الناحية الليلية:

– سنرى.

ورجعا معا، وجلسا أمام مدخل الخيمة، وأوقدا نارا. قال عبد الرحمن:

– كُن يقظا لأي صوت قريب أو بعيد، وحاول أن تكتشف الذي صدر عنه.

وأطلقا نظراتهما في الجوانب، وقد رأيا فعلا عقربا أسود تتلألأ إبرة ذيله المنتصبة بضوء لهيب النار، وخافا من لسْعتِه السامة في حرارة صيف ذلك الليل المرتفعة، فقتلاه لأنه سام وقد يُؤذي.

وحاول نادر أن يُرهف السمع جيدا، لتلتقط أذناه الخشخشة، والدبيب وصوت الاصطدام بالحجر؛ بتلمس رجل حيوان قارض مسار هجومه؛ إلى مخبأ قد يجد فيه ما يقتات عليه. كان يصل إلى سمعه نباحُ الكلاب، وسهرُ طرب بعيد المسافات؛ اجتمع فيه بدو؛ فيه نغماتُ كمان وناي، وضربٌ على دفّ أو نقر على طبل؛ يطرق بعضُه مُتقطّعا أذنيه.

ذاك كان النهار جاب فيه نادر جزءًا من المنطقة التي تتوسط ما بين مناطق ساحل المحيط الأطلنتي وجبال الأطلس، فيكون قد حصل على المعلومات الضرورية، وهذا الليل؛ له هو الآخر طبيعته، فتناول أدواته بالإضافة إلى مصباح يدوي، واقتحم الظلام، فلم يعد عبد الرحمن يرى منه؛ إلا ضوء مِشْعَله يتنقل ويُغيّر اتجاهاته.

ولما كان نادر راجعا، وكان يرى في بعض المرات أضواء تُسافر في الطريق، وقد يسمع محرك المركبات وهو يجاهد الأثقال وطول الطريق، والمنحدر والمرتفع منها؛ شاهد أحد تلك الأضواء يغيّر اتجاهه، ويشعّ نوره في الحقول والأعشاب، فسار قاصدا الخيمة حثيثا، وأخبر عبد الرحمن قائلا:

– لعل مركبة تتجه نحونا.

فنهض عبد الرحمن وأسرع إلى حمل البندقية وصندوق الرصاص، وأمر نادر قائلا:

– أطفِئْ النار، وهلمّ إلى ذلك الدّغل من نبات الصّبّار.

وجريا إلى هناك، وكَمَنا يترقبان من بين جذوع النباتات الشوكية والملتف بعضها ببعض، ويسمعان دنو سيارة أطلقت أنوارها القوية على مكان التخييم وتوقفت؛ نزل منها رجلان يرتديان ملابس الأمن الدركي الرسمية، وطفقا يتفحصان ما يوجد في المكان، فنادى أحدهما بصوت مرتفع:

– نحن دورية ليلية، فامتثلوا يا أصحاب الخيمة.

طلب عبد الرحمن قائلا:

– خفّفا الأضواء، فلا تقدر عيوننا أن تتقدم في الأنوار الكاشفة، ونخاف تعثُّرا.

أطفأ أحد الدركيين المصباحين القويين، وأبقى على درجة خافتة منهما، فعاد للبادية مظهرُها الليلي، وزال عن الكائنات الخوف، وعادت الطمأنينة إلى نفوسها وفرحتُها ببيئتها، وظهر عبد الرحمن ونادر من بين دروع الصّبّار الغليظة والمليئة بالأشواك، وألقى نادر نظره على الدركيين؛ كانت القبعة المستديرة والمندفعة الجوانب، والمتقدم جزء منها الأمامي على رأس واحد منهما، والآخر عاري الرأس. كانا يتمنطقان بمسدسين، ويحتذيان جزمات؛ مرفوعة الأطراف الجلدية على الكواحل؛ زُرّرت بإحكام وبحزم، فذرات التراب تنسحق تحت قوة كُعوبها، ويئِنّ الحصى والحجر.

كان أول ما لفت نظر الدركي عاري الرأس هو بندقية عبد الرحمن، وكان أول ما تحرى به قائلا:

– هل لهذا السلاح رخصة؟

أخرج عبد الرحمن أوراقا من جيب قميصه، وأظهرها، وتأكد الدركي من صحة البيانات المكتوبة عليها. سألهما الآخر قائلا:

– هل شاهدتما حميرا تمر من هنا؟

كان الوحيد الذي استغرب السؤال هو نادر، وظل صامتا وينتظر أن تنفرج عقدة السؤال؛ أما عبد الرحمن فقد أدرك ما القصد، وأن الدركيين يتربصان ويتعقبان، فأجاب بتجاهل؛ مُحاولا ألا يُظهر درايتَه.

– لا.

قال الدّركي مكشوف الرأس، وكانت ملامح وجهه صارمة، وحركاته هجومية، ونظراته ينهار لها من حاول أن يُبرّئ نفسه:

– احتفظا برقم هاتف دورية الليل؛ إذا ما تعرضتما إلى فعل خطر، فاطلبانا.

وركبا الدركيان السيارة، التي ما فتئت أن انحدرت بهما على السفوح وإلى المنخفضات، وابتعدت بصوتها الذي لم يعد يُسمع، وظلت أضواؤها تجوب البادية؛ كاشفة عن الأجسام التي يُخفيها الليل.

فبادر نادر وسأل:

– ماذا يريد أن يعرف ما إذا كانت حُمر قد مرت، وهل يمكن أن تكون دون أحد يَسوقها؟

كان عبد الرحمن يسمع سؤال نادر، ومُتتبعا في الوقت نفسه أضواء سيارة فرقة الدرك، ومُتخيّلا كل ما له علاقة بالحُمر الليلية، وأجاب باقتضاب:

– ستعرف.

والتفت التفاتات مُستمعا، ومُتحسّسا نسائم أواخر الصيف الحارة، ثم جلس على الكرسي، فلم يضف نادر سؤالا آخر.

نظر عبد الرحمن إلى ساعته، التي كان عقرباها يشيران إلى منتصف المدة الزمنية من ليلتهما، وكانا قد شاهدا ضوء مركبة آخر؛ تذهب به الطريق بعيدا؛ مُنفلتا؛ كان الأخير، كما لم ينبح كلب، ولا رفرف طير؛ كان آخر الأسراب ما حلق في وقت الغروب، ولا ثغاء أغنام؛ كان آخر قطيع قد ساقه راعيه إلى الحظيرة بعد زوال حمرة الشمس الغاربة، فأطبق على آذانهما سكون رهيب، ووجدا نفسيهما وحيدين؛ يرفعان رأسيهما إلى الأعلى، ترحل أبصارهما في الفضاء الخالي، وفي قبة سماء الليل؛ توزعت فيها نجوم يصعب إحصاؤها، تُومِض وتتلألأ.

فجأة سمعا حوافر تضرب في تربة الأرض وفي حصاها وحجارتها، فعرفا أنها لقطيع، وقد ظهرت لهما في الظلام كُتلة من قرون ورؤوس وظهور ثيران صحيحة الأبدان؛ قوية العضلات، يُسمع لها خوار مخيف وأنفاس مُجهدة؛ تندفع في سيرها اندفاعا، يسوقها رجلان؛ طويلا القامتين؛ شديدان؛ تكاد عضلات أطرافهما وكتفيهما أن تمزق نسيج قميصيهما وسروايلهما؛ نظرات عيونهما كرؤوس السكاكين الحادة تُدمي، وببروق تُحدث صدعا في الصخور. يتصبب وجهاهما عرقا؛ تقبض أصابع أيديهما المتشققة والمتحجرة بقوة على مقابض هراوات؛ تصطكّ لها الضلوع وتتهشّم. أشارا من بعيد بتحية، وغاصا في الظلام.

سأل نادر مرعوبا:

– هل هما كسابان أم لصا ماشية؟

أجاب عبد الرحمن وكان محبوس الأنفاس:

– أظن أنهما من هذين الأخيرين... ولا أريد أن أبحث عن دليل.

وحدّق في وجه صديقه نادر، ثم قال بعطف:

– أُدخل إلى الخيمة ونم، ففراشك الوثير مبسوط، أما أنا سأتولى الحراسة، وأضبط عقربا ساما يحاول أن يتسلل إلى تحت الوسادتين، أو إلى أطراف الفراش، أو إلى ثنايا الخيمة.

وما كادت الجفون تنسدل على عيني نادر، فتغفوان هاتان؛ حتى أحس بيد عبد الرحمن تحركه، فنهض سائلا بصوت منخفض:

– ماذا يحدث؟

أشار عبد الرحمن برأسه إلى اتجاه، وقال:

– أُنظر.

حاول نادر أن يرى خطّ ظهور دواب يزحف سائرا، وآذانا طويلة مرفوعة تتحرك.

قال عبد الرحمن:

– قافلة حمير.

ولاحظ نادر شيئا آخر، وقال:

– ظهور حُمُر مُحمّلة بأكياس؟

وكان عبد الرحمن قد تحقق، فقال:

– أكياس من خَيش مملوءة بحُزم من نبات القنّب الهندي.

فاتضح لنادر ما لم يعرفه من قبل، وقال:

– هذا ما كان يستخبران عنه الدركيان.

خطا عبد الرحمن مُنحني الظهر، وحاملا البندقية؛ قال:

– كنت أسمع ما يُحكى من وقائع... سنتخلَّف عن القافلة مسافة تعقّب استخفائية لنَرى.

وعلى الرغم من أنهما غالبا الظلام بعيونهما؛ لم يميزا بين الأحمِرة شخصا يسوقها.

قال نادر:

– ما أغربها قافلة فَيَاف!

بعد أن قطعت الحمير مسافة أربعمائة متر تقريبا، وهي سائرة؛ كان نادر وعبد الرحمن يُشاهدان الأكياس وهي تُنقل من فوق ظهور الدواب وتُدسّ في كومة من تبن أحد الحقول؛ الذي يمتد باتساع إلى منخفض واد، وقد تخففت الحُمر من الأحمال، فتابعت سيرها متفرقة، ولا يُحسب إلا أنها حمير تقضي ليلتها حيث هي، أو أنها كانت لدَرْس أكوام الزروع، أو مُهيّأة لحرث أرض الموسم المقبل.

وهما راجعان بخُطى سريعة، وخفيفة الوطء إلى خيمتهما؛ إذ قال عبد الرحمن:

– هذا ما يجري، والامتداد الفسيح للأراضي التي تكاد أن تكون قفْرا، والخلاء المُجدب، عادة ما يُتيحان السفر عبر مسافات خالية وطويلة؛ بعيدا عن الأماكن اليقظة عيونُ قاطنيها.

ودخلا إلى الخيمة، وتمدّد نادر في غير استرخاء؛ كانت ما تزال صورة ما شاهد حاضرة أمام عينيه، وجسده مُنتفضا؛ كأنه مُتأهِّب، وتساءل:

– كم من مئات الكيلومترات قطعت تلك النبتة المجففة؟

قال عبد الرحمن بأسف:

– كحال جميع التجار، فإنهم يسافرون إلى مناطق الوفرة الطبيعية، ويجلبون هذه الأخيرة إلى أخرى مُفتقِرة، ولا يكادون يُبالون بأخطار الطريق، ويحاولون أن يعرفوا من طبيعة الأقطار الخاصة ما عليهم أن يفعلوه، ليجابهوا المصاعب.

ويمضي عبد الرحمن في تصور الذين يرحلون في الأرض للبيع والشراء، وكان يسمع نادر في سكون الليل وهو يُتمتم بأنه يُنصِت إليه، وفي أحد الأوقات لم تعد تصدر منه أيّ دمدمة، فقد خَلَد إلى النوم، فاضطجع عبد الرحمن، وأغمض عينيه ليغفو، ولم ينم حتى تلك الساعة، أو هو كالذئب؛ نائم ويقظان، وحتى لا يغلبه النعاس؛ ظل يردد نظم الشاعر:

يَنامَ بإحْدَى مُقلتيْه ويَتّقِي * بأُخرى المنايا فهو يقْظانٌ هاجِع[22].

أفاق نادر فجأة من نومه، ونظر من مدخل الخيمة إلى الخارج، فلم ير غير الظلام ما يزال يُخيّم على البادية، وأنصت، فلم يسمع شيئا، ولم يدر ما إذا كان عبد الرحمن نائما أم لا؛ شعر بحركة جذعه الذي كان يتكئ به على الوسادة،

[22] البيت من قصيدة عينية للشاعر حُميْد بن الثور الهلالي؛ شاعر مخضرم عاش في الجاهلية، وأسلم.

فهو لم يكن قد استسلم لليونة الفراش المبطن، وكان بين غاف ومستيقظ، لأنه كان يحاول أن يعرف أنواع الأصوات، وعمن تصدُر، وازداد قلق نادر بصمت الليل المطبق المخيف، واضمحل صبره؛ خصوصا وأنه لم يسمع ما يدل على أن الفجر قريب، وهو صياح الدِّيَكة.

وقد ارتفعت عقيرة أحد ديوك البادية، وكان صوته بعيدا، غير أنه طَمْأن نادر، وكأنه يخاطبه؛ فيقول: «لا تخف؛ فإن حنجرتي لم تصدح في هذا الهدوء؛ إلا أن ما سيظهر من وراء قمم تلك الهضاب؛ سيُذهِب عنك رُعب الليل».

مضى وقت قصير، فشاهد انجلاء الظلام، واستحال هذا إلى غطاء غير داكن، فانتظر بفرح ذلك الذي تبتهج به كائنات الأرض؛ سواء كانت حيوانا أو نباتا أو إنسانا؛ إنه شروق الشمس.

قال في نفسه: «فما أجمله شيء في الدنيا! فإنه يمضي بهذه؛ وكأن أحداث الليلة الماضية أضغاث أحلام، وقد رحل الليل بأصحابه الذين يغامرون بأفعالهم المريبة».

بدت طلائع النهار، فقام نادر وخرج، فما أسعده وهو يمتع عينيه بضوء يسطع في الجزء الذي تلتقي فيه السماء بأفق الأرض المتضرسة، فدِيكة الخمّ، والدجاجات الهادئات والسارحات، والغنم الصادحة في طريقها إلى المرعى، والراعي يتريث، فالنهار طويل، ويوقِف نغمُ نايه الزّمن، ويُلفت أسماع الأحياء، ويُطرب الآذان، لأنه يحاكي تغاريد الطير، وأصوات رياح الخريف، عندما تهب هذه في شقوق صخور الكهوف، وفي طَاقات[23] حيطان الحُجرات، واستيقظ عبد الرحمن من نومه القصير المتقطع، ونهض، ثم برح الخيمة، ووقف غير بعيد عن نادر، وصارا معا يُجيلان ببصريهما في ذلك الصباح، وقد سنحت لهما فرصة أخرى لفعل ذلك، ربما قد تكون الأخيرة؛ في مساحات الحقول الشاسعة، وفي امتداداتها في كل الاتجاهات الجغرافية، وفي السماء الصافية، وفي الشمس الشارقة.

[23] جمع طاقة، وهي نافذة أو شباك أو فتحة في جدار يدخل منها الهواء والضوء.

والتفت نادر إلى اليمين؛ إلى قمة أكَمة؛ متوسطة الارتفاع؛ من ورائها باغتته نعجة، ثم أخرى، وثالثة، وخروف، وآخر، فغطت أصواف ظهور الشياه السفح، وظهر كلب الحراسة وهو يتطلع في أرجاء المكان؛ يستقصي عما يمكن أن يوجد من إنسان أو حيوان في المَرتع، أو في طريق القطيع، وانتظرت عينا نادر ظهور الراعي، وقد رأى قبعة من أوراق الدوم تتحرك، والهامةَ التي تُظلّلها، وجسدا نحيلا بقامة طويلة؛ يمشي ببطء؛ على العاتق جِراب، وبقبضة اليد عصا؛ طالت ودق طرفها السفلي الأرض، واستمرت الشياه تزحف، ثم هجمت، ونادر وعبد الرحمن واقفان؛ مُستبشران، والخيمة قائمة، ولم ينبح الكلب، وإنما سار في الجانب الآخر، وتجاهل وجود الغريبين، ومخيمهما، وكذلك الراعي؛ كاد أن يبتعد لولا أن عبد الرحمن رده بتحية، وقال:

– يومك مُوفّق أيها الراعي.

كان أول ما بدر من الراعي هو ابتسامة عريضة وصافية، ثم نظر، فكانت نظراته مُرسلة؛ ليس وراءها ما يكبحها؛ في عبد الرحمن ونادر والشاحنة والخيمة. لم يخْط واستقام، ثم دق بعصاه ما بين الحجارة حيث التراب، وتوكّأ بإبطه عليها، وغيَّر من وضع القبعة على رأسه، وقال:

– هل استمتعتما بتخييمكما هنا؟

أجاب عبد الرحمن:

– اخترنا هذا المكان لأنه بِبُعده تكون طبيعته الأمثل، ولنبع العين والغدير.

قال الراعي بحماس وبصدق:

– ... ورائعة هي خُضرة وغزارة وتنوع نباتاته في فصل الربيع... وزهر الخَشْخَاش يزين بحمرة أوراقه القانئة بساطا من الجذوع والسنابل، فهي سجادة نسجتها الطبيعة؛ تهب الرياح عليها، فيَتماوج بريقُها، وتُرفرف عليها الطيور؛ صاعدة وهابطة... فما يُزهِر لا يحدُّه البصر.

سأله عبد الرحمن:

– إننا نبتهج بذلك ونتمتع ونسعد. ماذا عن سرقة الماشية؟

تراجعت ابتسامة الراعي، وخمدت مشاعره التي جاشت، وقال:

– يمضي اللصوص في فعلهم المشين بجسارة؛ ودون رادع، وتضرر الناس بفقدان قطعانهم.

سكت الراعي ورفع عصاه مشيرا إلى مكان بعيد؛ إلى كوخ حجري منعزل؛ مطلية حيطانه ببعض الجير الأبيض، فاتجهت إليه أنظار عبد الرحمن ونادر، وقال الراعي:

– أربعون رأسا من الغنم سُرِقت من تلك الزريبة ليلا في السنة الماضية؛ صاحبها غلبه النعاس، فلم يشعر بتسلل اللصوص إلى الزريبة.

سأله نادر:

– والكلاب الحارسة؟

أجاب الراعي:

– لا أدري بالضبط ماذا يفعلون مع الكلاب.

واستطرد قائلا:

– وقد تتبعنا آثار سير القطيع مسافة كيلومترين؛ حتى انقطعت علاماته على جانب طريق، فأدركنا أنها حُملت على شاحنة، ولا تطلع شمس نهار ذلك اليوم حتى تكون الخرفان قد بيعت في أحد الأسواق، أو توجه بها اللصوص إلى أرياف ومدن الشمال البعيدة.

روى الراعي هذا، ولم يزد كلاما آخر، وانصرف بأسف شديد يلوح على وجهه.

وما جعل نادر يطيل النظر إلى ما ظهر بعيدا جدا؛ هو حِرش من أشجار، فدفعه ولعُه بمثل هذه الأمكنة إلى أن يُقرر الذهاب إلى هناك، فشاور عبد الرحمن في ذلك، الذي وافق قائلا:

– إن ذلك المكان يبدو بعيدا، لذلك سنستقل الشاحنة لنعود قبل الساعة الثانية عشرة.

فقاد عبد الرحمن الشاحنة في عدد من الطرق الضيقة وغير المعبدة، ومسارب تتسع فقط لمرور دابة، وقد يضطر عبور قطع من أراض محصودة، أو هي في فترة استراحة.

وصلا إلى الحِرش، وسار نادر بين عدد قليل من الأشجار؛ يبحث كعادته عمن يحتل الحِرج من الزواحف أو الطيور أو الحشرات، أو يتردد عليها في أوقات

بعينها ليفترس لحم حيوان آخر، أو ليلتقط ثمارا، أو ليلتهم حشرات، إلا أن عينيه الباحثتين وقعتا على ثلاث عظام: عظمة فك سفلي، وعظمة فخد، وعظمة صُدْغ؛ كانت تظهر أطراف منها من تحت التراب، فأخذها وذرى عنها الغبار، ثم انتحى بها جانبا، وصار يُدقق فيها النظر بالمكبرة، فألفاها قد مر عليها بِضع سنين، ثم رجع وصار يكشط التراب، فعثر على عظام أخرى متنوعة؛ لأجزاء من العمود الفقري وضلع، وفقرات العنق، وأقحاف وفكوك علوية، وما لاحظ أن بين هذه العظام ما هو صغير الحجم، وما هو كبير الحجم، ففرزها، فوجد أن الكبيرة هي عظام شاة، والصغيرة لم تقُده إلى أي يقين، لأنها قد تكون لذوات الرجلين أو الأجنحة، أو لقارض، فلا بد من أن يستمر في مسح باقي جهات المكان، وهو يُزيل التراب؛ إذ عثر على جمجمة أرنب بري، وجمجمة طائر، فعاد إلى العظام، فوجدها فعلا لهيكلي هذين. سأله عبد الرحمن الذي كان يتتبع ما يقوم به نادر:

– هل لجأت إلى هنا لتموت أو أن لاحما افترس لحمها؟

أجاب نادر:

– الأرجح أن الفاعل لاحم.

قال عبد الرحمن:

– إذن فقد يكون لاحما ينطق أو الآخر الأخرس.

خطا نادر إلى ظليلة أشجار قصيرة، وأرسل نظره في أشياء، فنادى على عبد الرحمن قائلا:

– أُنظر... حجارة فُرن؛ ما تزال على جوانبها آثار دخان.

استنتج عبد الرحمن قائلا:

– إذن فهو فعل اللاحم الناطق الطاهي للطعام.

طرح نادر سؤالا:

– لكن من أي جماعة، أهو من لصوص الطير والأنعام، أم من الصيادين؟

وظل السؤال يمخض ذهنيهما.

واستطرد:

– وهذا لا يستثني اللاحم الآخر الآكل للنيئ؛ بما أن ملجأ الوليمة هذا الوحيد البعيد والمنعزل، ويخافه الناس.

طلعت على عبد الرحمن صور كائن آخر، فقال:

– وما تقول في ذلك اللاّحم الأليف؟

لم يجب نادر على السؤال وتخيل ما حدث: جاع لاحم واشتهى، فذبح وسَلخ وشوى اللحم الطري، وسالت من بين أشداقه الشحوم الذائبة، وقَطّع اللحم المطهي عَضّا، وانغرزت قواطعه فيه؛ تُفتّته، واللاحم الآخر ينهش بأسنانه القوية حتى نُتف العَصب العصي، ويُكسّر العظام، ويتلمظ بمخها ونسيجها الداخلي الهش، والآخر، وهذا ذو أُلفة؛ يظل قابعا؛ قانعا بما يُرمى إليه؛ مُتتبعا حركات أيدي الأول الشرهة.

إذن لا فرق بين السمكة الجميلة، والضعيفة، والطرية، واللزج كيسُ بيوضها، والغزال رشيق السيقان والممتلئ فخذه وردفاه وشاكلتاه لحما، والحِمل الواهيين قرناه، والوديع والمرهوب، والمُسْتلَذّ اللحم؛ الذي يتدفق منه الدم الحي الساخن، يتكاثف بخاره، فيزيد البراري حياة ومتعة، وبين إنسان ضحية مُستضعف، ولا فرق إذن بين المفترسين، فاللاحم ملك الغابة، واللاحمون المستغفِلون، ولاحم الحضارات سيان في ذلك، فاه نادر سائلا:

– إننا نعرف أن القرش يأكل أحشاءه بوحشية، والحيوانات الأخرى تموت أو تُفترس، لكن هل يأكل الواحد منهم حيوانا آخر من جنسه؟ أما اللاحمون الناطقون، فهم (يأكلون) بعضهم بعضا، ويقتلون بعضهم بعضا؛ لغيرة أو لحسد أو لطمع أو لانتقام؛ إذن لا فرق بين هذا وذاك...

ولما لم يعد يجد نادر ما يأخذ باهتمامه في هذا المكان؛ عادا إلى الخيمة، وهما يُهيّئان طعام الغَداء أمامها؛ إذ سمعا أحدا يحث حماره على السير؛ بنقر لهاث فمه بأسنانه، فتَصدُر طقطقة مُحفّزة ونَاعِرة؛ فظهر مُنحدِرا على سفح الرابية، وهو راكب على البَرْدعة، ورجلاه متدليتان إلى جهة واحدة؛ ويوجه دابته بعصا قصيرة؛ يرفع رأسه ويُخفضه إلى المسرب الوعر؛ بحركة سريعة ومُتيقّظة، ويُحيط بنظرات من عينيه، وبقوة وبحيوية حادة؛ بجميع ما يقوم في المكان، وقاد حماره في اتجاه المخيم؛ بفضول زاحف، وتوقف، ثم حيّا صاحبي الخيمة، وقال:

– ما أمتع تخيّمكما هنا!

قال عبد الرحمن:

– إذا لم يكن ما يستعجلك فانزل من فوق مطيتك، واجلس حتى تُشاركنا الغَداء.

انهار الرجل من فوق ظهر الحمار، واختار صخرة بارزة من التراب؛ وضع عليها وبحركة من جذعه؛ سريعة وقوية؛ البطّانية التي تريح ركوبه على البردعة المحشوة بامتلاء تام وقاس بتِبْن الحصيد وسيقان الحصيدة.

وجد كل من عبد الرحمن ونادر نفسيهما أمام مخلوق يُغطي رأسه بعِمامة بيضاء؛ كانت تُطبق عليه، ومُحكمة الشد، ويلبس جلبابا أبيض اللون هو أيضا؛ خفيف النسيج؛ لون وجهه أحمر داكن؛ عريض وممتلئ الوجنتين؛ خال من التجاعيد، فجميع ما يُكوّن أديمه حيّ وغضّ، وإن كان عمره؛ كما قال يقترب من السبعين؛ ذلك جميعه مِنحة من طبيعة البادية.

سأله نادر:

– يظهر أنك من هذه البلاد مولدا ونشأة؟

قال الرجل بصوت قوي وبنطق سريع الإيقاع:

– نعم، وأملك أرضا ورثتها عن والدي الذي ورثها عن جدي.

سأله عبد الرحمن:

– فعندك إذن ما تحكيه عن سرقة الماشية؟

ضحك الرجل حتى اهتز جسده السالم والمحصن، وقال:

– أنا كنت فيما مضى من سني الشباب والعُنفوان سارقا للعجول.

فنظر عبد الرحمن ونادر إلى بعضهما البعض باستغراب.

تابع الرجل؛ سارق العجول؛ قائلا :

– لا لأبيع ما سرقت لجمع المال، وإنما لأستلذ وزوجتي الجميلة الرقيقة، وابني الضعيف باللحم المشوي، وما أقوله هو جزء من الحكاية، فاسْتمِعا... كنت أنتشي بشواء لحم عجول قائد القبيلة، في سنوات عشر قحط؛ لم تُمطر فيها الغيوم قطرات كافية، فجفت الآبار والعيون، ويبس النبات واندثر، فلم يبق غير الحجر الذي ألهبته حرارة أشعة الشمس، والتراب الذي إذا ما هبت الرياح

الساخنة جففته وذرته عَجاجا... وهو؛ ذلك الذي يُحكم بقبضته على أمور الناس، ويُسيِّرها حسب مشيئته ورغباته ومصالحه، كان له قصر وحرس وخدم، وزوجات، وأبناء وحفدة وجواسيس. جميع أيامه نهب بالعَنوة، وتجريدٌ بالقوة، ولذات جسدية، وأكل تخيم، وشرب مُسكر، وموسيقى صاخبة؛ آلاتها الكمان والعود والدف والطبل، ورقص قدود غانيات مليحة، وقلعة متعته هذه كانت بين مساكن خالية من الإدام؛ فإن وجدت شيئا من الأكل فهو دقيق شعير فقير مُحمّص؛ يُقتات مخلوطا بماء الآبار والعيون العكر، أو حبات ذُرى يابسات مسلوقات في الماء المغلي، أو أوراق نبات (الخُبَّيْزة) أو جذور (اليَرْني)[24] ضئيلة؛ مطهية؛ تُتناول، فتجعل ما يتحول في الأمعاء شيئا هو في عِلْمِكما، فلم نكن نذق لحما، ووصل حرماننا منه إلى حد أن أحدا منا قد ينهش لَحمة ذراعه، فقلت: ... «وعجول القائد تتهدل لحومها وشحومها على مرأى منا، وهي عائدة من مراعي سفوح الجبال الخضراء، والأودية الجارية بعض مياهها، ونحن نموت حنقا وغيظا»، فصرت أسرق في كل أسبوع عجلا تارة من قطيع القائد، وتارة أخرى من قطعان المقربين منه؛ أذبحه في الغابة، وأُقطِّعُه وأوزع أطرافه في سِلال من الدوم، ثم أحمل إحداها وأدق باب بيت؛ كان من يسكنه ينتظر حصته ناظرا من الخصاص. أتذكر أن عجلا ذبحته في بيتي وسلخته، فمن كان يحكم الأطراف لحظة النحر وتيسيرها أثناء السلخ؟ إنها زوجتي؛ كانت تنتظر بلهفة جنونية أن تتعشى على عضلة قلب وكبد العجل الفتي. في إحدى الساعات المتأخرة من إحدى الليالي أحاط ثلاثة من عملاء القائد يركبون المطايا ببيتي؛ أوثقوا يدي إلى الخلف، وربطوا حبلا حول عنقي، واقتادوني حافي القدمين مسافة أربعة كيلومترات، وساروا بي إلى إصطبل الدواب، ثم قيدوني إلى وتد، فكان فراشي بساطا من تبن العلف، وروث، وبول نفّاذ الرائحة؛ مدة أسبوع؛ بعدها أُخلي سبيلي، وقد علمت فيما بعد أن إحدى زوجاته؛ كانت إحدى قريباتي، وابنتها؛ هما اللتان استعطفتا القائد المتسلط. هل تعلمان أن سرقة

[24] اسمان محلّيان لنبتتين بريتين.

مطامير الحبوب والدواب والماشية كانت بطولة في الماضي، فإنهما إقدام وشجاعة.

قال نادر:

– وفيما كنت قد فعلته مَلْحَمة، لأنك تطوعت وأقدمت على توزيع عادل لثروة هذه البلاد الطبيعية، وقد تكبدت مِحنا في ذلك.

نهض ذلك المقدام القديم، وقصد خُرجه، فتناول منه سلة مجدولة بعيدان من القصب؛ مملوءة بحبات التين السوداء؛ قائلا:

– ستُطعمان مما يجود به التين البري من ثمار سكرية، فهذه المنطقة معروفة بالجيد منه.

وقصد النبع، فغسل الفاكهة بماء الأعماق البارد، ووضعه على المائدة ليتفكّه به الجميع، وقد استمتع فتى أيام زمانه المغوار بالغِذاء وبالحديث الشيّق الذي دار بينه وبين نادر وعبد الرحمن، ثم قام وقال لهما بأنه ذاهب إلى عيادة أحد أقربائه، ثم ودّعهما وامتطى حماره، وانطلق به يهمزه همزا، فيُسرع هو به ناهبا المسرب بالحوافر؛ في اتجاه أحد تلك المنازل المنتشرة هنا وهناك.

هذا ما كانت تتحدث به نفساهما: «نتركِ أيتها البقعة من الأرض، وإنك تحزنين، ونحن أيضا، لأنك حيث أنت في المكان الذي كان مهدك، فهو هوية لك وانتماء، ونحن سنغادرك، لأن ما خلقنا جميعا من ذكريات؛ تدمع باستحضارها أعيننا وبحسرة، وإن أسفك على أننا لا يمكن أن نبقى في مكانك، أو على الأقل تطول إقامتُنا بك وقتا طويلا، وهذا الأخير لا يزيدنا إلا أسى، وستظل صورتُك الاستثنائية في الذهن، والإنسان مشاعر، وأحدها الحنين، وما يصبح من التاريخ لن يعود. تمر نسائم الفصول والمواسم، فتجد ما تخلف عنا جميعا من أحداث تحملها لتحكيها؛ في خيام الرُّحل وفي القرى»، وما أقسى ذلك الوقت؛ وقت الغروب، لأن محرك الشاحنة تجهّز وتحرك وضج، ولم يتوقف، وتردد صوته في الهيكل المعدني؛ إعلانا بالتحرك؛ فالمغادرة، وقد صرف حتى الأحياء عما كانت فيه، وحتى الجماد تزلزل. لم يبق من قرص الشمس الغارب إلا طرفا مُقوّسا صغيرا، فأخفت عَتْمة المساء مورفولوجية البادية، ونظر نادر وعبد الرحمن إلى ضوء الغروب الباهت بحمرة تزول، ولم يبد لهما إلا الأراضي شبه

الخالية؛ تتراجع إلى الوراء، وما يزالا يسترجعان كيف ظل المكان الذي خيما فيه وحيدا؛ منعزلا، وقد زاد الليل من كآبته.

تقدمتهما أضواء الشاحنة، وأنارت امتداد الطريق، وساد في الدّاخل صمت وترقّب، ولم يعد يُسمع غير العجلات المطاطية؛ بدوسها على رؤوس الحصى بارزة، التي أصبحت به الطريق خشنة.

ويحدث ما لا يُتوقّع في مدينة كـ(وادزم) التي كانا في طريق رجوعهما إليها، لأن من الناس الذين يتجمعون، وكل فرد منهم في حاجة إلى آخر؛ في مساحة قد تتوسع بالمساكن، لتنفيذ ما يستلزم في الحياة؛ من يعمل في الخفاء، ولا يذهب ما يجري أبعد من الآذان التي تُسِرّ، والذي وفد على القرية من أجل غرض؛ قد يكون منافسا، أو يمتلك فكرة تُستجدّ.

كانت قد اقتربت الساعة من العاشرة من ليل ذلك اليوم؛ عندما سارت الشاحنة عائدة؛ في الشارع الذي يُؤدّي إلى مركز المدينة، ولتنعطف وتتوقف، ويتبادل نادر وعبد الرحمن كلمات اللقاء، وينزل نادر مُتثاقلا بتعب الرحلة، ليمشي في زنقة (المسجد)؛ مُتجها إلى حجرته، فالذي لَقِيه هو ما لا يُتوقّع دائما: قُفل دفتي الباب مكسور، وفي الداخل ما يُكوّن الحجرة ويُضفي عليها سعادة بالمكان مُبعثر، وبحث عن الشيء الذي أصبحت له قيمة فلم يجده، هو تلك اللوحات الورقية التي رسم فيها رسومات وتصاميم لحِلي إحاثية وأحيائية، وقد بلغت درجة من الفنية؛ إلى حد أن من يراها من الإناث المفتونات، ومن جامعي التحف والهدايا التذكارية؛ فإنه لا يتأخر في دفع مبالغ أثمنتها.

لو سُرِق شيء آخر لما اهتم نادر به، وتركه يذهب- دون أن يفكر فيه مرة أخرى- في عالم النسيان، وقد يُعوّض، وما أُنجز في لحظات إبداع، وبالفكرة التي أتت في ظرف خاص كان مُساعدا، قد لا يُتدارك أو يُستعاد، واستنساخ الفن تشويه، ومن ثَمّة فشل، فالإبداع اقتناص واستلهام في أجواء، ولا يُخلق شيء منه، وإنما هو شَبه لا قيمة له.

فقدان اللوحات الثمينة صدمة وحيرة وحسرة، وقد تساءل وحاول أن يستنتج، وإن كان لا فائدة من هذا... «من الفاعل؟».

فسأل مرة ثانية: «ولماذا الرسومات والتصاميم هي المسروق؟».

فخرج يخطو في زنقة (المسجد)، وسار في شارع (الشنقيطي)؛ لينعطف ويضغط على الزر الذي سيوقظ برنينه من ينام في هذا الوقت من الليل؛ في الطابق الثاني، فأطل شخص من نافذة مواربتي الدفتين؛ كان هو عبد الرحمن؛ كان أولُ ما تفوه به هو سؤال:

– ماذا حدث؟

لم يجب نادر، وأمر:

– اِفْتح.

فُتح الباب وارتقى نادر الدَّرج، فلقي عبد الرحمن في لباس نومه في بهو الطابق. قال نادر:

– لقد سُرقت رسوماتي وتصاميمي الأربعون، وهي ثمرة فكرة وعمل.

سأله عبد الرحمن:

– ماذا رسمت وصمّمت فيها؟

أجاب نادر:

– قلادات بأسنان القرش، وأساور، وخواتم بفصوص شفافة.

رجع عبد الرحمن إلى غرفة نومه، وجلس ينظر في اتجاه أحد الأركان طويلا؛ كان يفكر ويبحث بظنون عن الفاعل؛ قال أخيرا:

– إن الفاعل هو تاجر أسنان القرش؛ لقد اختفى توّا بعد البيع وغادر الحديقة؛ هل سار في زُقاق، ثم آخر وآخر، واختار الزاوية التي منها يستطيع مراقبتنا ونحن عائدان؟ وتتبّعَنا ليعرف أين تُقيم، ثم استقصى عنك عيونا فضولية؛ كانت قد التقطت قدومَك وإقامتَك الغريبين بحُجُر البيت، وليعرف ما إذا قد قصدت المدينة لتعثُر على أحافير، أو ربما أكثر من ذلك، لأنك بحثت ودرست بمنهجية، وأنك تستمد الأفكار، ولا ينبغي ألا يغيب عنك أنه فرد من عصابة، وما السيارة إلا دليلا على ذلك.

قال نادر بحسرة وبهدوء:

– لم يمض على قدومي إلى هذه المدينة إلا يومين، ولم تستمر المدة بما يجعل علاقاتي تتعدد، فتتشعب ظنونا، فليس غير تاجر أسنان القرش كما استنتجتَ هو السارق.

قال عبد الرحمن:

– هل نستطيع أن نُبقي ذلك سرا بيننا؟ ذلك ما سنحاول أن نقوم به؛ حتى لا تفشل خطة معرفة حقيقة ما يجري، ونسترجع الرسومات والتصاميم، ونحْذر مما قد يعوقك في المستقبل عن الاستمرار فيما أنت شغوف به، ولن نتأخر عما سنقوم به في الغد أو نؤجله.

كان عبد الرحمن قد نطق، ثم سكت، ونظر في عيني نادر مُفكرا، ثم قال؛ ولم يزد:

– السيارة.

وتساءل نادر:

– أين ترْبض الآن؟

وتساءل عبد الرحمن أيضا:

– وتاجر أسنان القرش؛ أي الشوارع والأزقة والطرق يسلك، وأين يقيم؟

قال نادر، وقد تفاقم إحساسه بخطورة ما هما فيه:

– إننا مراقبان يا عبد الرحمن.

– قال عبد الرحمن بثقة نفس:

– لا يُروعنّك شيء مما حدث طالما أنا بجانبك، وظهرانا سيكونان محميين؛ لا تنسى ابن عمي إحسان.

وعلى إثر هذا الكلام الأخير اطمأنت نفسية نادر إلى حد ما.

لا بد إذن أن يجدا تاجر أسنان القرش، ويعرفا مسالكه، والسيارة؛ هل هي في أحد المرائب، أم في مكان خارج المدينة؟

رجع نادر إلى حجرته، وأوصد عليه الباب ذي الدفتين، وظل طول الليل بين النوم واليقظة؛ مُتسمعا ومتحفزا، ومُتهيئا لصد هجوم يُباغِته.

كان قد استسلم للنوم في إحدى المرات، واستيقظ، ولم ير ضوء النهار؛ الذي عادة ما يظهر ما بين شقوق خشب الباب، وخشب النافذة الصغيرة، كان ما يزال الظلام يلف دنيا المدينة؛ لكنه سمع صوت دراجة نارية؛ كان صاحبها قد مر بها في الزقاق، وابتعد، وظل هدير المحرك يخفت، وبعد قليل مرت شاحنة، وسمع نادر صياح أغنام يأتي من داخلها، فأدرك أنها مُتجهة دون شك إلى أحد

الأسواق الأسبوعية، وأن ضوء النهار سيظهر بعد قليل؛ فنهض؛ فوصل إلى سمعه صوت احتكاك خشب السرير ببعضه؛ لقد تخفف من ثقل جسده، وهو يتوضأ بماء البئر على بَلاط تلك الساحة المحيطة بالحجرات، والتي ما تزال أبوابها مغلقة على نائميها؛ إذ رفع عينيه إلى حائط المنزل المجاور؛ العالي والخلفي؛ فرأى ضوء شروق الشمس وقد انعكس عليه، فأبهجه قليلا، ثم ارتدى ملابسه، وقد قرر أن يأخذ الحيطة في طريقه إلى عبد الرحمن، ولن يغفل عمن يسلك الأزقة المتقاطعة مع الشارع؛ حتى ولو كان قِطّا؛ ما يزال يقتات من القُمامة في ذلك الصباح، أو كلبا شريدا، ولم يخط بضعَ خطوات حتى شدت انتباهه سيارة متوقفة في رأس زقاق جانبي، وأمعن نظره في الشخص الذي يجلس خلف مقودها، وكم كانت دهشته كبيرة حين عرف أنه عبد الرحمن، وكانت الزاوية التي اختارها تُمكّنه من مراقبة الزُّقاقين المتعامدين، ولم ينتظر نادر لحظة؛ فدخل إلى السيارة، ونظر في عيني عبد الرحمن، فلاحظ أنهما حمراوان، ولم يكن ما بدا له إلا أنه من أثر سهر الليل؛ فسأله قائلا:

– أوَ قضيت الليل ساهرا خارج البيت؛ ذلك ما يظهر؟

أجاب عبد الرحمن وعلامة الجد ظاهرة على وجهه:

– ما إن عُدتَ أنت إلى مبيتك؛ حتى ركبتُ أنا السيارة، وطفقت أجوب بها شوارع المدينة وأزقتها وساحاتها؛ مُدقِّقا النظر؛ لعلي ألاحظ ما له علاقة بسرقة رسوماتك وتصاميمك.

وقد لاح لنادر أن لدى عبد الرحمن ما يقوله، فلم يطق صبرا، فقاطعه سائلا:

– هل عثرت على ما يدُلنا على الذي غامر؛ فامتدت يداه إلى إبداعاتي وأفكاري؟

لم يجب عبد الرحمن على سؤال نادر في الحين، ومهد لجوابه بأن قال:

– لم أبرح غرفتي في ساعات الليل الأولى هكذا؛ دون التفكير فيما ينفعني حقا؛ تساءلت: «ما هو الهدف وما هي الوسيلة لتحقيقه؟»؛ إن الشخص الذي يكون أول من يستيقظ، وآخر من ينام، ويشاهد الناس وهم يصْحُون، ثم يغدون ويروحون، ثم ليطفئوا أنوار مصابيح غرفهم ليناموا، وليستيقظوا، ويعرف جيدا من يسير كالعادة مُتوجها إلى شغله، ومن يمشي بحركات مُرِيبة من رجليه؛ تُلفت

الانتباه؛ هو كَنّاس المدينة، أبى هذا إلى أن يستمر في عمله مُتطوعا؛ الذي واظب عليه منذ أكثر من أربعين عاما، وكان قد بلغ سن التقاعد منذ عشر سنين؛ فلا تخفى عليه أي حركة، ولا تفوته أي نأمة أو همسة، ولا مرور وعبور الناس والمركبات، وهو يتنقل من ساحة إلى أخرى ومن زقاق إلى آخر، ومن شارع إلى آخر؛ مُمْتشِقا مكنسته، ودافعا عربته اليدوية الحديدية.

وعاودت نادر رغبته الجامحة في الاستماع إلى ما يحمله عبد الرحمن من أخبار، فقال:

– إنها لفكرة رائعة طرأت عليك!

وأتبع سؤاله بآخر:

– فماذا قال لك الكَنّاس؟

قال عبد الرحمن:

– في وقت كان ما يزال فيه الناس نِيّاما؛ تريث الكناس في مشيه ووقف مُتأنّيا في زوايا الأزقة، وفي تقاطع الشوارع؛ مكناه في صباح الأمس الباكر من رؤية تاجر أسنان القرش وهو يظهر خارجا بارتباك، ومُستعجلا نفسه من مدخل البيت المكترية حجراته؛ متأبطا مجموعة من الأوراق كان قد لفّها، وكاد أن يغيب عن أنظاره في أحد دروب وأزقة حي المدينة المركزي التجاري، ولم تغفل عينا ذلك الكناس عنه، فمد عنقه ذلك الكناس كما قال، ليتبينه، فرآه يدخل إلى حانوت صائغ وتاجر الحلي الذهبية والفضية، ولم تمض عشرون دقيقة حتى غادر تاجر أسنان القرش المحل وكذلك الصائغ الذي غلّق دفتي دكانه بالأقفال النحاسية الكبيرة، وامتطيا سيارة؛ قادها مالكها الذي هو دون شك تاجر الحلي، واختفت بسرعة بين البنايات؛ ظهرت بعد عشرات الدقائق وهي تسير إلى الجنوب الشرقي من المدينة؛ في الطريق التي تربط (وادزم) بـِ(أبي الجعد)، ولم يطُل بها السير، فقد تركت الطريق وانحرفت بعد وحدات من الكيلومترات إلى اليمين؛ إلى مسارب تخترق مزارعا، واختفت، وقد علم الكنّاس بوِجهتِهما هذه من أحد الآيبين عبر طريق مدينة (أبي الجعد).

قال نادر:

– إذن فسارق رسوماتي وتصاميمي هو تاجر أسنان القرش.

قال عبد الرحمن:

– ولم تغب عني مغادرتُه للحديقة بسرعة، وبعد أن أنقدناه ومضينا إلى حال سبيلنا، وظللت أتساءل عن الدافع، وما تَكشّف لنا الآن لا يُطلِعُنا على كل شيء؛ صحيح أننا عرفنا أخيرا أن تلك الرسومات والتصاميم صيد سيُمكّن تاجر أسنان القرش والصائغ من صناعة حلي بأسنان القرش، التي يُعثر عليها في المنطقة المشهورة عالميا بمناجم الفوسفاط، أو بغيرها من المستحاثات؛ لكن لماذا قصدا معا ذلك المكان؟

نظرا إلى بعضهما البعض، وكل واحد منهما يفكر في نفس السؤال؛ ألا وهو: «ماذا ينبغي عليهما أن يفعلا الآن لاسترجاع الرسومات والتصاميم أولا؟»، والتي في الأغلب لم تكن هي هدف تاجر أسنان القرش؛ الذي من أجله دخل إلى الحجرة؛ في غياب نادر؛ وإنما كانت شيئا غير منتظر.

سأل نادر قائلا:

– كيف السبيل إليهما معا الآن؛ تاجر أسنان القرش وصائغ الحلي؟

أجاب عبد الرحمن قائلا:

– سنترصد لهما؛ فهما شريكان في العمل، ولن يفترقا إلا بعد أن تدِب بينهما خصومة لعدم اتفاق. سنحاول أن نعرف وقت اجتماعهما؛ أما المكان فالغالب هو ذلك الذي قصداه، وأخبرنا به ذلك الكنّاس.

شغل عبد الرحمن المحرك، وأسرع في قيادة السيارة إلى البيت، وركنها في المَرأب، ثم صعدا معا إلى غرفته، وأفطرا، ونزلا بعد ذلك يسيران في شارع (المسجد)، ثم في زقاق؛ ليظهر لهما الصائغ من وراء زجاج واجهة دكانه يتبادل الكلام مع أحد زبائنه، فكانا كأنهما عابران يستحثان الخطوات، ولم يُلفِتا الانتباه.

سأل نادر:

– هل سيكون تاجر أسنان القرش الآن؛ في المكان الذي اعتاد أن يعرض فيه سلعته بحديقة (اللاك)؟

قال عبد الرحمن:

– سواء في أي وقت سيكون فيه سنراه؛ لكن من مسافة بعيدة، وسنُحاول أن نجد ما نختبئ وراءه حتى لا يحس بوجودنا، أو تكتشفنا عيناه، وسنقرأ من خلال علامات وجهه ما يدور في خَلدِه.

اقترح نادر قائلا:

– أرى أن نفترق؛ كل واحد منا يتجه في غير طريق الآخر؛ يجعلنا هذا نراقبه من زاويتين، فلربما قد يفلت منا إذا ما شعر بأنه مُراقب.

اتجه عبد الرحمن إلى يمينه وسار مُبتعدا، ثم ليدور ويقف بين بنايتين، ويُلقي نظره ليرى تاجر أسنان القرش قاعدا باتكاء على جذع الشجرة المتفرع؛ ترسل الأغصان المورقة بظلالها عليه؛ يتظاهر بألا شيء كان من الممكن أن يجعله يضطرب، وينظر من حين لآخر في جميع الاتجاهات، وكأنه يريد أن يتبيّن أشخاصا، ثم شاهده ينهض ليسير مسافة، وقد كان لا يغيب عن نظر نادر من الجهة الأخرى من الحديقة، فقد رآه يبتاع له من دكان يبيع صاحبه المواد الغذائية؛ خبزا وعلبة سمك السردين، ويعود إلى مكانه، فتأكد عبد الرحمن أن هذا غداءه، وأنه هناك ما يزال يعرض سلعته الأحافير على الأقل إلى أن تغيب الشمس؛ وراء كثبان أتربة منجم الفوسفاط، فيغرب قُرصها، ويتراجع ضياؤه ليزحف الليل على بنايات وشوارع وأزقة (وادزم).

تابع عبد الرحمن سيره؛ حائما حول مساحات الحديقة، وكذلك نادر؛ فالتقيا؛ قال له عبد الرحمن:

– ستظل هنا تراقب تاجر أسنان القرش، وأنا سأذهب لآتي بالسيارة؛ لتكون قريبة منا إذا ما ترك تاجر أسنان القرش الحديقة، ولا أستبعد أنه سيلتقي بالصائغ؛ لأنهما معا الآن في ذروة نشاطهما.

ومكث نادر ينقل قدميه عبر مسافات قصيرة؛ ذاهبا وآيبا، كما ينقل في آن واحد عينيه في فضاء الحديقة، ويُصوِّب نظرة مُحترسِة إلى حيث يُثرثر تاجر أسنان القرش إلى زوار الحديقة؛ بأعاجيب مستحاثات أسنان القرش؛ إلى أن رجع عبد الرحمن، ودفع إلى نادر بوجبة الغداء؛ تحتوي على أغلب عناصر التغذية؛ لحم دجاج، ومرق البصل اللذيذ؛ حُشيت بهما قطعة خبز، وعصير برتقال بارد، وتفاحة كبيرة؛ انغرزت بعدئذ في خضرتها أسنانه، ولاكها فمه قَضماتٍ، فانتعش،

وسعدت نفسه، ورجا ألا تُذهب البِطنَة فِطْنَتَه، ولم يسلم؛ فقد ارتخى بدنه وتثاقلت عليه أعضاؤه، فلا بد مما لا مهرب منه في هذه الحالة؛ ألا وهو القيلولة، وهو غير المتأقلم مع شمس ظهيرة البيئة القارية، وإذ نظر حواليه، فرأى أيكة ذات أغصان مورقة متدلية؛ تظلل بساطا من عشب؛ تراجعت عنه بركة بعد أن سقته بالمياه؛ تكاد أن تغدو آسنة، لذلك سمع نقيق ممن يسكنها من الضفادع، فأسلم ظهره إلى جذع الشجرة بإعياء، وأغمض عينيه فغفا؛ على إيقاع النقيق والأزيز والهسيس، وفي سكون الصيف، ولم يفق إلا على صوت عبد الرحمن وهو يقول:

– إن الشمس قد هبطت من طور النور الساطع؛ إلى طور الضوء الأصفر، فطالت ظلال الأجسام، ولا أحسب إلا أن الليل سيزحف، وقد لاح للمدينة تقدمُه، وعادة ما تلِين له وتُذعِن، ومن ساكنيها من استعد إلى أن يؤوب إلى مسكنه، ومنهم من استعد إلى أن يُؤخّر عودته، ويبحث عن جماعته ليسهر مع أفرادها إلى وقت متأخر من الليل.

وعبد الرحمن ونادر كانا قد علما ما دار من الأحداث، وقد استدركا ما كانا في غفلة عنه، وهما الآن يُحيطان بالمكان، ويتوقعان تحرك تاجر أسنان القرش والصائغ، وصاحبي السيارة.

ما إن تكهربت الأسلاك الموصلة للطاقة في أعمدة الساحات والشوارع والأزقة؛ الحاملة للمصابيح، وتدفّقت أولى الأنوار الاصطناعية التي ما تزال تُغالِب ضوءَ الغروب؛ حتى أقفل تاجر أسنان القرش دكّانه الفضائي، وجمع ألواح المستحاثات من أسنان القرش؛ بعضها فوق بعض، ثم منها ما تأبطه، ومنها ما أودعها كتفه، وسار، فتعقبه عبد الرحمن، ونادر يمشي ببُطء على بُعد خطوات منه.

كان تاجر أسنان القرش يقصد محل تاجر الحلي، وجَانَبَ ما يُلهيه ويُؤخره، ولم ينتظر لحظة؛ فقد أرسل إحدى قدميه في خطوة سريعة إلى داخل دكان الصائغ، ولم تمر عشرات الدقائق حتى خرج هو والصائغ وركبا سيارة، فأسرع نادر وعبد الرحمن إلى سيارتهما التي لا يبعد موقفها كثيرا، وارتميا في داخل هيكلها، واقلعت بهما، وعلى بعد مسافة تقاطَع نظرهُما مع سيارة التاجرين، فسافرا وراءها، ولم تذهب بعيدا في ذلك الطريق الجنوبي الشرقي، فقد انعطفت إلى اليسار؛ في

مسرب عريض؛ تَحُفّ بجانبيه بساتين تُسقى، واختفت بين الأشجار، وما يحيط بقطع الأرض؛ من نباتات حامية، وقد لفّها ظلام الليل.

لم يستمر عبد الرحمن في قيادة السّيارة، فأوقفها وأمر نادر بالنزول منها، وأخرج من صندوقها الخلفي دراجتين؛ ركب على إحداهما، وركب نادر على الأخرى، لأنه فهم حاجتهما من هاتين الوسيلتين؛ في هذا الوقت بالذات وفي هذه الناحية، وكان أول شيء لاحظه نادر هو أنهما دون فرامل ولا مصباحين أماميين؛ ابتسم عبد الرحمن، وقال:

– تنبطح الطرق والمسارب؛ في هذه المدينة وأنحائها، وتمتد بعيدا، ولقلة علامات المرور، فلا حاجة لركابها لفرامل، ويكتفون بالضغط بالقدم على مطاط عجلتها الأمامية، أو يقفزون من أعلى مقعدها، فيترجلون وهي حيث هي بين أيديهم ساكنة.

أدارت قدما عبد الرحمن أُسطوانة الدراجة المسنّنة؛ التي مَرَّرت سِلسلة ذات التّمفْصُلات المعدِنية؛ التي سَرَّعت بدورها العجلة الخلفية، وتحركت به الدراجة، فاقتدى به نادر، فسمعا معا أصواتا للحصى الذي كان يكاد أن ينسحق بين ثقل الدراجة والأرض الصلبة، وللتراب الذي كان ينضغط تحت لَدَائِنيّة العجلة المطاطية.

توقف عبد الرحمن فجأة، وقال:

– إذا ما فكرنا في وسيلة تُسهّل التنقل عبر الممرات، وبين البساتين، فما يجعلنا نسلم من الكلاب، فهي تنبح لأي همهمة أو دمدمة، ولأي صوت حركة أو وطأ أقدام، وكلاب المنطقة تتنابح مُثيرة للخوف، وتهجم بشراسة، ومنها من لا يترك لك فرصة المرور إلا بشق الأنفس، والأَمَرُّ من هذا؛ فقد يتنبّه لها أولئك؛ أفراد الجماعة.

عندما سمع نادر هذا الكلام تسمّر في مكانه، وتساءل بينه وبين نفسه بِهَمٍّ كبير: «هل ستفشل خطتنا؛ أسنتراجع، ونعود دون أن نجني شيئا؟».

لكن عبد الرحمن فكر في الأمر، وقال:

– سنُحاول أن نُلاين الكلاب، ونحُدّ من اندفاعها بِمُسالمتها، وسيُخْفِينا الظلام عمن يَستشْعِرُها.

وقد تقدما، وبزحفِهِما على المزارع والبيوت التي تتوسطها؛ شرعت الكلاب بالتنابح، وقد سُمِع من قبل تصايُحَها؛ لأن في ناحية غير بعيدة كان هناك سَهر طرَب؛ لعله عُرس، فكان هذا من حسن حظِّهِما؛ إذا ما حدث أمر؛ فهما في عِداد المدْعوِّيين للوليمة، ولاين عبد الرحمن الكلاب النابحة وسالمها، وطفقا يبحثان عن المكان الذي توقفت فيه سيارة التاجرين؛ وجدها في حقل، ولم تكن بمفردها؛ كانت تقف بجانبها سيارة المتعقبين، وقد غمرها تراب برِّ ناحية (وادزم)، ونافذة منزل العَرصة مُشرّعة؛ يظهر منها ضوء خافت؛ يُنير لمن يأوي إليه الآن أركان الحجرة.

دعا الدراجتين تنبطحان بهدوء على أرض مُعْشوْشبَة، وخطوا بمهل وبثقة؛ ذلك أنهما سمعا تبادلا حادا للكلام، واقتراحات واعتراضات، فكان اللّغط والصّوت الأقصى المرتفع يطغيان، ولا يُسمع من الخارج شيء. كان عبد الرحمن هو من حادَّت ذقنه إطار النافذة الخشبية، ورأى ما يجري بالداخل، أما نادر فكان يتسلل في محيط المكان، ويتسمّع ويراقب إذا ما كان هناك من يحاول ضبطهما، فلما اطمأن لخلو الحقل من أي أحد؛ التحق بعبد الرحمن، وشاهدا معا ما اندهشا له: حجرة عامرة الأرجاء بمستحاثات؛ من فكوك تماسيح، وعظمة تَرقوة ضخمة، ونباتات وحيوانات مُتحجّرة، فأدركا أن هؤلاء تُجار مستحاثات، ولم يستبعدا أنهم نقطة؛ من نقاط شبكة تهريب ذلك الإرث الأُحفوري؛ إلى خارج البلاد.

همس نادر في أذن عبد الرحمن قائلا:

– أوَ رأيت تلك التّرقوة الضخمة... إنها لعمود فقري... إنها لدينوصور؟

سأله عبد الرحمن:

– من أين لهما هذه؟

أجاب نادر:

– لا أعلم.

كانت هناك في الداخل مائدة تتوسط الحجرة؛ كبيرة ومربعة، وقصيرة الأرجل، وأربعة أشخاص؛ يجلسون على حصير؛ مُتحلّقين حولها، وعليها نُشرت أوراق الرسوم والتصاميم؛ التي كانت موضوع الاجتماع، ويدور حولها النقاش. كان من

بين هؤلاء فعلا تاجر أسنان القرش وتاجر الحلي، وإثنان آخران يظهر أنهما من كانا يستقصيان بالسيارة بادية (وادزم)، ويقتفيان آثار عبد الرحمن ونادر، وهما في طريقهما إلى التخييم.

تراجعا عن النافذة، وانسحبا إلى خلف أحد الأسيجة، وكان نادر يفكر في الكيفية التي يستطيعان بها استعادة الرسومات والتصاميم، ولم يصمت عبد الرحمن طويلا فقال:

– سنَكْمَن بعيدا، وننتظر ما سيقومون به بعد اجتماعهم.

وانصاع نادر لفكرة عبد الرحمن، وجلسا على الأرض؛ يرقبان جميع نواحي المكان، ويتصنّتان، ومُتأهّبان في آن واحد، وكلما تأخر أفراد الجماعة عن أن ينفضوا؛ إلا وزاد كل من نادر وعبد الرحمن إلحاحا على المكوث حيثما هما، وإصرارا على إنهاء خُطّتِهِما، وإضعاف عزيمة هذه العصابة، وإن تطلب الأمر أن يهجما عليهم فلن يتأخرا.

بعد أن مر وقت طويل، وكان يعرف عبد الرحمن من خلاله أنهم استنفدوا ما كان لديهم من كلام حول الاتجار بالمستحاثات، وحول الرسومات والتصاميم؛ خرج شخصان؛ استطاع نادر أن يُمعِن النظر فيهما؛ إذا ما كان أحدهما يحمل اللوحات الورقية، فلم ير من هذا شيئا؛ مما قد يشغل أيديهما، وقصدا إحدى السيارتين وركباها. أنارت السيارة ما أمامها، وتحركت بصوت محركها لتبتعد به عن المكان، ويبتلعها الظلام، وتظل أنوار مِصْباحيها تظهر من بين الأشجار وتختفي. كان التاجران هما من غادرا بيت المستحاثات، فزاد هذا من شجاعة عبد الرحمن ونادر، إذ لم يبق في الداخل إلا الشخصين الآخرين؛ إن هما قررا ما سيقتضيه الحال؛ لا مندوحة من الإغارة على البيت واسترجاع اللوحات بالقوة، فانتظرا، وطال ترقُّبُهما، وتمسكا بالصبر في بحر مُضطرب من اليأس، والظنون، والوساوس، ووحشة المكان، والخوف من أن يُباغتا من طرف أحد أصحاب المغارس المسيّجة، فيُكشف عن وجودهما النَّاشَز في تلك الناحية، ثم هما يشاهدان الضوء يُطفأ، ويظهر الرجلان في طريقهما إلى سيارتهما؛ ليمتطياها، فتمضي بهما تاركة البيت والبستان الذي يحيط به غارقيْن في سكون الليل، فهلل عبد الرحمن مُوجها سؤالا إلى نادر قائلا:

– أوَ رأيت في يدي أحدهما لفائف الأوراق؟

أجاب نادر:

– لشدة الظلام لم ألاحظ ما يشغل أيديهما.

تفوها بهذا معا وهما يسيران حثيثا نحو البيت، وحاولا فتح الباب، إلا أنه كان موصدا بقُفل خارجي، فدفع عبد الرحمن الدفتين بقوة من كتفيه، فانفتحتا، وكان عبد الرحمن قد اصطحب مصباحا يدويا، فسلط ضوءه الكاشف على وسط الحجرة، ليريا الرسومات والتصاميم ما تزال مبسوطة على المائدة، فعدها نادر، ودقق النظر فيها، ثم قال:

– ما تزال بعددها، ولم يمسسها أي تلف؛ إنها سليمة.

احتضن نادر رسوماته وتصاميمه، وسار وراء عبد الرحمن الذي لم يتأخر واتجه إلى الباب، ليتركا البساتين والحقول تنعم بهدوء الليل، وتستأنس بنباح كلاب الدواوير الذي يأتي من بعيد، وبنقيق ضفادع البرك الضحلة المياه.

وهما عائدان من مُغامرتِهما، وكلاهما إحساس بنشوة انتصار على أولئك الذين يُخيّل لهم أنهم ملكوا المدينة، وما يُحيط بها، وتحكموا فيما هو متخلف عن الأزمنة الجيولوجية من بقايا الكائنات المتحجرة، وفي كيفية كسب المال من بيعها وتحويلها إلى أشياء ثمينة، وسيكتشفون أن هناك من هو نِدّ لهم في التخطيط السري، وأنهم معروفون ومراقبون الآن أكثر من أي وقت آخر؛ إذ أمر عبد الرحمن قائلا:

– أُترك حجرتك المكتراة بالمرة، ولا تأوي إليها أبدا بعد الآن؛ لأن أمثال هؤلاء لا يتأخرون في قتل من اطلع على تجارتهم، ومن يقف في طريقهم، وستُقيم معي حتى تنتهي من استطلاعاتك وأبحاثك.

وجه نادر سؤالا إلى عبد الرحمن قائلا:

– ألم تفكر في السبب الذي أدى بهم إلى أن يتركوا الرسومات والتصاميم؛ حيث وجدناها، وكأنها مُهملة أو مُتخلّى عنها؟

أجاب عبد الرحمن:

– لم أفكر في هذا مطلقا؛ ربما كانوا سيعودون إليها؟

قال نادر:

– لقد أنهكتهم محاولات تقليدها بتفاصيلها الدقيقة، فهي صعبة التنفيذ وعصية، وتحتاج إلى يد مِلحاحة وذات دُربة؛ تبحث أولا في أرفع تقنية للتجسيم، وهؤلاء لا يبحثون إلا عن أسهل وأقصر طريق إلى الحصول على المال.

الفصل الثالث

مُستحاثة دينُوصور وسلحفاة مُتحجرة

في صباح الغد لم ينتظر عبد الرحمن أن يُذكّره نادر بما هو مُبرمج بعد رحلة التخييم، وبعد شراء لوحتي أسنان القرش، والسطو على الإبداعات، والسعي إلى معرفة السارق، واستماتتهما للوصول إليها، ومعرفة أكيدة بوجود عناصر منتظمين في عصابة، فقال:

– إن والدي في غرفة الضيوف، وقد تواعدتما من قبل على لقاء يجمعكما؛ لتسأل أنت عما يمكن أن يُفيدك، وهو سيُجيب مُمِدًّا إياك بالمعلومات.

وقصدا الغرفة، ورحب الشيخ مرّة أخرى بنادر، ودعاه ببشاشة تَرحاب ذات أرْيحِية، وبحنان أبوي إلى الجلوس بالقرب منه، وقال:

– إني سعيد بحلولك ضيفا علينا، ومُرتاح لصداقتك بابني عبد الرحمن، وإني أيضا مُطّلع على سريرة نفسك، وعلى نياتك الحسنة والنبيلة، وعلى طموحك ومشاريعك؛ إنها مساعدة تجارب حياة طويلة مِنّي. إن الذي له سِعة الخاطر، وسيُرحِّب بفُضُولِك بغير تذمر، ويُطلِعُك على الأسرار، وعلى ما يَخفى؛ هو رجل شيخ؛ يكبرني بعقد من العُمُر؛ في سن الثمانين؛ كثيرا ما اجتمعنا لليالي أنس وإمتاع مُقمرة، فحكى لي ما حكى من أيام عمله بمناجم استخراج الفوسفاط، وما يزال في عينيه بريق يدل على أنه يعلم أشياء كثيرة، وأنه لعب أدوارا، وكان عنصرا في أحداث، سِيرا في الطريق المتجه إلى مدينة (الفقيه بن صالح)؛ مسافة خمس كيلومترات، وانحرفا عنها إلى يمينها؛ في طريق مُتترب؛ يقودكما إلى بستان؛ بابه على الجانب، ثم ستريانه أقرب إلى هيكل عظمي؛ غُطّي كالعادة بجلباب أبيض اللون؛ من صوف خفيف، ويغطي رأسه بعِمامة بهيئة عُشّ الطير، كأنه مُلقى كالعاجز تقريبا عن الحركة؛ على فراش من خيوط صوف مُحكمة النّسج، ويتكئ على وسادة ليست كالوسادات؛ هي جلد شاة مدبوغ مَحْشُوّ بصوف تلبّد وتوَدّك مع مرور الزمن؛ إلى حائط بيته، ويمتد أمامه قسم من أرض أجداده؛ تفرقت في تربته أشجار اللوز والتفاح الأخضر

والسّفرْجل، والقسم الآخر ما يزال تُغطيه سيقان الحصيد؛ ترعى فيه الشياه. سيروي عليك الحكاية، وإني أعلم أنها لا تنتهي؛ بل تستمر لتعيش أنت أيضا فصلا منها؛ إذا أردت وكنت على استعداد.

لم تفُت نادر أيّ كلمة نطق بها والد عبد الرحمن، وتأملها وتفكر فيها، فوعى بأنها تدل على أن هناك ما لم يُسرّ به؛ بل أكثر من هذا؛ ففيها تنبُّؤ بما قد يحدث، وتأكد نادر من خلال كلامه أيضا أن مما قد جرى لا يُستحسن أحيانا أن يُروى؛ فما مدى اهتمام الأجيال مما فات وقوعه؟

أما الذي كان يأخذ باهتمام عبد الرحمن هو: أمن إمكانية تُخوّل لهما الذهاب إلى عامل المناجم السابق، والراوي لما سلف من الأزمان؛ دون أن ينكشفا أمرهما للجماعة الجسورة أو المخاطِرة؟ وَقلب الأمرَ ظهرا لِبطْن، وفكر في كم من وسيلة، وطال بحثه، وأول ما قرّره هو أي ساعة من اليوم ملائمة؛ فرأى أن يكون بعد آذان العصر، والذي في الغالب ينشط فيه الناس؛ سيْرا على الأقدام أو ركوبا، وأن يتأخرا من أوبتهما من هناك قُبيل انبلاج ضوء الشروق، ولن تكون الوسيلة إلا إحدى مركبات شحن الماشية؛ كانت في طور التّصليح في الورشة، فلا يبدو منها إلا أنها مُخصصة لذلك، وما مُستقلّاها إلا كسّابين؛ لا يعرفان مما يجري في الدنيا إلا بيع الأنعام لجزرها، أو لشراء خرفان وُلدت في ذلك العام؛ لرعيها أو لعلفها في الزرائب؛ وتسمينها للغرض نفسه.

ذهبت بهما الشاحنة ذات محرك مُختلّ نظامه الميكانيكي والهادر، وذات الماسورة النافثة للأدخنة السوداء، ولولا انفساح البادية، والهواء المتنقل رياحا بحُرّية في الأجواء، وغير المحفوظ؛ لحَبَست الأنفاس، ورمت بهما في طريق تراب يابس من وَحْل الشّتاء الفائت، والحجارة، ورفع الرّيحُ التُّراب المسحوق، وصيّره عَجاجا، وتابعت سيرها إلى أن كبح عبد الرحمن من اندفاعها المتعثر؛ بجانب دار كبيرة؛ ذات مساحة مُتّسعة؛ فهي بيت واسع، وكان ذلك الآدمي ذو البنيان من العظام الكبير؛ يُرخي طرفيه السُّفليين أبعد من جذعه؛ فكانا مترامِيين أيضا على مسافة من يديه، ومن متناولهما؛ كانت إحداهما تمسك بعُكاز طالت عصاه، فكان يَنْكِت به وبوَهَن التراب؛ من بين قدميه وساقيه المتخشِّبتين، وكان هدير الشاحنة التي تلبّست مظهر البادية قد همز أحدا من أصحاب المنزل، فظهر

مُستجلِيا ما جاء بالشاحنة التي تنقل الحيوانات النافعة، فكان هذا أحد حفدة الشيخ الذي ما تزال أُبُوّته سارية في أفراد عائلته الكبيرة، فكان أن انثنى ظهره على أُذن جده يُنبئه بقدوم شابين؛ وبأنه سيسألهما عما يريدان.

حياه عبد الرحمن؛ مادا إليه راحته، وتصافح مع نادر، وكانت الشمس قد هبطت إلى ما بين السمت وأفق الحقول، وهي نازلة إلى غُروبها، وذلك ما ابتغياه حتى يحلو لهما سمر الحكي، ولا يُنغّص عليهما ذلك أي أحد من أولئك الممتهنون للاستغفال، واقتناص الفرص.

بادر عبد الرحمن فقال مُوجها كلامه إلى حفيد الشيخ:

– لعلك تعرفني؟

أومأ الحفيد برأسه مجيبا:

– نعم؛ ميكانيكيّ ورشة (وادزم) المعروفة.

تابع عبد الرحمن قائلا:

– ... وهذا أحد الطلبة؛ يدرس علم الطبيعة؛ استهدى إلى جدك ليعرف منه عن الحياة النباتية والحيوانية التي تحجرت، وما تزال آثارها في طبقات أتربة المنطقة التي يُستخرج من مناجمها الفوسفاط.

أمطر الحفيد في أذن الجد ما حفظ عن ظهر قلب؛ ما فاه به عبد الرحمن، فكأن المسن انتبه من غفلة، وبرقت عيناه الصغيرتان، وتقلصت وجنتاه الذابلتان؛ والتفت الهوينى إلى نادر؛ مُحدّقا في ملامحه؛ سرعان ما أشرق وجهه، وغدا نَضِرا؛ بابتسامة عريضة، ومُتحفظة إلى حد ما؛ تعكس سعادة السلف؛ التي لم تنل منها تقلبات الزمن، وهي من جِبلِيّات أو من سجايا جيل ذلك العهد، وقال بصوت مُتهدّج أفنت قوتَه السّنون:

– لم أكن أعرف كم من المخلوقات ومن الجمادات؛ ما يُكوّن هذا العالم وهذه الأرض؛ بيابِستِها وبحارها؛ بهذا الكم الهائل، وبهذا العدد الذي لا يُحصى؛ وما يفرز هذا من حياة كثيرة، وما ينجم عنه من وقائع، وما يتوارى منها في مجاهل لا تُدرك، وما يبقى من أسرار وعجائب؛ إلى أن تُكتَشف؛ لم أكن أعرف ما في باطن الأرض من أشياء؛ بدت لي في أول الأمر غير ذات أهمية؛ في حين أن

هناك من يُغامر بحياته للحصول عليها...اِجْلِسا؛ وقد دفعتني آمارات اهتمام وفضول بادية على وجه هذا القادم من الساحل إلى الكلام.

وبعد أن قُدّمت لهم أكواب (بلاّرية) قديمة، وارتشفوا منها الشاي المنعنع؛ طاب لهم الجلوس، وكانت العيون تُصوّب نظراتها إلى وجه الشيخ، وقد زاد انفراج صفحته من أي همّ يومي، وانبسطت نفس الرجل المُعمِّر، وانفتح خاطره، وكبُر قلبه، وتحمّس، وبتيه وافتخار؛ لأنه يتكلم وآذان الجميع صاغية، وتابع حديثه قائلا:

– إن تلك الأرض كوكب آخر؛ غير الأرض نفسها؛ به ما يخلب الألباب، ويدهش له الإنسان؛ من آثار لحياة كانت قد سادت، ولكن تغيرا حدث فبادت. كنت من رافق الفرنسي؛ في محاولته الاستثنائية والخاصة؛ مُستكشف مكامن الفوسفاط، ومراقب الأنفاق الأفقية؛ والمحفورة في عُمق التراب والصخر، ويملك مفتاح جميع منافذ المنجم؛ وهي خريطة تُبيّن المسارات؛ دونها يضِلّ من حسب أن ليس خطرا في السير في ممرات المنجم، وأنها تنتهي مهما طال المرور فيها، وهي طويلة ومُظلمة، ومُهدّدة بانهيارات الأتربة والحجارة، وفرنسي آخر؛ كان أستاذا باحثا في علم الجيولوجيا، والبيئات المناخية القديمة، ويُشرف على قسم يختص بالأبحاث في ذلك العلم؛ بـ(المعهد العلمي الشريفي)[25]، وهو في آن متحف طبيعي، ولماذا تكلمت بهذا الآن، ولم أنطق به إلى أي كان طيلة خمسة عقود؟ لأنك أيها النَّادِر أحد ممن قد يترددون على ذلك المعهد، وبشغف للنهل من تلك العلوم، والذي ما يزال قائما إلى حد الآن، ويتتالى على إدارته مُدراء مغاربة؛ بعد أن كان الفرنسيون هم السابقون، وكان تأسيسه من المهمات التي لا مناص منها؛ بعد أن استتبت إدارة الحماية الفرنسية؛ كان قد شكل هذان الفرنسيان ثُنائيّا متكامل التخصص والخبرة؛ الأول يعلم بما في باطن المناجم، والثاني عالم بها وببيئتها، وقد اتفقا على القيام بعمل، لم يسبقهما إليه أحد؛ إلى

[25] هو أقدم مؤسسة جامعية للبحث في المغرب؛ توجد بالرباط العاصمة؛ أُسّس في 24 يناير 1920م؛ لعب دورا في تطور البحث العلمي في عدة مجالات؛ في علم الطقس والجيولوجيا والجيوفيزيائية، والجيومورفولوجيا، وفي الكشف عن بعد، وعلم الحيوان والنبات.

حدود تلك الأعوام، وكان مخاطرة من ناحية أخرى، وكنت من أنقذتهما من الموت قتلا؛ رميا بالرصاص، ولا آلة تصفية غير هذا وفي ذلك الظرف المشحون. ما زلت أحتفظ ما استأمنني عليه ذلك المراقب الفرنسي، والآن ذلك الشيء هو في عُمق من هذا الخلاء؛ لا أعلم إلى أي نهاية صار إليها، وإلى أي حال انتهى إليها، هو ما تبقى من تلك المعركة الدامية، فما العلاقة التي ربطتني بالفرنسي (كَولبير)، والمحتكر للخريطة؛ بتخصصه في إدارة المناجم؟ ولأي هدف خطط هو وأستاذ الجيولوجيا (شارل)؟ ومن هم أولئك الذين ظهروا في طريقهما، وتسلحوا ليقتلوهما لنفس الغرض؟ وما دوري إلا فصلا من الحكاية جميعها؛ والتي قد تجد أيها النّادِر سردا لتفاصيلها في كتاب بخط أستاذ الجيولوجيا، وهو قد مات منذ أربعين سنة، فأين هي مُدوّنته تلك؟ فاصغوا إلي، وقد زحف الليل، وسكنت دنيا البادية، وهبت نسائم الصيف على نور فتيل الشمعة؛ الذي لا يشع أبعد من مجمعنا، وترونه يتراقص، واطمئنا؛ فلا أحد يتجسس علينا باستراق السمع، فآذان كلابنا تتحسس، وتلتقط الأشباح من بعيد؛ التي قد تتسلل، فتُنذر تلك الجِراء اليافعة بصوت رتيب ومُتوعّد، فنستنجد بالبندقية الملقّمة رصاصا.

سكت لحظة، ومسح عرق وجهه بمنديل، وتابع كلامه قائلا:

– في عام 1954م؛ كان وقت العمل قد أشرف على نهايته في المنجم، فغادرت راكبا دراجتي النارية (فلاندرية؛ Flandria)؛ مدينة (خريبكَة) في طريقي إلى بيتنا هذا، وكان ذلك اليوم هو الجمعة، وهو آخر أيام العمل، وغدا يوم السبت، وبعده يوم الأحد، وهما يوما عطلة نهاية الأسبوع، وأن الظلام قد اشتد بعد غروب شمس ذلك اليوم من فصل الربيع، وآوى كل كائن حي إلى مبيته، وكنت سعيدا بالراحة التي سأنعم بها، إلا أن ذلك الشعور لم يدم أكثر من سبع ساعات؛ ففي الواحدة بعد منتصف الليل؛ سمعت هدير دراجة نارية قويا ومألوفا، وهو صوت دراجة (B.M.W) الألمانية الصنع؛ حيث عرفت من يقودها؛ إنه المراقب (كَولبير)، فتساءلت حينها: ما سبب قدومه، وقد كنا معا في المنجم قبل انتهاء وقت العمل؟

فلم أنتظر حتى ينادي علي؛ وخرجت، وقد شعرت بأنه جاء لغير ما نقوم به عادة من عمل روتيني، وكان ما يزال يمتطي دراجته ذات المقعدين الجلديين

المنفصلين، وانصبت نظراتي على وجهه، فرأيت فيه غير وجهه المألوف؛ كان صاحيا من أي مُسْكر، وما تزال يداه قابضتين بإحكام على المقود، فهو إذن في عجلة من أمره. قال:

– سألقاك على الساعة العاشرة ليلا من يوم الأحد؛ غير بعيد من مدخل منجم رقم (3)؛ لا تستقل دراجتك، واقصد حيث تجدني على ثلاث مراحل: في الأولى راكبا سيارة أجرة إلى (وادزم)، وفي الثانية من هذه إلى (خريبكَة)؛ راكبا حافلة نقل، وترجل منها على جانب الطريق، وفي الثالثة اقطع المسافة التي تفصلك عن المكان المتفق عليه سيرا على الأقدام، ولا يظهر منك إلا أنك في زيارة لأقاربك أو لصديق أو لحاجة، وإذا تيقنت بأنك مُتعقَّب فراوِغْ، وانقل إليّ ما قد تقع عليه عيناك من تفاصيل شخص مشكوك فيه، وخلاصة القول؛ أن ما سنقوم به نحن الثلاثة يجب أن يكون بسرية تامة، وإذا وقع ما يدل على أننا مراقبون؛ فلا نستمر في خطواتنا، وليعد كل واحد منا إلى مسكنه، أو إلى أي مكان بعيد عن المناجم.

وضغط بقدمه المتنعلة حذاء جلديا قويا؛ على مُبدّل السُّرعة، وترك الكابح، وأدار المسرّع، فانطلقت به الدراجة ذات الإيقاع المتباطئ، والمتزايد برصانة والقوي، وابتعدت به، وهدير المحرك يخفُت في طول الطريق، ويختفي السيد (كَولبير) ودراجته في ظلام الليل، فلم يبق منهما إلا نور المصباح الكاشف، توارى بعدئذ وراء ما ارتفع وما انخفض من الأرض.

فما أمر به الرئيس مفهوم ولا يحتاج إلى توضيح، ومِثلي كمَثَل قطعة غيار في نظام آلي مُتحرك، ولم أدر بَعدُ ما الهدف من ذهابي وبالطريقة التي أملاها عليّ السيد (كَولبير)، ولكن الذي ظل السؤال عنه يتردد في ذهني هو أنه كان يتكلم بصيغة الجمع، وليس بصيغة المثنى، فمن هو الشخص الثالث؟

تدبّرت الساعة التي سأنطلق فيها من داري، فكانت هي الثامنة مساء من ليلة الأحد؛ قبل أن تنقطع حركة مرور سيارات النقل، وإلى حدود الساعة التاسعة زُرت صِهري بـ(وادزم)؛ وشاركته بعض الأكل؛ من خبز وزبدة وعسل، وشُرب الشاي، ثم انتظرت في ناحية قريبة من الشارع الآتي من محطة الحافلات وسيارات الأجرة، وكانت إحدى الحافلات قادمة، فأشرت بيدي إلى سائقها، فتوقف بها،

وصعدت إليها؛ بالحيطة التي أشركني فيها معه (كَولبير)؛ مسحت بعيني الوجوه؛ الجالسة أرواحها وأجسادها على الكراسي المصطفة، واختلفت اهتماماتها؛ بين من سابقني ناظرا إلى هيئتي، ومن أحنى رأسه أو أداره إلى جانب منه، وحاولت أن أستشعر ما ليس مألوفا في سفر الحافلات، فلم يكن أي من ذلك، وجلست في أول كرسي وجدته، وترجلت من الحافلة بعد نصف ساعة، وكانت قدماي قد وَطِئتا حصى الطريق المنثور، وحجارة الحاشية، وحاصرني الظلام، والسكون الذي يُخيّم في ذلك الوقت من الليل، وقطعت الطريق إلى الجهة الأخرى، وسرت في طريق ثانوي؛ كان سيطول ضربي فيه؛ لولا أنني تنبهت إلى وجود شاحنة؛ صندوقها الخلفي مُغطّى برداء رمادي اللون، ورأيتها تغمز بأضواء مصباحيها الأماميين، وكرّرْت ذلك الفعل، فأدركت أنها تدعوني، فانحرفت واتجهت إليها، لأجد خلف مقودها السيد (كَولبير)، فلم يكن إذن اللقاء قريبا من المنجم رقم (3)، لعل هذا كان إعادةَ النظر في الخطة، وفي آخر لحظة ضرورة؛ لتفادي ما قد يطرأ، ولم يكن في الحسبان دائما، وقاد (كَولبير) الشاحنة بدرجة ضوء خفيفة، وقد استغربت فعلا ولم أسأله عنه، وهو يُوجّهها بالمقود في أرض غير ممهدة؛ لم يطرقها أي إنسان، أو وسيلة نقل، أو مركبة، أو آلة حفر السطوح الفوسفاطية، تمتد ما بين حافة هضبة الفوسفاط، وحقول ومساكن القرويين المتفرقة، وقلّما شاهدت نورا يظهر من داخل أحد حُجُراتها؛ عبر كُوات حيطان؛ مبنية بحجارة يُمسَك بعضها ببعض بالطين، وعرفت إلى أي حد أن هذا الرجل كان يتكتّم على بعض أعماله ومُهماته، فلا يبوح بها إلى أي أحد، وهذا مما هو مُقنن، ويتلخص في كلمتين: سرية العمل.

وبالقرب من جرف صخري قليل الارتفاع؛ كبح اندفاع الشاحنة، وأوقف المحرك، فلم نعُد نسمع شيئا؛ كان السكون يلُفّ المنطقة، وطفق (كَولبير) يتصنّت، وينتظر سمْع ما قد يُريبنا، ثم قال:

– سننقل من داخل النفق صناديقا خشبية إلى صندوق الشاحنة، ودون أن تتفوه بأي كلمة، وخير لك ألا تعرف؛ على الأقل حتى بعد عقد من الزمن أو أكثر.

تسمرت في مكاني، ولم أنبس ببِنت شفة، وانتبهت في أحد الأوقات إلى أنه يوجه كلامه إلي قائلا:

– إني أنتظرك فاتبعني.

ما عرفته أن النفق مَثَله كأنفاق استخراج الفوسفاط؛ إلا أن أرضيته ليست عليها آثار سكة العربات الحديدية، ولا حتى آثار أقدام أو عجلات مَركبة؛ كأنه حُفر منذ تاريخ قديم، وهُجِر، وفي مدخله تنبت نباتات وشجيرات كادت أن تحجبه عن كل من يمر؛ سواء قريبا منه أو بعيدا عنه، وفيما بعد طرحت سؤالا ولم أجد له جوابا: «هل حُفر لاستخراج الفوسفاط الرسمي، ونفد ما بداخله؟ أم أنه حُفر حتى إذا ما عُثر فيه على ذلك الشيء الذي تقاتلت عليه الجماعتان، فسُدّ دون من قد يكتشفه بالصُّدفة؟».

ولم يَدعْني (كَولبير) أمشي وراءه طويلا؛ فأمرني قائلا:

– حسْبك هنا، وحَذار أن تتخطى ما حُظر عنك. سنحمل الصناديق على مرحلتين: الأولى سأتكلف بها أنا؛ من داخل النفق إلى هنا، وأنت ستتكلف في المرحلة الثانية بحملها من هنا؛ إلى أن تنتهي بها على ظهر الشاحنة، وبهدوء وبصمت، ودون نور، فإذا ما كان لديك أعواد ثقاب فاطرحها، فلا تتضايق بالظلام؛ فهو حماية لك، وقد تلوذ به إذا ما وقع ما قد يُهدد حياتك، وكن شبحا، وخفف السير، وانخرط في تراقص جيئة وذهابا؛ كأنك آلة مُبرمجة، لأن لا وقت كاف لنا، فقد يَدْهمُنا ضياء الشروق، ويكشف عنا للعيون الفضولية.

وهو الرئيس، فأمره مُطاع، ولا إهمال في بعضه، فالعملية من تخطيطه هو، أو أحكَمها مع آخر ثان؛ حتى تلك الساعة لم أكن أعلم، واختفى في ظلام النفق، وتخيلته في ذهني يتعثر في انعراجات الأنفاق؛ التي إن كان يهتدي في مسلكه بنور ضوء يُضاء في الجانب الآخر؛ فقد حجَبته تلك الانعراجات بالمرة.

بعد ثلاث دقائق، وكنت حسبتها بساعتي اليدوية؛ أول ما ظهر من (كولبير) كتفاه الضخمان؛ يحملان صندوقا؛ قدرت طوله بمتر، وارتفاعه بستين سنتيمترا؛ من قطع خشبية؛ أُحكم بعضها إلى بعض بأخرى عرضية، وقد انثنى رأسه، فأسرعت وتفضلت بكتِفي اللذين لم يكونا أقل صلابة من كتفيه، فانحنى رأسي بالرغم منه، ولم أكد أشعر بثقل الصندوق؛ حتى أسرعت المشي؛ وحتى كنت

أدفعه إلى داخل الشاحنة، وحاولت ألا يُصدر صوتَ احتكاكه بالقاعدة القصديرية؛ كأني احتاط فأحافظ على سكون المكان، ولا يصل إلى أي أحد؛ ربما يجوس بين تلك الصخور، أو ذلك الركام من التراب، وظهر (كَولبير) ثانية بصندوق آخر؛ كان أطول من الأول، وبالثالث، وكان هذا أقصرَهما، وكلما زاد عدد الصناديق؛ زادت هي اختلافا في الطول، وفي الارتفاع وفي الوزن، ولم يكن قد بقي إلا حيزا، ولا أدري ما إذا كان سيتسع للصندوق الذي سيأتي به (كَولبير)، وهو يتابع عمله مواظبة، ودون تضييع لدقيقة واحدة، وانتظرت، وكنت سأسأله ما إذا كان الصندوق التالي سيجد له مكانا في الشاحنة؛ إلا أن شبحا كبيرا انبثق من الظلام؛ أخفى هذا الأخير تقاسيم وجهه؛ يتقدمه مسدس صلب المعدن؛ لم أخش طلقته، وإنما الإجهاز به على الصدغ وبقوة؛ انفلاق للعظمة، وتهشيم لهيكل العين؛ هندسة وجهه العريضة، وارتفاع بنيان جسده؛ كفيلان بأن يُثيرا الرعب، وأشار حاثا ومهددا إياي على التقدم توغلا في النفق، وأنا متقهقر إلى الوراء بغَلَبِه؛ إذ سمعت قذفا بمفاتيح بالقرب من قدمي، وكنت قد سمعت تبادلا للكلام، وكانت أصوات ترتفع بجلبة وعاليا؛ نُطقا بكلمات فرنسية منفردة كـ(تراجعْ)، و(اِجْلس)، و(لا تقاوم)، و(إلا قتلتك)، فلم أفهم.

لم يكن ينطق ذلك الشبح العملاق بأي كلمة، وعرفت أنه أوروبي، واكتفى بأن أشار مرة أخرى إليّ أن أتناول المفاتيح وأُعطيها إياه، وفعلت ذلك دون أي حركة منافية أو تباطؤ أو تكاسل؛ رميتها في اتجاهه، فتلقفتها يداه بحركة مُستجيبة، ومُتدربة، وخبيرة كذلك، وأمرني بالإشارة دائما بالاستمرار في التراجع، وأنا أتلمس بقدمي وبيدي الأرض باحثا عن مواطئ سليمة لها، وبيدي لجوانب النفق الخشنة؛ خائفا من وهدة أو مهوى أو انهيار لصخر أو تراب، كان هو يتراجع إلى جهة المدخل، ويبتعد حتى لم أعد أراه، وسمعت صوت فتحه لباب الشاحنة، ودورانَ المحرك، وصوت نفْث الدخان من ماسورة العادم، وإقلاعا سريعا للشاحنة وابتعادها؛ الذي تَعجّله ذلك الكائن الأبكم الأصم؛ ذو العضلات؛ القاسي، وأنا مُدرك بأن مُشادات تحدث في الداخل، وعراك وصدام يقعان، فعدوت إلى الخارج، ونظرت بعيدا باحثا عن علامات الشاحنة، فرأيتها

تسير بأضوائها في الطريق الفرعي؛ الآتي من مدينة (بولنوار)[26]، ويتجه إلى الجنوب، ليعود تَفرُّعُه إلى نفس الطريق، الذي يصل بالآخر الذي يمتد ما بين (وادزم) و(خريبكَة)، وسمعت أصداء خُطوات أحد؛ خارجا من النفق؛ فابتعدت وتواريت خلف الجرف الصخري، فرأيت في الظلام شبحا يحمل مسدسا، وطفق يدور باحثا عني ليقضي علي دون شك؛ ولم يتحر طويلا، ومن رجوعه المضطرب عرفت أنه يريد أن يتعجل ما سيفعله.

إلى حدود تلك الساعة؛ لم أكن قد تذكرت بأن (كَولبير) دسّ شيئا ما ثقيلا وملفوفا بمنديل قطني في جيب بذلتي، وتحسسته، ثم أخرجته؛ فإذا هو مسدس، فتسلحت به على التو، وقد فهمت حيث كانت ومضة لحظة تتالت، وفي ذهني أوامرُ (كَولبير) بالاحتياط في اللقاء به، وقوله بسرية العمل، فانهلعت بما قد يحدث بداخل النفق، فمما وصل إلى أذني ما يشبه تخاصم وتهدّد أو تقاتل، وبعد أن أيقنت أن لا أحد آخر في الخارج يتربص؛ خطوت بوطء خفيف وهادئ إلى الداخل؛ بمسافة خولت لي رؤية نور لا يُضيء إلا ركنا يمتد في الصخر، ويتلاشى أو يخفت في امتدادي النفق، وقد أضاء النور ممرا آخر مُتفرّعا، فسرت فيه، ثم آخر ينعرج فسلكته، فازداد ذلك الضوء، فتأكدت أنه يؤدي إلى مركز هالة النور، وفي تقدمي شاهدت ما انتفض له القلب، ورُوِّعْت به؛ فالسيد (كَولبير) جالس إلى الأرض قَسْرا؛ مُقيد اليدين إلى الخلف؛ مُكمّم الفم، ورجلاه مرسلتان فاشلتان، وبجانبه شخص آخر أمعنت فيه النظر، فكان هو أستاذ الجيولوجيا، ولم أكن عرفته حينذاك؛ وُثّقت يداه هو أيضا بحبل، وعُقد على فمه، ورُبطت رجلاه، وعيونهما تُحدِّقان في اتجاه واحد؛ في كهف مُنهار الصخور والتراب، التقطت حصاة وقذفت بها رأس (كَولبير)، فالتفت، ولم أتلق منه غير عينين جاحظتين، كأنه يريد أن يقول لي بأن آخذ حِذري؛ أثناءها فكرت في الكيفية التي أُحرّرهما بها، وكان ضوء مصباح المناجم -والذي كان قد جلبه (كَولبير) للإضاءة به؛ يتراجع من ركن احتجاز السيد (كَولبير) وأستاذ

[26] هي جماعة تقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة خريبكة؛ على بعد خمس كيلومترات؛ أسست هذه القرية المنجمية من طرف المعمرين الفرنسيين في سنة 1920م، يقدر عدد سكانها بـ 10.469 نسمة حسب إحصاء 2004م.

الجيولوجيا؛ إذ كان أحد يحمل المصباح، ويبتعد به؛ مُهتديا بضوئه في سيره إلى الجانب الآخر من النفق، أو يستوضح به عن أشياء، وكنت أسمع نقاشا حادا بين شخصين، وتأكد لي أن أحدهما أراد مراجعة قِسم[27] الاتفاق، فلا شك، وفي هذه الحالة أن خلافا دب بين الرجلين، بعد أن نجحا في اقتحام النفق، والقضاء على مقاومة (كَولبير)، وشلِّ دفاعه، وبعد أن أيقنا أن مفتاح الشاحنة قد وصل إلى يد ذلك العُتلّ الذي قاد الشاحنة وهي محملة بالصناديق إلى وجهة مجهولة. حجب جسدا الرجلين الضوء، وطال ظِلاّهُما، وانعكس على كامل النفق، وبانحصار الضوء في الجهة الأخرى؛ أظلم المكان، وبانصراف الشخصين إلى التحديق وبفرحة النجاح إلى حد ما في ذلك الشيء؛ أسرعت بهدوء وفككت قيد (كَولبير) وناولته المسدس، فدفع بي إلى خارج المكان، وضغط على الزناد، فدوّى صوت الطلقة، واختل الضوء، لقد سَدَّد في اتجاه المصباح، ودوّى صوت طلقة أخرى فسُمع ارتطام جسد بالأرض، ودوّى صوت طلقة ثالثة، فوطآت هروب لشخص، واندفاع في ظلام الأنفاق مُرّوع وجنوني، لم أعرف من صُوِّبت إليه الرصاصة، وقد خَرّ على الأرض؛ أهو جريح أم مقتول؟

وفجأة أُضيء المكان الدامي، ورأيت السيد (كَولبير) واقفا وبيده المسدس، واتجه إلى الشخص الآخر وحرره من الوُثُق، فنهض هذا مختل التوازن؛ يكاد أن يندحر على الأرض.

نظرت إلى وجهيهما؛ كان الخوف قد جردهما من نبضات حية، وارتباك قد أفقدهما التركيز؛ لقد نجيا بأعجوبة، وكان ما يزال الشعور بالموت يدبّ فيهما.

كان أول ما سألني عنه (كَولبير) هو:

– في أي اتجاه قِيدت الشاحنة؟

لم ينتظر مني أي إجابة، والتفت ونظر في الجثة، ثم سار وامتدت يده إلى محفظة جلدية؛ كانت مربوطة بنطاق سروال الرجل الميت، وفتحها وأخرج منها خريطة تُبيّن خطا أحمر مُنعرِجا؛ يربط بين نقطة انطلاق ونقطة وصول، ولم أكن

[27] جمع قِسمة.

قد تعلمت قراءة الخرائط، وعلمت فيما بعد أن ذلك الخط هو المسار الذي خُطط للشاحنة سلوكُه، وأخرج من أحد جيوبه ثلاث تذكرات السفر بالقطار.

كبركان ينفث الحِمم؛ انفجر السيد (كَولبير) قائلا:

– أعداء أَلِدّاء... ملاعين... صِبية... لن تكون محاولة استحواذهم إلا بلادة...

وجرى كنمر سريع؛ مُستميت؛ عيناه قاتلتان؛ إلى خارج الأنفاق، ثم سمعنا تشغيله للدراجة، وتفجيرا لمحركها، وتسريعا لعجلاتها في تلك المسارب التربة، ثم لم يعد يصل إلى آذاننا غير صوت يبتعد، ثم يعود السكون، ويقشعر البدن لمرأى الجثة، وهي ممددة، ولم يعد صاحبها إلى الحركة، فذلك محض وهم؛ لاحظته في عيني الشخص الذي جلس على الأرض خائر القُوّة، وضرب كفا بكف، ثم قبضت يده بالأخرى، ولم تمل عيناه عن الرجل الميت.

مر وقت؛ لم ينظر أي واحد منا إلى ساعته، ولم نكن ندري ما يتعين علينا فعله.

تساءل الرجل بينه وبين نفسه بصوت مسموع، وهو ينظر في آخر المطاف إلي:

– هل سيعود السيد (كَولبير)؟

أجبته بفتور:

– سيعود... ليتدبّر أمر الجثة.

وطال الوقت، فسِرت بعيدا؛ قاصدا مصطبة صخرية؛ اعتليتها؛ متكئا على حجرة كبيرة، وغلبني النعاس، ولم أفق إلا على صوت السيد (كَولبير)، وعقيرة ديك، ومجاهدة شاحنة لطريق مرتفع ومنعرج؛ تسير ببطء؛ لم يكن صاحبها إلا قرويا؛ يسري بها قبل آذان الفجر.

رفعت إليه نظري فلاحظت أنه مُجهد، وتساءلت حينها: «هل أقدم (كَولبير) على فعل خطِر آخر؟»، ونظرت أبعد منه، فلم أر دراجته النارية، والتي حلت محلها، وفي المرحلة التالية من هذه المغامرة الليلية، والتي ما تزال لغزا بالنسبة إلي؛ سيارته (البوجو 304)، وقصد النفق، وغاب فيه، ومن داخله نادى علي، فاستجبت لأمره؛ فرأيته يُعيد الخريطة التي كان يهتدي بها في مُطاردة ذلك الذي

استولى على الشاحنة؛ إلى المحفظة الجلدية، ويحيط عنقه وكتفه بحاملها، وتتدلى هي أسفل إبطه، وقال:

– لنحمل الجثة إلى صندوق السيارة.

وقد تعاونّا هو وأنا في نقل ذلك الجسد الميت؛ تارة نرفعه من على أرض النفق الوعرة، وتارة أخرى نجره من الطرفين السفليين، ورأسه وخده يتعفران بالتراب؛ حتى لم نعُد نرى في وجهه إلا قناعا من جماد، فهالنا جميعا المآل الأخير لهذا الشخص، وساعد بعضُنا البعض في رفعه إلى السيارة، ثم ركبنا، وأسرع السيد (كَولبير) بنا وبالجثة؛ في تلك الطرق التي خلت؛ في ذلك الوقت الأخير من الليل؛ من أي إنسان أو دواب أو وسائل نقل، ولم يخفف السرعة إلا في المنعطفات، وعندما انحدرت بنا الطريق عند دخول (وادزم)؛ لم يستمر في شارعها الرئيس؛ بل انعطف يمينا وتوقف بالسيارة أمام باب مقبرة (النّصارى)، وأمرني بأن أنزل وأفتحه، فدفعت الدفتين الحديديتين الثقيلتين، وقاد السيارة إلى الداخل، وبالقرب من بيت حارس المقبرة كان راهب مسيحي يقف بلباسه الأسود؛ أحاطت بياقة عنقه سلسلة ذهبية؛ يتدلى منها صليب.

وقد علمت فيما بعد بأن (كَولبير) عرج أولا على هذا الراهب في إقامته المحاذية لكنيسة (وادزم)، وأمره بأن يستعد لدفن الجثة في المقبرة، لأنها لمسيحي، إلا أن الراهب رفض إلا بعد الإدلاء برخصة دفن، وهذا يعني إجراء تحقيق وتحرير سبب الوفاة، فصوب (كَولبير) إلى رأسه فوهة مسدسه مُهدّدا إياه بالقتل؛ إذا لم يقم بما يوجبه دفن ميت على مِلة المسيحيين، وفارقه على أن يكون في انتظاره في المقبرة، وأن يأمر حارس المقبرة المغربي بالمغادرة؛ إلى حين أن يأمره بالعودة، وكان في ركن قصيّ من المقبرة قد أُعدّ قبْر؛ حفره حفّار القبور؛ أُجِر وانصرف، ولم يهتم إلا بما استقر في جيبه من قطع نقدية.

حملنا الجثة من السيارة إلى داخل حوش تحيط به أشجار؛ حيث هُيّئ تابوت من خشب، فمُدّدت فيه، وقام (كَولبير) بوضع قطعة الغطاء الخشبي، وأحكمها إلى الصندوق بالمسامير، وحملنا التابوت، وبعد أن قام الراهب بما يلزم؛ أنزلناه بالحبال في قعر الحفرة، وسُوّيت الأتربة في مستوى سطح الأرض؛ فلا شاهد للقبر، ولا أثر يدل عليه.

ولم تشرق شمس فجر ذلك اليوم حتى ساق (كَولبير) بنا السيارة إلى بيتي؛ وفي هذا المكان بالضبط، وعلى فراش صوفي جلسنا، وأمام أنظارنا فتح (كَولبير) محفظة الرجل المقتول، وأخرج منها الخريطة التي رُسم عليها خط مسلك الشاحنة، وهو يدس بيده مرة أخرى في القِراب الجلدي؛ إذ أخرج ورقة مطوية، هي مجموعة قطع ممزقة يجمعها شريط لاصق، فتبادل (كَولبير) وأستاذ الجيولوجيا نظرات اندهاش، وعلمت فيما بعد أنها بخط الأستاذ نفسه؛ تُبّين تفصيل هيكل عظمي لدينوصور، وكيفية شحن عظامه المتحجرة في صناديق خشبية، فبادر الأستاذ قائلا:

– كيف وقعت في أيدي هؤلاء ومن هم؟

سأله (كَولبير) بغضب:

– ما هي المرة الأخيرة التي كنت تحتفظ فيها بهذه الورقة؟

أجاب الأستاذ مُستصغَرا:

– كنت قد تخلصت منها؛ بتمزيقها ورميها في سلة مهملات كابينة القبطان؛ التي كنا اجتمعنا فيها، وناقشنا شحن هيكل الدينوصور العظمي بحرا.

وتساءل (كَولبير) قائلا:

– كانت هي التي اطّلع بها أولئك على عملية شحن الهيكل، كأنها أفضت إليهم بالسر، وقد حاولوا، وكانت النهاية درامية كما شاهدتما.

أعاد (كَولبير) الخريطة وورقة تجزيء الهيكل إلى المحفظة، والمسدس أيضا الذي قتل به الرجل، وأضاف إليها خريطة مكان الدينوصور، مد بها إلي قائلا:

– ادفنها في قعر مطمورة مهجورة، وحكايتها أيضا، وإني رأيت أن تحتفظ هذه البلاد بمستحاثّها وبجميع هذه الأشياء؛ التي ستظل آثارا مادية لحادثة؛ كان محور الصراع الدامي فيها؛ هو هيكل عظمي مُتحجّر له قيمته؛ كان قد عاش دينوصوره في أحد أزمنة هذه البلاد الجيولوجية، ولو لم أصفّ أحد هؤلاء؛ لكانت تلك العظام الآن في قعر سفينة؛ في طريق البحر؛ إلى أمريكا الجنوبية؛ لتُباع بآلاف الدولارات إلى أحد متاحف أمريكا الشمالية.

لم أفهم بعد جيدا ماذا كان يحدث، وقد قال أستاذ الجيولوجيا أنه سيُحرر الحكاية من بدايتها إلى نهايتها، وأنه احتفظ بعظمة من ذلك الدينوصور، وامتدت يده إلى جيبه، وأخرج تلك العظمة، وقال:

– سأجعلها في صندوق مصنوع من خشب (الأرز الأطلسي)؛ نصفه العلوي مُكعّب مُستطيل؛ وجوهه من زجاج؛ تُظهرها مُسْتحاثّةً يَنْدُر وجودُها.

وتركاني، ولم تكد السيارة أن تبتعد بهما، وتسير في الطريق التّرِب؛ حتى قمت وقصدت إحدى المطامير القديمة؛ التي كان يُخبّئ فيها الأجداد الحبوب، ثم نزلت فيها وحفرت في قرارها حفرة عميقة؛ رميت فيها بالمحفظة، وأعدت عليها التراب، ودككت ذروته بقدمي حتى سُوي، ودخلت إلى بيتي، ولم يغمض لي جفن، كنت أغفو غفوات متقطعة، وصُور حدث الليلة الماضية المريع لا تُفارقني. في الصباح نهضت وركبت دراجتي كالعادة في طريقي إلى (خريبكَة)، واتجهت إلى مستودع أدوات العمل؛ احتذيت زوجي حذاء العمل، ومجرفتي، وسرت مع أفراد فريق التنقيب، وآتانا صوت سلسلة تفجير مواقع جديدة للفوسفاط، ولكن صوتا منها سمعته، له وقع خاص على أذني، ولم يلاحظه الآخرون، ولم يتنبهوا إليه، أتى من بعيد، فأدركت أن (كَولبير) فجر الممر المؤدي إلى ما بقي من عظام الدينوصور. والذي لا يعلمه غيرُنا؛ أنا وهو؛ هو ذلك البئر المحفور قديما، كان يَسْتَسْقي منه من كان يسكن بتلك الأرض؛ قبل الشروع في الحفر عن الفوسفاط، الذي يمكن أن يُهبط فيه، وعند مستوى من عمقه فتحة تُؤدي إلى مدخل ممر أُفقي؛ يُفضي إلى النفق.

توقف الشيخ عن الحكي، وطفق يستعلم مما ارتسم من علامات أثر ما سَرَد على وجهي نادر وعبد الرحمن. سأله عبد الرحمن قائلا:

– إن أهم شخصية في هذه القصة الدرامية طبعا هي (كَولبير)، هل التقيت به بعد ذلك؟

أجاب الشيخ بأسف:

– لم يعد يلتقي بي، وأنا فهمت ما علي فعله؛ هو ألا أحاول الاجتماع به. بعد سنة تقصّيت عنه الأخبار، فقيل لي بأنه تخلى عن عمله، وسافر إلى خارج المغرب؛ لا ليعود إلى وطنه، وإنما ليكون ضمن فريق البحث عن خام الحديد في

(موريطانيا) واستغلاله، والتفكير في وسائل تمويله، وقيل لي بعد ذلك وبعد عدة سنوات؛ أنه تقاعد وعاد إلى المغرب، وسكن بشقة بإحدى عمارات حي (المحيط) بـ(الرباط)؛ تُطلّ على البحر، وقيل لي أنه صار شخصية غريبة الأطوار؛ مهووس بالنظر بالمنظار المكبر إلى عُرض مياه البحر، وهو جالس في الشرفة؛ إلى السفن العابرة للمحيط؛ سواء تلك المتجهة إلى الشمال؛ إلى بلدان أوروبا، أو تلك التي تُبحر إلى الجنوب؛ إلى جزر الكناري، ومن هذه إلى بلدان أمريكا الجنوبية... إني أعرف هَمّ (كَولبير) جيدا، فهو كان يحدث نفسه؛ بأنه هو الذي اكتشف هيكل الدينوصور، ولا يريد أن يقع في يد من كان، ويدّعي ما لم يكن له معرفة ولا علِم به، ولا جَدّ في العثور عليه، وما إذا كانت إحدى تلك السفن؛ هي التي كانت ستشحن صناديق عظام الدينوصور، وقد يعود بها من كان في زُمرة أولئك الذين فشلوا، ليحاول لعله ينجح، وقد تجسس، فعرف أين أُخفيت صناديق الشاحنة، وخَطّط ليُعيد فعل السابقين في النبش عن العظام التي ما تزال في صُخور وتُراب النفق، وقد عاش (كَولبير) حتى تقدم به السن، فأُوِدع في بيت للمتقاعدين، وفي سنة 1969م أتاني أحد بنبأ المصاب، لقد توفي السيد (كَولبير)، ودُفن بمقبرة (Pax)[28]. لم أزره قط.

قال عبد الرحمن:

– هناك شيء آخر أريد أن أسأل عنه؛ هل من وسيلة استقلها أولئك الرجال المغيرين إلى مكان وجود مستحاثة الدينوصور.

أجاب الشيخ:

– ذكرتني؛ إن ثلاث تذاكر، والمؤرخة بيوم سابق؛ دليل على أنهم استقلوا القطار إلى (وادزم)، وقضوا ليلتهم في مكان ما بالمدينة، ثم تعقّبونا إلى المكان.

سأله نادر:

– والمحفظة الجلدية؛ بعد هذه المدة الطويلة؟

قال الشيخ:

– إنها محفوظة، وإني أدْرَى بأرضي؛ هَلُمّوا جميعا لإخراجها من المطمورة.

[28] مقبرة المسيحيين بعاصمة المغرب (الرباط).

ونهضوا، وتقدموا الشيخ يمشي الهوينى، وطال المسير، حتى توقف، وأمر حفيده بإزالة التراب، فظهرت قطع خشبية، فأمره مرة أخرى بإزالتها، فظهرت فتحة المطمورة، فأمره بالنزول والحفر عن المحفظة، وجميعهم عيون ترى وآذان تسمع، وطلع الحفيد عليهم بها، قال له جده:

– اِفتح؛ لقد استأمنني عليها، فهي وديعة، ونحن من أصلاب من يحفظ الودائع.

وأخرج منها الحفيد جميع ما ذكره الشيخ من قبل، دون أن يُفقد أيّ من محتوياتها. ظللنا نقلب أنظارنا فيها، وخاصة في مسدس السيد (كَولبير).

مد الشيخ يده بخريطة إلى نادر مُخاطِبا إياه:

– هذه هي الخريطة التي تُبين المكان الذي ما تزال بقية عظام الدينوصور مطمورة فيه، والممر الذي يؤدي إليه عن طريق البئر، فلا أقول ما عليك فعله، فتعاون مع أستاذك على استخراجه، وامض، ولا تيأس، ولا تهن عزيمتك؛ في البحث عن الأخرى التي حُمّلت بها الشاحنة، لا تفقد الأمل؛ فتقول أنها اختفت وإلى الأبد... أين هي؟ لا أعلم.

ساعة النطق بالعظام المتحجرة؛ تعلقت بها نفس نادر، وأثارته قِصّتُها، وتشابكت في ذهنه خيوطُها، وتعدّدت شخصياتُها، وتحمّس للقيام بعمل يُثمِر شيئا واحدا فقط؛ هو لَمُّ شَمْل عظام الدينوصور، بنقل هذه التي ما تزال في بيئتها التي تحجرت فيها، وتلك التي هي في مكان ما؛ إلى مختبر كلية العلوم؛ ودراستها، وإعادة بناء الهيكل العظمي في متحف الكائنات الطبيعية؛ المحنطة منها والمتحجرة، وكان أن فارق نادر وعبد الرحمن الشيخ وحفيدَه، وهما يُطيلان النظر في وجهه بإكبار، وركبا السيارة للعودة.

سأل عبد الرحمن نادر قائلا:

– ماذا ستعمل الآن بعد أن سمعت بخبر وجود مستحاثة دينوصور؟

أجاب نادر دون تردد:

– سنذهب لنُلْقي نظرة على محيط المكان الذي ما تزال فيه العظام ومحيطِه؛ حاملا غربالي، وأقوم بتجربة فصل التراب عما يمكن أن يُعْثَر عليه من أسنان القرش، أو هياكل رملية وطينية لساق نبتة بحري اندثر، وأتعرف على طبقات

الصخور؛ لأنقل تقريرا شفويا؛ يصف ذلك كله؛ إلى أستاذ المستحاثات؛ حتى يأخذ فكرة تساعده على التفكير فيما ينبغي القيام به، والتسلح بأدوات إزالة الصخور، وذري التراب، ومواد صيانة العظام المتحجرة من التكسُّر والتلف.

بعد أن تناولا غَداءهما في اليوم التالي، وبعد آذان العصر؛ أخذا طريقهما؛ مُتتبِّعيْن خطوط الممرات المرسومة على الخريطة؛ إلى أن وجد نفسيهما في أرض مستوية؛ تُحيط بها أجراف عالية، ولم يتقدما للبحث عن المكان، لأن ذلك أُرجئ، وقام نادر بما يتعين عليه؛ وهو طالب العلوم الطبيعية؛ من تسجيل ما وجد، وغرْبل التّراب، فأمسكت عيون الغربال حصى وحجرا دقيقا وأسنان قرش مُتضرّرة، وتفحص بالعين المجردة، وبمكبرة طبقات الصخور وذرات الصخر. بعد هذا رجعا، وفي الغد وفي محطة المسافرين؛ كان عبد الرحمن يشد على يد نادر بحرارة، ويسأله كم سيتطلب الاستعداد للرجوع إلى نقل مُستحاثة الدينوصور، فأجاب نادر وهو يتجه إلى الحافلة، وكان هدير محركها يستحثه:

– أقدر المدة في سبعة أيام؛ مقدار منها يتطلبه سعي الأستاذ إلى الحصول على الترخيص من الجهات المختصة.

ورفع عبد الرحمن صوته إلى أُذن نادر؛ قائلا:

– إلى اللقاء؛ ستجدني في انتظارك.

ورفعا إلى بعضهما البعض يديهما؛ مُلوّحَيْن بهما؛ تعبيرا على مودة صحبة جمعتهما.

*****

أُسْتُقْبِل نادر من طرف أفراد أسرته الصغيرة؛ والده ووالدته وأنور الذي يصغُره وأخته الأصغر، وبكلمات لا تُعبّر إلا بأنه طالب يستزيد من العلوم، ويرحل عبر المسافات الجغرافية؛ ليكتشف ما يملأ هذه الأرض من حيوانات وحشرات ونباتات، ويقرأ وجه القارة المتضرّس، وما تخلف عن الأزمنة الجيولوجية، وعن طقوس الأجواء والمناخات السالفة، وبعودته سالما، وقد حدّقوا النظر فيه، فلاحظوا أنه غدا بمظهر تلك المنطقة القارية، والبعيدة عن البحر؛ برحلته إليها؛ في أواخر فصل الصيف، وما يزال الطقس حارا، ويطول اليوم بدرجة تشميس

عالية، فمالت سُحْنته إلى لون أقرب إلى سُمرة خفيفة، واشتد ساعداه شيئا ما، وسبروا بأحاسيسهم أعماقه، فوجدوا أن تطورا حصل في اهتماماته، وقد غذَّتْه تلك المنطقة باكتشافات جديدة، وأحْمت دماءَ عروقه، فكان نشطا كثيرا، وبعد جلسة سريعة معهم مشى رويدا إلى داخل غرفته، وأجال ببصره في أرجائها بحنان؛ فيما أُثِّثت به، وفيما احتوت عليه؛ في ركن منها سريره ومكتبه، وفي الركن الآخر متحف المخلوقات الطبيعية، وألقى نظرة على سفينة (البيكَل)، وتمنى أن يقوم في إحدى المرات القادمة برحلة؛ بمركب شراعي؛ إلى جزر (الآصور) النائية، أو إلى جزر (الخالدات)، أو إلى جزر (الرأس الأخضر)؛ ليجلب منها عينات من نباتات، وحيوانات، وحشرات، وكائنات بحرية؛ ليُثري بها دائما متحفه ذاك، وهو قد اكتسب بعض الخبرة في السعي وراءها؛ كما حصل، وأنه حُكِي على مسامعه وجود أُحفورة دينوصور (وادزم)، وأدرك وهو في رحلته أن هناك سباقا محموما؛ إلى وضع اليد ولو بطرق غير مشروعة على تلك المستحاثات؛ لبيعها بأموال يغنى بها أولئك.

وضع كل ما أتى به من هنالك؛ من عيِّنات، ووضع لوحتي أسنان القرش؛ في جانب من المتحف، فزادته غنى وثراء، وتكفي نظرات تأمل، وخلال بعض الوقت إلى جميع ذلك، لمعرفة إلى أي حد تتنوع وتتعدد العناصر الطبيعية المكونة للكوكب الأزرق، فسعد أكثر مما قبل؛ سعادة فائز في الحياة، وشعر بأنه يُراكِم التجارب، ويغدو خبيرا بمجال المستحاثات، وقد يُسأل عن ذلك، فلا يتعثر في الإجابة.

يومان يفصلانه عن العودة إلى الفصل الدراسي؛ بعد عطلة الصيف السنوية، فاستعد وتأهّب، وأعاد فهرسة كتبه العلمية، وخصص كل كراسة لكل مادة، ونُظِّفت ثيابُه، ونُشرت على الحبال، فجففتها حرارة أشعة الشمس الساطعة، واختزنت هي تلك الحرارة، وسيلبسُها لينعم بطياتها، وبخفتها، وإنها لتزيده بهجة على ابتهاجه بحجرته.

لم يتحدث إلى أفراد عائلته بخبر الدينوصور؛ النائمة عِظامه النَّومة الأبدية بين طبقات الصخور، ولن يَقْصُص حكايتَه على أي أحد؛ حتى يحين الوقت، وتأتي المناسبة التي تستدعي ذلك .

كان يوم بداية السنة الدراسية له طعم خاص، فشارع (ابن بطوطة) الذي يؤدي إلى كلية الآداب وكلية العلوم؛ عامر بجماعات من الطلبة؛ تتقدم في نفس الاتجاه، والاستبشار والفرح هما اللذان تمتلئ بهما نفوس طلاب العلم، وسار نادر في الممر المؤدي إلى الحائط الذي تُدير إعلاناته وبرامجه إدارةُ الكلية؛ ليطلع على برنامج الدراسة الأسبوعي، في تلك الأثناء سمع صوتا أُنثويا يناديه بِـ(نادر)، لا تجهله أذنه، فالتفت؛ فإذا هي صفاء؛ زميلته في الدراسة. تبادلا التحية، وسألته:

– دائما هذه عادتك أيها المغامر في الأدغال، وفي المناطق البعيدة، ولم أخطء في تسميتك بِـ(نادر)، وقد غيّبتك عنا هوايتُك، التي قد تصرفك حتى عن نفسك... أين كنت بالله عليك في الأسبوعين الأخيرين من العطلة؟

أجاب نادر مُبتسِما:

– وقد أجبْتِ عن سؤالك الأخير في مُقدِّمة كلامِك... كنتُ في سفر إلى مكان ما على سطح الكرة الأرضية؛ ستعرفين فيما بعد؛ ما لقيت من أحداث جسام، وما استُثْنِي من أشياء.

سألها وهما يخطوان في اتجاه قاعات المحاضرات:

– هل ستكونين معي في نفس المجموعة؟

أجابت بحماس:

– سيجمعوننا في المحاضرات كالعادة، أما في الدروس التوجيهية والتطبيقية، فإنك في مجموعتك، وأنا في مجموعتي.

وأخذا مكانهما جنبا إلى جنب في المدرج، وجاء الأستاذ، فسكت الجميع عن اللغو، وساد صمت، ولم يكن يُسمع إلا صوت الأستاذ، ونقرات القلم على السبورة، وخَشْخشَة كتابة الشرح السريعة.

بعد انتهاء الدرس؛ اِنْفلت نادر من بين اكتظاظ الطلبة، وأسرع المشي؛ مُتلهِّفا أكثر من أي وقت آخر؛ إلى أن يرمي بنفسه في خِضمّ علم المستحاثات، وقد زاد علمُه بوجود دينوصور من حماسته وحيويته، فأسرع خُطُواتِه مُتجها إلى قسم دراسة المستحاثات، وكان من قبل لا يقصده إلا إذا كان ضمن مجموعة من الطلبة؛ يُبرمج لهم أستاذ حصة مُعاينة –وعن كثب– عينات من الأحافير، ولأول مرة ركز نظره على اللوحة النحاسية؛ محفور عليها: قسم دراسة المستحاثات،

وصار يمعن النظر في رسومات لدينوصورات، وهي في بيئتها الثرّة بالغابات، وبمياه الأنهار والبحيرات والمستنقعات، وصور فوتوغرافية لهياكلها العظمية؛ بأسمائها العلمية وبمواطنها الأصلية، وأصبح في نفس الوقت حَافظا لكل ذلك، ولم يمِل عنها إلا بعد أن أتى عليها قراءة، وكان قد شاهد الأستاذ الباحث والمشرف على القسم؛ قد أنهى درسه وخف إلى الداخل، وردّ الباب، ونظر نادر إلى الباب الخشبي المُلمَّع، ودق عليه دقا خفيفا، فسمع صوتا بفعل الأمر يأتي من الداخل:

– أُدخُل.

فأدار نادر مِقْبض القفل، ودفع الباب، ثم دلف إلى الداخل، فرأى القسم حُجرةً واسعة؛حيطانُها لا تتسع للرسومات التوضيحية، والصور الفوتوغرافية الكبيرة، ولا أرجاءها لِعيّنات من نباتات وحشرات وحيوانات وهياكل عظمية متحجرة، وفي جانب منها طاولة مستطيلة من خشب سميك وصَلب؛ وُضعت عليها ميكروسكوبات مختلفة الأحجام، وخزانة كتب مملوءة عن آخرها، ولا شيء آخر فيها؛ من أعلى رفٍّ فيها؛ إلى أدنى تلك الرفوف غير الكتب، والمجلات الأكاديمية الدورية، وموسوعات علمية؛ لا تختص بشيء آخر غير الدينوصورات، وحيوان (الترايلوبيت)، والسلاحف البحرية العملاقة، والطيور الأسطورية، وأيضا إنسان (الهوموسبيانس)، وإنسان (بيكين)، وإنسان (تانزانيا)، وإنسان (نياديرتال)، وأنواع الإنسان السابقة عنه[29].

كان الأستاذ جالسا على كُرسيّ يدور على محور ركائز أربع، ووجهه إلى طاولة الفحص، ولما شَعَر بدخول نادر؛ أدار الكرسي، فأُدِير جِذْعُه، ونظر إليه مُرحِّبا، وقد عرف مما بدا عليه من علامات؛ أن قدومَه ليس كما هي عادة الطلبة، وفي وقت بداية السنة الدراسية ذاك، وأن في نظرات عينيه شعورا استثنائيا، ورأى نادر في الأستاذ انهماكا وجدية ومثابرة، ويتقد وجهه بالفطنة والذكاء والخبرة، واسْتشفّ من سُحنتِه ويديه وساعديه؛ أنه طَوَّف بالآفاق من أجل الكائنات المتحجرة، فزار الكهوف والأودية وقيعان البحيرات؛ المتبقية من المناخات

[29] هذه أنواع من الإنسان المكتشفة، ويميز بعضها عن يعض شكل الجماجم التي عثر عليها علماء الإنسان القديم، وحملت أسماء الأماكن التي وُجدت فيها.

القديمة، وأنه قرأ حتى حجرة صَوان تخلفت عن لسان جليدي؛ لم يبق له وجود؛ إلا آثار حزوز قطع الثلج الصلبة لجوانب واديه؛ تدل على نشاط بائد.

وحث الأُستاذُ نادر على التكلم؛ بحركة من رأسه، وبإشارة مُحفّزة من عينيه، فقال نادر بأدب واحترام:

– أنا أحد طلبة علوم الحياة، ولي شغف بالأحياء، وخصوصا المُنْقرِض منها والمُسْتحثّ، وقد قمت برحلة إلى منطقة ما تزال في طبقات صخورها الرسوبية؛ بقايا الحيوانات البحرية، كأسنان القرش، واستمعت لقصة واقعية؛ سردها رجل مُسن؛ عاش جزءا منها؛ كان الصراع فيها داميا حول هيكل دينوصور؛ عظام منه يُحتمل أن تكون في مكان مجهول، والأخرى ما تزال في مكانها.

ما إن سمع الأستاذ ما فاه به نادر؛ حتى قام ونظر في وجهه، وتبين من خلال ملامحه مدى الصحة في كلامه. قال:

– قلت أيها الطالب... دينوصور... هل أنت صادق فيما قلت... دينوصور... في أي جهة؟

أجاب نادر بسرعة:

– إلى الجنوب الشرقي من (الرباط)؛ على بعد مائة وثمانين كيلومترا تقريبا؛ في المنطقة التي يُستخرج منها الفوسفاط؛ ما بين مدينتي (خريبكَة) و(وادزم)، وبالضبط إلى الجنوب الغربي من مدينة قليلة السكان والعمران اسمها (بولنوار)[30].

اتجه الأستاذ إلى خزانة خشبية، وأخرج منها خريطة طبغرافية مَلمُومة؛ بسطها، وتناول قلم رصاص؛ أعطاه إلى نادر؛ الذي لم يتأخر ودقق النظر في الخريطة، ثم أحاط المكان بخط دائري، وقال:

– هنا جرت أول محاولة من نوعها في الاستيلاء، وبالسلاح على عظام دينوصور، وأُحبطت، والقصة طويلة، ما تزال بعض خيوطها وعناصر حكيها ضائعة، وقد استجرت بك، وأنت أستاذُنا؛ أكثر منا اهتماما بالموضوع، وعدت من هناك بسرعة، فالتعجيل بالحفر عن الدينوصور مُتطلّب؛ حتى لا يعلم بوجوده تجار ومهربو المستحاثات.

[30] سبق التعريف بها في الصفحة 105.

لم يتحرك عضو في الأستاذ؛ لا رمشة من عينيه، أو حركة من يديه، أو إيماءة من رأسه، فما تزال الخيوط متشابكة أمامه، والذي زاد من حيرته واضطرابه؛ هو أنه رأى نادر يفتح محفظته، ويُخرج منها وبحذر وبتأن حافظتين بلاستيكيتين، ومد بهما يده إلى الأستاذ؛ الذي حملهما ووضعهما على الطاولة، وأخرج منهما ورقتين باليتين، متهرئتي الجوانب والأطراف، إحداهما بها رسم يُجزّيء الهيكل، والأخرى عليها الممرات والمنافذ المؤدية إلى المُسْتحاثّة، وأُشير إلى كل جزء من الرسمين بكلمات توضيحية، ومُبيّنة، وبخط واضح وأنيق، وفحصها بالمكبرة فوجدها بمِداد عهد فائت، ولن يكون من رسمها إلا أحدا له قدر من ثقافة الفصول الدراسية، ثم نظر مرة أخرى إلى نادر، والتفت يمينا وشمالا، وسار إلى دُرج خزانة، وأخرج منه ورقة كبيرة بها رسومات دينوصورات، ولما لم يجد أنها تفِي بالغرض أعادها، وامتدت يدُه وبسرعة إلى رفٍّ، وقبضت أصابعه على مجلد ضخم؛ فتحه، وطفق يُقلّب صفحاته، ثم نقر بسبابته على صورة هيكل دينوصور؛ استأثرت بأكبر مساحة من الصفحة، وقال بابتهاج:

– الهيكل مرسوم بدقة على تلك الورقة، ولن يكون إلا من نفس فصيلة هذا، وهو من نوع اسمه العلمي: (Chenanisaurus)[31]، أو من عائلة (Albelisaurus).

وشرع يقرأ ما كُتِب عن دينوصور المجلد، ثم قال:

– قلتَ أنه في نفق ذلك الدينوصور، ولكن ما كُتب هنا، وهو حصيلة أبحاث مُستجدّة؛ أنه يُعثر عليه في الغالب في الطبقات السطحية.

والتفت إلى نادر الذي تفاجأ بملاحظة الأستاذ، فارتبك ذهنه ولم ينطق بأي كلمة، وسمع الأستاذ يقول:

– سنَرى.

ورجع إلى رسم مكان الدينوصور، ونظر إلى السهم الذي يشير إلى الشمال الجغرافي، ونشر خريطة تبين طُبّغرافية وجيولوجية المنطقة، وطلب من نادر أن

[31] أكتشف هذا النوع من الدينوصورات بحوض (اولاد عدون)؛ بمنطقة (خريبكة)، وهو دينوصور مفترس؛ كان يصل طوله ما بين سبعة وثمانية أمتار، ومُستحاثته المكتشفة تلك هي الوحيدة الممثلة لهذا النوع من الدينوصورات في العالم.

يُسقط مقطع خطوط تساوي الارتفاعات؛ على الورق المليمتري، واختار له نقطتي ارتفاع مُتباعِدتين أكثر، وبعد أن أنهى نادر رسم ذلك، درس الأُستاذ مورفولوجية السطح، وأنواع صخور طبقات المقطع الرسوبية، فكان -أي المقطع- يُبّين مُنخفضا؛ تحيط به أجراف، وعندما أراد تحديد مكان الدينوصور على الخريطة؛ نظر ثانية إلى رسم الطرق المؤدية إلى الدينوصور؛ وحمله ونسخ الورقة العتيقة بآلة النسخ بحجم صغير جدا، وقصّ جوانبها، ولم يُبق غير شكل الدينوصور، وألصقه على المكان المعين على الخريطة، ثم عَلَّق هذه على سبورة الإعلانات، ونقر بطرف سُلامى[32] سبابته عليه قائلا بفوز:

- هنا يوجد دينوصور... ستنال ثمرة مجهودك يا... ما اسمك؟

أجاب نادر مُبتسما:

- أُسمّى بـِ (نادر).

قال الأستاذ بمرح:

- آه... نادر في ميولاتك، واهتماماتك، وسفرك في الأدغال، والعيش في هذه سُنّة دأب عليها علماء الأحياء؛ هناك من أمضى أكثر من ثلاثين سنة وهو ماض بين جذوع الأشجار العملاقة، وفروع النباتات الملتفّة ببعضها البعض، وفي الغابات المطيرة، والتي هي مرتع للحشرات الناقلة للأمراض والمميتة، وفي الصحاري، وفي مياه المستنقعات؛ في دراسة الكائنات الحية، والبحث عن آثار المناخات القديمة، ولم يَطْرُق أبدا ساحل محيط.

لم يكن ما قاله الأستاذ جديدا أو غريبا على مسامع نادر، فهو قد قرأ عن ذلك العَالِم الذي صرف من عُمره ثلاثة عقود؛ في غابة الأمازون؛ باحثا عن أفاعي النباتات الكثيفة النمو؛ دارِساً لسلوكها ونظام غذائها وتناسلها، ويكتب عنها، ولا يُفارِقُ بيئتها الكثيرة التنوع، والغنية بعناصر الحياة، كالماء والخضرة الدائمة، ويبعث بما لاحظ واستنتج وحرر؛ ليُطبع كُتبا في الغرب، وتنشره دور النشر؛ بِرِبْح لا علم لذلك الباحث به، فيُطالَع للمعرفة ولا يُجهل، وعالِم آخر، وهذا من جيل سابق، له تقليد أكاديمي أصيلي؛ وجد في الصحراء الكبرى

[32] عظام أصابع اليد والقدم.

كائنات حيوانية ونباتية؛ مطيته الجمل العربي؛ سفينة الصحراء، وظل حتى آخر سنوات عقد عمره الأخير؛ يتنقل في الأراضي الجذبة، وبين الكثبان الرملية المتحركة، وفي الأودية الجافة؛ باحثا عن النباتات والحشرات والزواحف، التي تكيَّفت مع طقس الصحراء الحار والجاف، ففي أشد مناطق العالم حرارة وقحولة؛ حياة تتطلب معرفة سر بقائها[33].

وقد حال الدينوصور بين الأستاذ وبين أي بحث أو تهييء درس؛ كان سيقوم به في ذلك الأسبوع أو الأسابيع القادمة، وكان وهو يتحدث مع نادر؛ يُفكِّر فيما يمهد إلى إعمال الأدوات في التربة، وذري هذه الأخيرة بالفرشاة، وتوجيه السهم المتجه إلى الشمال الجغرافي بالبوصلة؛ لضبط اتجاه ما سيصادفه في المكان، ووضع العظام؛ عظمة عظمة في صناديق؛ لتيسير نقلها على ظهر إحدى المركبات الميكانيكية، فرأى أن يستطلع أولا المكان؛ ليعرف طبيعته، وما هي الوسائل المواتية والخاصة؛ للاستكشاف والإخضاع والإنجاح، وهذا يتوجب الأناة والزحف بخطوات ثابتة؛ قال:

– بعد ثلاثة أيام سنكون هناك؛ بعد تقديم طلب في الموضوع إلى الجهات المسؤولة؛ لمنح ترخيص بالحفر عن الدينوصور.

إلى حد الآن كان نادر أكثر معرفة من الأستاذ بطبيعة المكان، لأنه كان قد ذهب إليه مع عبد الرحمن، وهذا وُلد وكبُر في المنطقة، ووصل إلى كل ناحية فيها، وخبَرها، كما أنه سمع عن الشيخ؛ الذي هو أيضا من رحِمها، وقد فتح عينيه على نور شمسها، وألهبت جسده حرارة جوِّها، وكدح في باطن أرضها؛ ما حكاه، وأفشى إليه بِسر البئر السري، فقال:

– إن المدخل إلى النفق الذي يوجد فيه الدينوصور؛ قد فُجّر بالديناميت، ويحتاج إلى إزالة ما سده من حجارة وتراب وصخور، والذي يؤدي إليه، وقبل ذلك ولتحديد الجانب من النفق الذي يُقصد إليه؛ هو بئر.

تفاجأ الأستاذ وسأل:

– وكيف يؤدي البئر إلى النفق؟

---

[33] هو عالم الطبيعيات، والبيولوجيا، والمُستكشف، والمتخصص في الصحراء؛ الفرنسي (ثيودور مونود؛ 1902م- 2000م؛ Théodore Monod).

أجاب نادر:

– البئر عمودي طبعا، وفي قعره فتحة لممر أفقي.

قال الأستاذ باطمئنان:

– فالوصول إلى النفق إذن فيه بعض اليُسر، ويبقى البئر فيه بعض العُسر، فالنزول فيه والصعود منه يتطلب حبالا متينة.

قال نادر بافتخار:

– حتى هذا يسير، وقد تعرفت هناك على حفار آبار؛ له خبرة بذلك، وعلى شاب قوي البنية، وشجاع وذكي، ويجد كم من وسيلة للوصول إلى الهدف.

قال الأستاذ وقد زاده ما أخبره به نادر من شجاعته:

– أنت طالب فريد في اجتهادك ومواظبتك وتحصيلك؛ لم يسبق لي أن صادفت مثلك؛ ذلك أنك كونت فريقا؛ كل عضو له اختصاص، فيتكامل عملهم.

قال نادر:

– ليس بالقدر نفسه، فما يوجد ممن يمدون إليك بيد المساعدة؛ أقل ممن يُعرقلون حسدا، أو يخشون المنافسة، وإن الطريق إلى هناك ليس دائما ممهدا كما قد نتصور، فقد يعترض طريقك من لا يريد البتة أن تنفرد باكتشافك؛ لأنه وبحسبه تُهدّد مصدر كسبه.

قال الأستاذ وقد فهم:

– سنعمل بتخطيط خبراء، ونوثق تسجيلا وتصويرا ما سنجده في بحثنا، وسنذود عن ذلك بكل الوسائل، ونحن في مخيمنا.

وبرح نادر قسم المستحاثات؛ تاركا الأستاذ يستعد للسفر، ويحضِّر له، ولا يغيب عن نادر الآن أن الأستاذ محط هواجس، كما كان حاله هو قبل أن يذهب إلى (وادزم)؛ في أول رحلة إليها، والذي استفاد منها هو ألا يُؤخِّر مثل هذه الرحلات الميدانية؛ إذا أحب أن يكون طالب علم الأحياء، وقويا وجَلْدا وذي تجربة، وقد اتفقا أن يكون موعد السفر قبل بزوغ الشمس، وفي وقت يكون فيه الأساتذة والطلبة؛ مُلتزمين بالحصص وبالتوقيت الرسمي؛ فلا فضول ولا أسئلة لفّ، ولا استخبار، ولا عيون كاشفة، ولا تضايُق بذلك جميعه.

وقد اتجه الأستاذ في فجر ذلك اليوم بسيارته؛ إلى الشارع الذي يوازيه صف من بيوت بينها منزل نادر، ولم يكن غيرهما فيه في ذلك الوقت. سيستقلان السيارة، وسيُغادران بها (الرباط)، وفي نفس الطريق الذي سلكتها الحافلة التي التقى فيها نادر بتاجر الحليّ والبائع للمسكوكات، فكان ما دار بينهما من بيع وشراء ذكرى، والطريق نفسه يمتد بالانعراجات والانحدارات والارتفاعات.

فما كان من نادر إلا أن أسرع بعد وصولهما إلى (وادزم)؛ إلى الالتقاء بعبد الرحمن الذي وجده مُنهمكا في عمله بالمرآب، وعرّفه بالأستاذ، وبعد أن استضافهما للاستراحة من السفر، وتناول ما أذهب عنهما جوع الطريق؛ ذهبوا جميعا إلى بيت حفار الآبار بعد عصر ذلك اليوم، وألفوه في باحة الدار الواسعة؛ بجانب البئر يغسل وجهه وأطرافه مما علق بها من طين الآبار، فرحب بهم ودعاهم إلى الدخول إلى القسم المفروش بألحفة مُعدّة للضُّيوف من حجرته، وأمضوا وقتا طويلا، وهم يشربون الشاي، ويكّسرون بأسنانهم حبات اللوز والمكسّرات والفول السوداني، ويُفتّتونها ليمضغوها، وفي تحديد وقت للذهاب إلى موقع الدينوصور، ومناقشة كيفية النزول في البئر، وقد قال حفار الآبار:

– إن عمق الآبار في تلك المنطقة؛ قد يتراوح ما بين عشرين، وأكثر من أربعين مترا.

ووزع نظراته في الوجوه الثلاثة، وخاصة في الأستاذ ونادر، وهو يحرك رأسه تَرْجمةً لما يريد، وهو أن النزول في البئر يستلزم تقنية، وبمساعدة من هو ذو خبرة ودُربة؛ يتقدمهم حتى لا يتعرضون إلى خطر السقوط، وقال:

– ويستوجب منا أولا أن نعرف ما إذا كان البئر قديما، أو قريب العهد بالحفر.

قال الأستاذ مُستعجِلا الحفار في الإجابة:

– فيما يُفيدنا ذلك؟

أجاب حفار الآبار وقد علت وجهه آيات ثقة، ومعرفة دون تكلف أو ادعاء:

– إذا كان قديما، فهذا يعني أنه حُفر قبل استعمال البَكَرة، وطريقة صعود الحفار وهبوطه؛ هي حَفْر حُفر تتالى في جانبي البئر، نُسميها محليا

بـ(الرَّتَّبَات)[34]؛ يضع فيها قدميه، ولذلك نجد مثل هذا البئر يتراوح طول قطره ما بين سِتّين وثمانين سنتيمترا، والبئر الحديث يصل قطره إلى متر واحد، ويُحفر باستعمال البكرة، بحيث يتعاون إثنان في تدوير البكرة، فيُلفّ عليها الحبل، الذي يرفع الحفار، أو يُنزل به، وسواء أَكان البئر قديما، أو حديث الحفر، فإن البكرة هي الأنجع، وسنرى مدى نجاحنا بها.

أعقبت كلامَ الحفّار فترة سكوت؛ إذ لم يبق إلا تحديد الوقت المناسب. قال عبد الرحمن مُنبِّها:

– ولتعلموا؛ إذا ما ذهبنا إلى هناك نهارا؛ ستُضايقُنا نظرات الفضوليين، وسيُحيط بنا القاطنون بتلك الجهة؛ ليعرفوا ما نفعل.

قال نادر ثائرا شيئا ما:

– بل أسوأ من هذا؛ الذين يسترزقون ببيع المستحاثات.

قال الأستاذ بحزم:

– ذلك ما كنت أريد قوله، فباطّلاعنا الأول على المكان؛ ارتأيت أن يكون ليلا، لأننا لا ندري ما سيُصادفنا، وإلى أي حد سننجح في آستخراج ما تبقّى من الدينوصور.

بعد أن مر وقت طويل، وهم ما يزالون جالسين، ويتبادلون الأحاديث، نظر عبد الرحمن إلى ساعته، فوجد العقربين يُشيران إلى الساعة الحادية عشرة، فتحرك في مكانه، ونهض مُستندا على إحدى ركبتيه، وقال:

– إنها ساعة الانطلاق.

ركبوا الشاحنة، واتجهوا إلى مخزن مُعدات حفر الآبار، وكان هذا في إحدى حُجرات بيت غير مسكون؛ ترجل الحفار وعبد الرحمن، وغابا مدة خمس دقائق، ثم ظهرا وهما يحملان البكرة ذات الطول الأسطواني والحبال، ثم قصدا البيت مرة ثانية، ليحملا دعامات طويلة وسميكة؛ من خشب قوي، ومسامير ومطرقة ومعولين ومجرفتين، وتابعوا سيرهم الليلي؛ مُتتبِّعِين خط مسار؛ حُدِّد على الخريطة الطبغرافية، التي كان يمسك بها الأستاذ، إلى أن تركوا طريق الأسْفَلت، وانحرفوا

[34] اسم محلي لكيفية الهبوط والصعود في البئر.

إلى طريق الحقول، ثم إلى آخر قليلا ما يسلكه الناس، إلى أن أوقف عبد الرحمن بهم الشاحنة، وكان أول النازلين هو الحفار، الذي وجه نور المصباح اليدوي إلى سور لا يمتد بعيدا؛ تهاوت حجارة أجزاء منه، وبجانبه البئر، والشيء الآخر الذي كان بيده الأخرى، ولم ينسه طبعا هو العمود الحديدي؛ ذو الشفرتين المسنونتين والمشحوذتين، الذي يفتك به الأفاعي والعقارب، وكلّ ذي سم قاتل.

كانت نباتات متوسطة الطول ويابسة؛ تُحِيط بالبئر وتكاد تُخْفيه عن الأنظار، رجع الحفار إلى صندوق الشاحنة وأخرج منه مِنجلا؛ جزّ به تلك النباتات، فظهرت حجارة هي من نوع الصخر المحلي؛ يميل بياضها إلى صُفرة؛ ضُمّ بعضها إلى بعض بإحكام، فشكلت فتحة البئر، وتحُول دون انهيار الأتربة إلى الداخل، وما تزال عليها حزوز حبل الدلو، وهذا يدل على أنه استُسْقِي منه كثيرا، ولفترة طويلة، فأرسل الحفار ضوء المصباح في البئر، فلم ير له قرارا، وقاس بعينيه قُطره، فوجده لا يتعدى ثمانين سنتيمترا، فقال:

– إنه بئر حُفِر قديما؛ سأنزل فيه بعض المترات لأقدر عمقه.

أنار مصباحُه جانب الحفرة، فوضع فيها قدمه، والجانب الآخر، فوضع فيها قدمه الأخرى، فغابت رجلاه، ثم نزل بجذعه، وما يزال هو وضوؤه يهبطان البئر حتى لم يعد باقي أفراد الجماعة يرونه، ونادوا عليه برهبة لم يعهدوها من قبل، فأجابهم وهو يحارب بسلاحه الفتاك الكائنات الحية:

– عقارب وحيّات؛ لا بد من تمهيد الطريق.

ثم رأوا ضوءه يكشف عنه، وهو يصعد، وجبينه يتفصّد عرقا.

قال وهو يتهيأ وبلا تأخر للمرحلة التالية:

– إنه بئر عميق، لقد رميت بحجر بعد أن نزلت عشرة أمتار، فسمعت الصدى عن بُعد عشرين مترا، ووضع القدمين في الحفر الجانبية غير يسير، ربما بليت بماء الدلو، لذلك سننصب ركائز البكرة.

فركّب حفار الآبار الركيزة من قطع الخشب، لها نفس السمك؛ بَطح اثنتين على الأرض؛ على جانبي فتحة البئر؛ علتْهُما رأسيا اثنتان؛ شدهما بأربع؛ اثنتان بكل واحدة؛ دقّا بمسامير كبيرة وطويلة، وركّب البكرة الملتف عليها الحبل، ثم قال:

– من منكم سيُرافقني؟

وأضاف قائلا:

– وسيبقى إثنان يتعاونان على سحبنا بالبكرة.

وتشاوروا فيما بينهم، فوقع الاختيار على نادر، فتقدم هذا بحماس، وتبع الحفار، ولما وصلا أجالا بنور مصباحيهما في قعر جاف، يتسع لانهيار تربة حائط البئر، وعلى يمينِهما كاد منفذ أن يُسدّ بالحجارة والتراب؛ لعلها تساقطت من الأعلى، فأزالاها بالمعولين والمجرفتين، ففاجأهما نفق أفقي لا يستقيم؛ فيه مُنعطفات، فسارا فيه؛ إلى أن تفرَّع عنه نفق آخر ضيق، فقال نادر مُوجِّها كلامه إلى الحفَّار:

– تابع أنت سيْرك، وأنا سأنعطف في ممر العمق هذا الباطني، وإذا طال بك النفق ولم تجد شيئا؛ فلا تتقدم أكثر، وارجع حتى نرى ما علينا فعله، وأنا كذلك.

وغاب الواحد عن الآخر بضوئه. استمر نادر إلى أن كشفت دائرة الضوء عن ثوب بال؛ غطى الترابُ بعضَ أطرافِه، فنَفَضَه عنه، ورفع طرفا منه، فهاله ما وقعت عليه عيناه؛ إنه نسيج بذلة يرتديها هيكل عظمي، الجمجمة هناك والعمود الفقري، وياقة لباس أنيقة، وأصداف نحاسية، وفتش أحد الجيوب، فتلمست أصابعه محفظة جيب يبِس جلدُها، تحتوي على بطاقات وأوراق، أخذها وتراجع؛ يُسرِع خطوات رُجوعِه، فرأى ضوء مصباح الحفار يتراقص، كان هذا الأخير عائدا هو أيضا، وعلى وجهه علامات نجاح، فقال:

– لقد وجدت صناديقا فارغة ومبعثرة هنا وهناك، وعظاما لدينوصور.

ولم يستمر؛ إذ أنار ضوؤه آمارات هلع على وجه نادر، قال هذا:

– أُنظُر... محفظة أوراق شخصية... صاحبها هناك هيكل عظمي؛ ما تزال عليه بذلة هي الآن أسمال.

ووصلا إلى قعر البئر، وأرسلا إشارة إلى الأستاذ وعبد الرحمن بالحبل، فرفعا نادر، والحفار وراءه يتعثر في حُفر الصُّعود البالية، ومد نادر يده بالمحفظة إلى عبد الرحمن؛ قائلا:

– صادفت وأنا في نفق جانبي هيكلَ رجل عظمي؛ يظهر أنه مات منذ سنوات، وهذه مَحْفظتُه.

«...استمر نادر إلى أن كشفت دائرة الضوء عن ثوب بال؛ غطى الترابُ بعضَ أطرافِه، فنَفَضَه عنها، ورفع طرفا منها، فهاله ما وقعت عليه عيناه؛ إنه نسيج بذلة يرتديها هيكل عظمي...»

أما الأستاذ فصار يُقلّب عينيه بحيرة واستغراب؛ فاغِر الفَم في المحفظة وفي نادر، كما انتظر الجميع من سيَتقدّمُهم في إصدار أمر صائب في مثل هذه الحال، فنطق عبد الرحمن قائلا:

– في هذه الأوراق الشخصية معلومات؛ قد تُطْلعُنا على من يكون هذا الرجل، ولكن هذا المكان ليس سالما؛ كما أن مجيئنا إليه هو الأول، فعلينا أن نتركه إلى آخر أكثر أمْناً. تحرك الحفار بخفة وفَكَّك ركائز البكرة، وأعادها –وكذلك الأدوات والمعدات– إلى الشاحنة، وركبوا، وقاد بهم عبد الرحمن الشاحنة بسرعة، واتجه بهم بعد قطع المسافة؛ إلى المَرأب المسقوف خلف بيتهم، ومنه صعدوا إلى الطابق الأول، وجلسوا ينظرون إلى بعضهم البعض، وقد استبد بتفكيرهم وجود هيكل عظمي آدمي؛ لرجل مات منذ عقود من الزمن، إلا أن عبد الرحمن كان رابط الجأش، وأكثرهم هدوءا؛ قال لهم:

– اِجلسوا بارتياح، وليقُم من يريد منكم إلى الدُّشّ، فإن الماء يُذهِب رُعْب الليل، ويُحيي الآمال، ويُريح الذهن ويفتح آفاقا للتفكير في حَلّ للخروج من ورطة كهذه.

بعد النظافة والعَشاء؛ تحلقوا حول المائدة المستديرة، ونشروا بطائق المحفظة الجلدية وأوراقها؛ كانت كلها باللغة الإسبانية؛ وأول ما جعلهم يتبادلون النظر فيما بينهم؛ وتمعُّنا في بطاقة الهوية؛ هو صورة الرجل الفوتوغرافية، أُلتقطت له وهو بقبعة بتصميم رمز بحري، فتصدى لها الأستاذ، فقرأ بأنه قبطان سفينة أرجنتينية شراعية؛ بثلاثة صوار؛ من قاعدة (بوينس آيريس)[35] البحرية؛ اسمه (فرناندو خوسي)؛ وتاريخ ازدياده 3 مارس 1920م؛ مكان المولد (بوينس آيريس)، واسم والده ووالدته، وقياسا لقامته يدل على أنه كان فارع الطول، ومن العلامات الطارئة اندمال في جهة وجهه اليمنى.

كان الهيكل العظمي إذن لقبطان بحري، بلده الأصلي (الأرجنتين)؛ فارع الطول، سبق وأن جُرح في حادث، أو معركة بالسيوف أو السكاكين، وفتح عبد الرحمن جيوبا من المحفظة، وسلّ من بين الجلد أوراقا مالية؛ وُزِّعت عليهم، ونظروا

[35] (بوينس آيرس): عاصمة الأرجنتين.

إليها؛ فكان ما بين أيديهم مؤرّخا بسنة 1950م، وعليه إصدار وختم من دولة الأرجنتين، فماذا سيستمد أفراد الجماعة من الأوراق من معلومات، وهل سيعرفون فيها ما الذي جاء بذلك القبطان إلى تلك المنطقة المنجمية، ويموت في أحد ممراتها وأنفاقها التي توجد تحت سطح الأرض؟

كانت أيضا من بين الأوراق الشخصية ورقة ذات صُنع خاص، وبنوع وزن مائة غرام، ومكتوبة بخط يد واضح وبالمداد الأسود، وأحْدَث طابع دائرة وكتابة بارزة في طرفها الأدنى الأيمن تضرُّساً في الورق، محاربة للغش، ومُمضاة بأربعة توقيعات؛ مع أسماء مُوقِّعِيها. كانت الورقة وثيقة تَعاهُد؛ باقتسام وبالقسط؛ مقابل بيع سلعة؛ كانت تتكون من هيكل دينوصور متحجر.

توجه عبد الرحمن بنظراته إلى نادر، الذي كان في نفس الوقت يستعد لأن يوجه إليه كلاما، قال:

– هذا هو الشخص الثاني الذي قال الشيخ؛ أنه جرى في الأنفاق؛ هربا من تسديدات (كَولبير)؛ هل أصيب بجرح؛ أماته فيما بعد، أو ضل طريقه، وطال عليه الأمد فتوفي هناك جوعا وعطشا؟

قال الأستاذ مُستفهما:

– كانوا، ومادام هؤلاء قد خططوا لسرقة الدينوصور؛ أن يستغنوا عن التوثيق؟

قال حفار الآبار:

– حتى تكون حُجّة عليهم جميعا؛ إذا ما نقض أحدهم بنودها، فإنها كافية لتهديده.

وورقة أخرى، وهذه رسالة من امرأة تبث فيها للقبطان حبها له، ومكابدة البعد والفراق، وأشواقا حارة، وحنينا إلى لقائه في أقرب وقت.

قال الأستاذ:

– لقد استمات هذا البحري لتحقيق حلم؛ للحصول على ما يكفيه هو وهذه الأنثى الحالمة؛ للعيش في جنَّة عَدْن.

قال الأستاذ وقد تحركت فيه ثورة الماضي:

– إنه دائما جشع الغرب، واستغفاله للشعوب التي استعمرها، واستغلال لجهلها بقيمة موروثها الحضاري، وما تختزنه أراضيها من نفيس المعدن

والمستحاثات، تزيد تلك الشعوب وعيا وعلما ببيئتها، والبحث عن طرق ووسائل لحمايتها، وفيها ما يُضيف إلى خزائنها المالية، وفيما يُنفق في خدمات عمومية.

وكأنهم جميعا فكروا في الذي يلي، والسؤال عنه هو الذي نطق به عبد الرحمن؛ قائلا:

– نحن الآن أمام أمرين؛ كلاهما يتطلبان منا العمل بجد ولا يسمح بالتأخير أو الإهمال، الأول الدينوصور، والثاني الهيكل الآدمي، وهذا يتوجب علينا إبلاغ السلطات المختصة به، فأي منهما نُرجِئُه إلى وقت لاحق؟

لم ينتظر الحفار لحظة للتفكير، في مدى صواب ما يقول:

– إن الذي يعني الفريق الآن هو استخراج الدينوصور، ونقله، وقد مُنِح له ترخيص بذلك، وأن ما تبقى من جسد ذلك البحري من عظام هيكله لا يهمهم، ولم يأتوا من بعيد من أجله.

قال نادر:

– مات القبطان وانتهى وجوده، ولا عجلة في لَمِّ عظامه في تابوت ودفنه.

قال عبد الرحمن:

– ستُبلَّغ السلطة المختصَّة بما حدث منذ زمن، وسيأتي أعوان ومن يرأسهم، وسيقومون بجمع الدلائل، وسيُستقدم الشيخ، وهو لا يعرف هل مات القبطان برصاص مسدس (كَولبير)، أم توفي بسبب آخر، وسيمضي المحققون في البحث أو استجلاء الأمر، ليكتبوا تقريرا جافا؛ كل ما فيه سبب الوفاة، أو القاتل وقائد السفينة المقتول، أما القصة الكاملة؛ فهي تحتاج إلى بحث متريث، والاعتماد على وثائق متعددة المصادر، والتنقيب في ماضي شخصيات الواقعة، وهذا كيف الاهتداء إليه، وأين توجد البقايا؟ وقد زحف البحري وصاحباه إلى منطقة؛ بهدف عمل غير مشروع، فأين المظْلمة، والذي قَتَل وصاحِبُه هما الآن في قبريهما، والشيخ لم يتشجع في الإبلاغ آنذاك عن حادثة وقعت في زمن الاحتلال الفرنسي، والقاتل كان ما يزال على قيد الحياة، وأولئك من جنسية أخرى، ومراقب مناجم الفوسفاط يمثل شرف بلده، وما يوجد في هذه البلاد كان في حماية دولة فرنسا، فالمسألة كانت أعقد مما نتصور.

قال نادر باهتمام بالغ:

– إذن لنستمر فيما نفعله من أجل نقل الدينوصور.

قال الأستاذ واضعا برنامجا زمنيا:

– في الليلة القادمة سأحاول أنا وعبد الرحمن البحث عن مدخل النفق، الذي سُدّ بتفجير صخوره وأتربته، وإذا ما نجحنا سنُقِيم مُخيَّما في النهار، ونشرع في وضع العظام في صناديق، ونُؤجِّر شاحنة كبيرة لنقلها.

قضى نادر والأستاذ نهار اليوم التالي في دراسة الدينوصور الذي رسمه وبإتقان أستاذ الجيولوجيا، وعَزْل عظامه؛ بعضها عن بعض، وخصص لكل عظمة صندوقا؛ يناسبها في الطول والعرض والارتفاع، والذي ما يزال مجهولا لديهما؛ هو أي العظام المفقودة حتى الآن؟ وهذا لا يقفان عليه إلا بعد العمل في نقل ما بقي في النفق، وحددا وقتا لذلك، وهو قبل طلوع الشمس، ويستمر العمل إلى حدود الساعة الحادية عشرة، ليستأنفوا العمل بعد المغرب إلى الساعة العاشرة ليلا، ولن ينقلوا الصناديق إلا وهي مُحكمَة الغَلْق، وسيتكلّف بهذه المهمة حفَّار الآبار، لأنه المتعود على ذلك، والممسك بالمطرقة وتصويب المسمار بمهارة وقوة.

والهدف الذي قدم من أجله نادر في رحلته الأولى كان عامّا، وليس خاصا بالدينوصور، وهو البحث في التربة وفي الصخور عن مستحاثات، وهو أول عمل سيقوم به، فتذكر حلمه الأول، وهو يشعر الآن أنه أقرب إلى تحقيقه، فقال مُعلِنا للأُستاذ:

– ما بين وَقْتَي العمل سأقوم بالنبش بمطرقتي الجيولوجية في الأماكن التي يمكن أن تضُمّ أحافير؛ غير أسنان القرش.

قال الأستاذ مُشجِّعا:

– دونك ما تريد، وستكتسب معلومات عن المناطق الجيولوجية الغنية بالأحياء المتحجرة، وخبرة بعمل التنقيب، في طبقات الأزمنة الجيولوجية التي تدل على مناخ ساد، وعلى حياة نباتية وحيوانية تأقلمت معه؛ ما تزال حية أو انقرضت، فطبقات تضاريس الأرض كتاب تقرأ فيه تاريخها الصخري والنباتي والحيواني، إلى أن يتكون لديك حدس يساعدك على تعيين مناطق وجود المستحاثات.

قبل أن تُضِيء شمس الشروق سماء (وادزم)، وتُزيل لثام الغبش عن عالم المدينة، والمناطق المجاورة، كان حفار الآبار قد ركّب كما في السابق قطع القاعدة والبكرة، وكان الأستاذ وعبد الرحمان قد هبطا في البئر، وسارا في النفق؛ حتى أنار ضوءا مِصْباحيْهِما أرجاء المكان؛ كانت الصناديق ما تزال موضوعة بعضها فوق بعض وفي صفوف متوازية، وعظام الدينوصور ما تزال أطراف منها مطمورة في التربة، ومنها ما كُدِّس كقطع الخشب؛ على جانب النفق، وما يزال النفق مُمتدًّا، واستمرّ إلى أن واجههُما سد من حجارة وأتربة، فأدركا أن ذلك ما أحدثه التفجير، فشمّرا على ساعديهما، وشرعا في إزالة الحجارة والتراب، وبعد أن تعبا عادا، وهبط الحفار ونادر في مُناوبتهما، وهكذا حتى صعد حفار الآبار على ما يشبه تلاّ من الأتربة؛ تغوص فيه جذور شجرة؛ قَطَعها بالمِعول، فما يزال يحفر حتى سطع على وجهه نور الشمس، فكان ذلك هو المدخل من الخارج، وأمامه نصبوا الخيمة، وأثثوها بما يلزمهم من قِدر لطبخ الطعام، وجرة طينية كبيرة لماء الشرب، وأسِرّة ولُحُف للاستلقاء وقت القيلولة، أو النوم عليها ليلا.

رسم الأستاذ وضع الدينوصور في مَسْتَحثَّته، ونقَّب عن العظام التي كانت ما تزال مدفونة، ولفَّها بضَمادات صِيانة، وحاول قدر المستطاع ألا تتكسّر، ووضعها بتريّث في الصناديق، وعلى بعد منه كاميرا مُركبة على أرجل معدنية ثلاث، مُبرمجة لتصوير مراحل العمل؛ لحظة بلحظة.

بعد عصر ذلك اليوم، وفي الوقت الذي كان فيه ثلاثة أعضاء من الفريق في الخيمة يستريحون، كان نادر يخطو إلى داخل النفق، ويتوغل في الامْتِداد الآخر المحفور في الأرض؛ حتى انتهى الغار بالصخور، وكان نادر يفحص جوانبه؛ ما إذا كانت عليها آثار أو علامات لمستحاثات، فعاد وسار في آخر، وكان مليئا بحجارة وصخور وأتربة، وكان يبحث بين ذلك كله عن الأمكنة التي يطأ فيها؛ دون أن يتعثر، وقد يضيق الغار؛ فلا يتمكن من المرور إلا بالانبطاح على بطنه أو مُجْرِجِرا نفسه على ظهره، وقد فهم ماذا وقع؛ إنه تفجير سطحي؛ انهارت به الطبقات إلى أسفل، وهو يستمر في استكشافه؛ إذ وقع بصره على ما يُشبه دِرْعا مُقوّس الجوانب، مُقبَّب الظهر، فجذبه إليه بمطرقته الجيولوجية، فكانت

تلك مفاجأة عظيمة من ذلك الشيء، فما مَثُل أمامه هو سلحفاة بحرية متحجرة؛ فرزتها حركة التفجير عن الصخر الذي كُسِّر، والحجر الذي فُتِّت.

ترك مُستحاثّة السّلحفاة حيث هي، وعاد إلى رفاقه، وقد تغبرت ملابسُه، وغطّى التراب وجهه، فبدا بمظهر غريب، وقد تعثر مرتين وكاد أن يسقط، ولو كان خُلق بجناحين لَحَلَّق، ونادى عليهم من بعيد، بأسمائهم الواحد تلو الآخر، ولم يكن قد وصل إلى الخيمة، فكان أول الخارجين عبد الرحمن، ثم الحفار، فضحكا من شكله التّرب، قال له عبد الرحمن:

– هل استمتعت بالتمرغ في مَتْربة الغيران؟

تجاهل سؤالَه، ولم ينتبه إليه، وقال بِفَرح غامر:

– عثرت على سلحفاة بحرية متحجرة في أحد الأنفاق المتفرعة، بحجم سلاحف البحر العملاقة التي ما تزال تعيش حتى الآن.

وقد وصل صوت نادر بما أخبرهما به؛ إلى أُذُني الأُستاذ؛ أخرجه من هنالك؛ حيث كانت صور من المستقبل تَرِد عليه، فالتحق بهم، وهَرعوا جميعا إلى داخل الأنفاق، ليشاهدوا بأعينهم درع السلحفاة، ورأسها وعنقها الممتد، وأرجلها المنكمشة إلى داخلها، والكل كتلة من كائن متحجر. وقفوا متعجبين، ولم يستطع أحد منهم لمسها؛ كأنها ليست لهم؛ هي من خلق الطبيعة ومن إبداعها، فتعاونوا على حملها إلى النفق الرئيس، حيث بطحوها على أرض مُستوية، وأمر الأستاذ حفارَ الآبار بصناعة صندوق يُناسِب حجمَها، والتفت إلى نادر قابضا على كتفه بامتنان، وقال بهدوء وبخشوع أمام عظمة الطبيعة:

– هل تذكر أنني قلت لك يوما؛ أنك ستجني ثمرة وَلَعِك بالمستحاثات، وجِدّك ومُثابرتِك فيها.

إنها الفكرة... كيف طرأت على نادر؟ ونفّذها بوُلوجِه عالم الأحياء، ورغبته الشديدة في النهل من العلم بها، وهذا في عقول العلماء، والعالم هو العالم؛ منذ طرح أولهم السؤال حول الإنسان والكائنات النباتية والحيوانية والكواكب والكون، وهذه السلحفاة التي هي نتيجة مُركّب الطبيعة الكيماوي، كيف ظلت شاهدة، وقد تُجِيب عن سؤال، وتتفرع الإجابة عن أسئلة أخرى لتصبّ في الاستفهام التالي: لماذا الكون بهذه الصورة، ولماذا نحن على أحد تلك الكواكب،

هل لغاية؛ أم هو تفاعل وانصهار وتلاقح وتناسل فقط، وهناك من يشكك في البحث، أو ما الحكمة السماوية من كل ذلك، وهل يمكن دراسة كوكب الأرض بمعزل عن الكواكب الأخرى؛ شيء فوق طاقة تفكير الإنسان؛ لماذا نحن موجودون؟

كانت الخيمة والنفق في لقاء عاطفي؛ جلسا إلى بعضهما البعض بعِشق وسمر الليل؛ بابها على بابه، وأفراد جماعة الدينوصور يغُطّون في نوم؛ بعد تَعَب عمل النهار، وما بعد المغرب إلى العشاء، إلا واحدا؛ كان قد أَرِق لشوق إلى أهله، وهو حفار الآبار، فسمع -وكان الوقت من الليل قد قارب الساعة الثانية، والدنيا ظلام- نُباحَ الكلاب يأتي من بعيد؛ استشعارا بتسلل شخص، وأصوات دراجات نارية تتقدم، ولم تستمر، وانطفأت هناك، ووصل إلى سمعه وطآت أقدام؛ كانت هذه تبحث في الظلام عن اتجاه، فهمز الحفار بيده عبد الرحمن، استيقظ هذا، وتصنت إلى صوت الحفار الخافت، بأن أشخاصا يقتربون من مكانهم، ويحومون حوله، فقام هو والحفار، وتحرك الأستاذ ونادر على فراشِهما، ونظر عبد الرحمن إلى الخارج؛ فما بدا له جعله يتقهقر قليلا، ويأمر أفراد الجماعة قائلا:

- تسلّحوا، وهيا بنا نخرج للقتال.

ونطق بغضب:

- أ لهذا الحد نُقهر؟

وخرجوا ليجدوا أنفسهم أمام أربعة رجال؛ منهم من أمسك بطرف سلسلة حديدية تُكسِّر الأعناق، وآخر قبض وبقوة على هراوة مُدملكةُ رأسٍ دُقّت فيه مسامير، وتُركت بارزة لتهشيم الجماجم، والثالث تسلح بسكين طويل، وعريض النصل ينحر، والرابع وتَّر حبلا بلاستيكيا؛ يخنق حتى الموت.

فهجم عبد الرحمن على الذي جَلجل السلسلة، وضرب بها الأرض توعُّدا؛ بحركة مُصارعة من رجله؛ صافعا إياه، فاندحر ذاك.

فجأة دوى صوت طلقة بندقية حاد في اتجاه السماء، صك الأسماع، وتردد صداه هنالك بعيدا في سكون الليل، ونبحت كلاب، وسطع ضوء من كوة بيت بدوي، وأفاق كل من هو ذو سمع من الكائنات الحية؛ من نومها أو غفوتها

أوغفلتها، فالتفت المقتحمون إلى هناك خلفهم، فميزت العيون في الظلام شبحا؛ عريض الكتفين؛ عالي الهيكل، وهو ما يزال يرفع ماسورة بندقية إلى الأعلى، ثم أنزلها، وصوبها مرة أخرى ما بين رجلي أحد أولئك، وضغط على الزند، فانسحق التراب وتَفرْقع الصخر وانتثر الحصى، وألقم وبخفة من يديه البندقية خرطوشة، فلاذ الأربعة بالفرار، فتقدم حينئذ الشبح، أرسل عليه عبد الرحمن ضوء المصباح؛ بدد ذلك الضوء الظلام عن وجه صرُمت ملامحه؛ كان هو إحسان.

قال، وهو يدنو منهم مُذكِّرا:

– أو نسيت نصيحة عمي يا عبد الرحمن.. ألا تذهب إلى براري (وادزم) دون سلاح؟

ورمى بالبندقية برصانة؛ مُقدّرا للمسافة التي ستقطعها؛ في اتجاه عبد الرحمن لتكون في متناوله، فتلقفها.

لو لم يكن إحسان هو من حمى ظُهُورهم؛ لخاضوا معركة خاسرة، ولعُصرت حناجرهم كالشياه حتى الموت، أو ذُبِحوا، وهُشمت جماجمهم وأضلاعهم.

سألهم إحسان:

– هل عرفتم من يكون هؤلاء، وقد استخْفوا عنكم بالظلام، إنهم: تاجر أسنان القرش، وتاجر وصائغ الحلي، وصاحبا السيارة، ولكان الدينوصور والسلحفاة الآن في طريقهما إلى المجهول، أوَ نسيتم أو تجهلون أن المطار الذي يوجد إلى الجهة الجنوبية الغربية من مدينة (خريبكَة)، وغير بعيد من هنا إلا بكيلومترات قليلة؛ قد تهبط على رصيفه طائرة، والذي لا يُعار أي اهتمام إلى خطورته، وتُقلع بأحافِيرِكُم؛ إلى مكان تجهلونه؛ إن تجار غير المشروع لهم أجنحة يُرفرفون بها؛ في تكاثف السحب، أو في (الستراتوسفير)؛ طبقة الغلاف الجوي الثانية.

كان إحسان بعد أن يُنهي عمله بورشة الميكانيك، أو بعد أن تغرب الشمس؛ يركب سيارة، ويسلك طريقا يوصله إلى مكان تسترُه أجمة، ويظل هناك يتابع عمل فريق المستحاثات من بعيد؛ بالنظر إلى أفراده وهم يعملون؛ بزوجي منظار مُكبّر، وقد أخبره الكنّاس بأن أفراد تلك العصابة يُبيتون لعمل انتقامي، ويتهيّأون ويتجهزون لضربة قاضية ليلا عند ذلك الجرف، الذي يعمل في نفقه ابن عمه

وأصحابُه، وكان عبد الرحمن وهو في غمرة الاستعداد؛ قد أخبره من قبل بأنه سيكون ضمن جماعتهم.

جعل مُباغتة أفراد الدينوصور وهم رُقود؛ من طرف الأربعة الضُغّن، والذين لم يكونوا ليتراجعوا عن التعذيب حتى الموت أو القتل؛ أن يتآزروا أكثر من ذي قبل، ويتّحدوا، ويُواثق بعضهم البعض على أن يظلوا متلاحمين ومتماسكين؛ حتى اللمسة الأخيرة من العمل بإصرار، وبعد أن انتهوا من إنزال السلحفاة البحرية في صندوقها ذي القياس الخاص، وأقفلوا عليها الغطاء الخشبي، ولم يُخطئوا أيضا في تعيين كل صندوق يواتي كل عظمة من الدينوصور؛ اجتمعوا ليتوصلوا إلى اتفاق حول ما تقتضيه ظروف نقل العظام إلى مدينة البحث العلمي؛ كانوا قد عملوا بنفس الحيوية والجهد، وكان نفس الشعور يُخامِرُهم، والهمّ نفسه يسيطر على أذهانهم؛ خصوصا بعد أن جمعهم وعفويا عمل البحث عن الدينوصور، وقد أدوه لقيمة فيه.

فما تجندوا له مرة أخرى هو أن يكونوا في آن فرقة؛ تحرس العظام وهي على ظهر الشاحنة؛ حتى تصل إلى المكان الحصين، فوزعوا أماكنهم في القافلة، بحيث يكون نادر في الكرسي الذي بجانب سائق الشاحنة، وعبد الرحمن وحفار الآبار؛ سيكونان مُتواريين بين الصناديق، وبينهما البندقية وصندوق الخراطيش، والأستاذ سيقود سيارته، وسيكون مُستعدا لأي فعل سطو يواجهونه، ولم يقضوا وقتا طويلا في البحث عن شاحنة بمقابل ما، وإنما شاحنة بمحرك قوي مُتناغم العناصر؛ لا يئن ولا يكبو في طرق المرتفعات، وتكفي للصناديق، ولم يتبادلوا مع السائق من كلام غير المسافة والاتجاه، وما سيُدفع إليه من مال؛ سيُغني عن أي طريق آخر يكون وعرا أو جهة أُخرى تكون بعيدة، وهو تجاهل ما في الصناديق، ولم يُراقب ما فيها، فذلك المبلغ الذي سيُؤدّى إليه كان مُغريا.

وقاد السائق الشاحنة بكامل استعداده، واستعرض أمام نادر تجربته في القيادة، وقهرَه للشاحنة وآنعراجات الطريق؛ كان يُسرِع حتى غدا هو والشاحنة كأنهما من الطريق؛ كأنهما ينسابان منها، حتى كان يرجع بها إلى الخلف، وعيناه المتدربتان تنظران في المرآتين الجانبيتين، وهما اللتان تعكسان مدخل كلية العلوم والموقف، ودنا بالصناديق سُلّما نازلا؛ حيث توجد قاعة واسعة تحت البناء؛

خُصِّصت لاستقبال الدينوصور والسلحفاة المتحجرة لدراستهما، وذلك بتحليل عظامهما و تأريخهما.

لم يكن من استضافهم في بيته في مساء ذلك اليوم؛ غير الأستاذ، فقضوا وقتهم الطويل سهرا عنده، وكان شيء واحد يشعرون به، ولا يُسْتثنى من ذلك أحد منهم، وهي السعادة بنجاحهم، وكان أكثرهم حبورا عبد الرحمن وحفار الآبار؛ لماذا؟ لأنهما شاركا في البحث عن مكان الدينوصور، فيكونان قد تمتعا برؤية نفسيهما أقرب من ذلك الهيكل المتحجر، والذي كان حيّا، وعاش منذ ملايين السنين، فقصة الوصول إلى حيث كان في ظلمات النفق، وعظام منه كانت ما تزال مدفونة في الطبقات الرسوبية؛ تضاهي قصة أحد تلك الدينوصورات؛ التي انقرضت، وعظامه عينة من تلك التي كانت حية؛ تُغْني معرفة العلماء بها، فأُضِيف اسماهما إلى ما يوثق لخبر العثور عليه، إلى جانب اسمي الأستاذ والطالب نادر.

وفي الغد، وفي ساعة من صباح مشرقة شمسه؛ تبادلوا تحيات اللقاء؛ في محطة الحافلات، ليعود عبد الرحمن وحفار الآبار إلى (وادزم)؛ مدينة ذلك الامتداد من الأراضي الضاربة في جميع الاتجاهات الجغرافية الأربع؛ لا يحد أحدها أي من الأشكال التضاريسية، كالأودية أو الجبال أو التلال أو الهضاب مثلا؛ خلقت فيها جداولُ عيونٍ أحواضا؛ تُغرس بالبَقول وأشجار الثمار، فهي تلك المدينة العنكبوتية الشكل؛ تنبثق منها الطرق لتتجه إلى الشمال الغربي إلى الساحل، وإلى الجنوب الشرقي إلى سهل الحوز.

كان يوم الأحد هو الثالث من رجوع الأستاذ ونادر، وحاولا ألا يعلم أحد بوجود صناديق قابعة في قاعة القبو، وفيها العظام؛ في سرية تامة؛ ذلك أن أخرى منها ما يزال مكانها مجهولا، وكانا قد قاما برسم الدينوصور، ولوّنا بلون مغاير عظام النفق، فكان ما هو مفقود منه رجلاه الأماميتان، وجمجمة الرأس وبعضُ الأضلاع، وقد عدّوا هذه، وكان السؤال، والذي يكون مُحْبِطا وغير مُشجّع: أين هي العظام الأخرى؟ ودونها لا يمكن إعادة بناء هيكله، وإلا أُلتُجِئ إلى صبّ مادة اصطناعية في قوالب لتشكيلها خداعا للعين، وكان هذا إحساس

مقيت؛ يكاد يقتل حماسة الأستاذ، وخاصة نادر، ولم يستسلم ذهن هذا الأخير، فقال منهك الملامح:

– لا بد من البحث عن العظمة المحفوظة، والمعروضة في صندوق أستاذ الجيولوجيا الزجاجي، وعن الكُرّاسة التي حرر فيها القصة، والخريطة، في أي مكان يا ترى انتهى إليه كل هذا، أو في يد من استقر؟

قال الأستاذ، وهو ينظر إلى نادر بعينين فاترتين:

– قلتَ أن أُستاذ الجيولوجيا كان يبحث في (المعهد العلمي الشريفي)؟

أجاب نادر:

– ذلك ما قال الشيخ.

قال الأستاذ بأمل ضعيف:

– لنذهب إلى هناك، ونبحث عما يمكن أن يتخلف عن أستاذ الجيولوجيا، أو يبقى من وثائق وأشياء؛ ربما نستدل بها على ذلك الدور الكبير الذي كان يمكن أن يؤديه إلى جانب المراقب الفرنسي؛ لولا ما حدث.

قال نادر، وقد كان منذ أن سمع ما روى الشيخ، وهو يحاول أن يستنتج:

– إن الذي أدركته أن المراقب الفرنسي؛ لما اكتشف الدينوصور، وهو أدرى بأهمية ذلك، وكذلك أستاذ الجيولوجيا؛ أُصِيبا فيما بعد بنزعة التفرد بالعثور على الأحفور العظيم؛ بل إلى حد تملكه؛ بل إلى حد أن ذلك الدينوصور غدا كالوليد، أو جينة أو خلية مِنْهُما؛ إنه الخوف من أن يُنسب إلى غيرهما؛ إنه الهوس؛ إنه الجنون، فما خلُصا إليه هو أن يظل حيث هو، فلا أستبعد أن أوراق الحكاية هي أيضا مُخبّأة في دُرج أو في صندوق، أو في خشبة تُسحب بطريقة سرية من مكتب خشبي، أو في حَشوة كرسي جِلدي.

قال الأستاذ بخوف:

– وما يزال مثل هذا الأثاث القديم في بعض حُجرات المعهد.

قال نادر:

– زُرْت متحفه الطبيعي مرتين، ولكن لم يكن لي اهتمام بذلك.

تساءل الأستاذ:

– هل ما يزال صندوق عظمة الدينوصور الزجاجي موجود في المعهد؟

قال نادر:

– إن تخصصك العلمي ومكانتك فيه؛ يفرضان حرية البحث في كل ما يُعرض في الممرات، وفي الحُجُرات، وما يُحتفظ به خلف الأبواب الموصدة وفي الأقبية.

رد الأستاذ قائلا:

– صدقت أيها النادِر، فلا نُرجِئ هذا البحث.

وقصدا بناية (المعهد العلمي الشريفي)، والذي لا يبعد عن كلية العلوم إلا بعشرات الأمتار، ودخلا إليها، وكلاهما اصطنعا زيارة دراسية، وبعد أن سارا في الممر الذي يمتد إلى يمينهما وإلى يسارهما؛ بعد الباب الرئيس، ورأيا الكائنات المحنطة، وأنواعَ الصخور؛ المعروضة في خزانات من زجاج، ولم يجدا أيّا مما يكُون عظمة أو مما يستدلون به؛ اتجها إلى إحدى الحجرات؛ كانت الوحيدة والقديمة في خط ما هو محفوظ في السوائل، وما هو محنط لعشرات العقود؛ تعبق بماضي الاشتغال بالبحث العلمي، ووجدا صندوقا بأربعة وجوه من زجاج؛ الذي كان فيه عصفور محنط، وعلى قاعدته لوحة نحاسية[36]؛ حُفِر فيها أن هذا مُهدى للجنرال (هوبير الليوطي)[37]، واستمرا في البحث، فلم يجدا بعد صندوقا آخر غيره.

قال الأستاذ:

– هل استقى أستاذ الجيولوجيا فكرة –أي استلهمها– حِفْظ عظمة الدينوصور وعرضه داخل صندوق زجاجي من صندوق العصفور المحنط هذا؟

قال نادر:

– فإذا وجدنا صندوق العظمة، فكلا الصندوقين لم يغادرا البلاد التي طار إليها العصفور في إحدى هجراته، وعُثر في طبقات صخورها على هيكل دينوصور.

قال الأستاذ بعد الذي تأكدا منه؛ أن ليس بين ما هو معروض في المتحف الطبيعي عظمة دينوصور؛ سواء كانت بصندوق أو دونه:

---

[36] ما تزال هذه الهدية وبالشكل الذي وُصفت به موجودة في متحف المعهد العلمي الشريفي بالرباط.

[37] هوبير ليوطي؛ 1854م- 1934م (HUBERT LYUTEY)؛ أول مقيم عام فرنسي للحماية الفرنسية في المغرب.

– أيٌّ من حُجرات المعهد كانت مكتب الأستاذ؟

قال ذلك وهو يحُث نادر على التحرك، ويستحضر ممرا آخر؛ لا يُطرق إلا نادرا، وفي آخره حجرة؛ يُرى بابها في بعض الأحيان مفتوحا للتنظيف غالبا، والسيدة المكلفة بذلك لا تفعل غير نفض الغبار عن المكتب والخزانة، وغسل الأرضية وتجفيفها:

– هَلُمَّ بنا إلى إحدى حُجُرات المكاتب.

لم يستأذنا أي أحد، والذي استحسنه الأستاذ في بحثهما ذاك هو السيدة المُنظفة، ففي جيوب بذلتها البيضاء مفاتيح الحجرات والغرف[38]، وكانت هي هناك غير بعيدة، فأشار إليها الأستاذ، فاستجابت وقدِمت، ولم تعُقها بدانتُها على قطع المسافة إليهما في أقل من دقيقة؛ بوجه ممتلئ؛ بشوش ومُرحِّب، وأنفاس جسدها المُجهد تُسمع، وهي تدُسّ يدها اليمنى في جيبها، وتفرز المفتاح، وتفتح به الباب، فيدخل الأستاذ إلى الداخل ويتبعه نادر؛ يجدا نفسيهما في حجرة قديمة التصميم، وكل ما يزال فيها يعود تاريخ صنعه إلى أكثر من ثمانية عقود؛ خزانة للكتب والمجلات والدوريات العلمية، ومكتب من خشب صلب، ومن أحد حيطانها برز جانبا مدفأة مُطعّمة السطح بالخشب، ونظرا إلى ما وُضع في مقدمة المكتب من المستلزمات، كحاملة الأقلام، وصناديق مفتوحة من الخشب؛ لضم الملفات وأوراق القرارات والمراسلات، والذي شاهداه؛ وكان يتوسط الجانب من سطح المكتب الأمامي هو قطعة من خشب طويلة وبنية اللون؛ بلمعان باهت قديم، فتقدما منها؛ لينكفئا بهامتيهما، ويُطيلا النظر فيما داخل صندوق زجاجي، ويقرآن جملة حُفرت حروفها على صفيحة نحاسية، فتهجّى نادر ناطقا: هذه سُلامى دينوصور.

ونظر إليها الأستاذ وطاف بعينيه حولها، وقال:

– إنها فقط جزء من السّلامى؛ ألا ترى رأسيها البارزين؟

أجاب نادر:

– فهي سُلامى غير كاملة، ولكنها من ذلك الدينوصور.

---

[38] الفرق بين الحُجرة والغُرفة؛ هو أن الحُجرة تكون في أسفل البيت ، وأما الغُرفة فتكون في الطابق الثاني منه.

ولم يكن الصندوق الزجاجي مُستقلاّ بقاعدته، كان يقتسم هذه مع مِحْبرة من قنينتين، ويتوسطهما تمثال دينوصور من الخشب نفسه، فهذا جميعه مُتفرّع من قطعة خشبية واحدة؛ نُحت فيها صندوق السّلامى، والجزء العلوي منه زجاج بالأربعة وجوه والقمّة، وحامل قنينتي الدّواة، ومقلمة محفورة؛ لها غطاء بمُفصِّلتيْن نحاسيتين.

وفطن الأستاذ للفكرة، والغاية منها، وقال:

– حتى لا يبقى صندوق عظمة الدينوصور مستقلا، فيُنقل حسب الأهواء، فهو من تلك القطعة، وكذلك تمثال الدينوصور والمحبرة والمقلمة، لذلك فليس من اللائق، والمنافي للغرض منها مغادرة المكتب، ولا تصبح لها أي قيمة دونه، أو تظن أنه سيكون لها مكان آخر غير هذا؟ لذلك بقيت حيث هي.

فالأستاذ ونادر قد وجدا العظْمة وصندوقَها، والذي ما يزال يتساءلان عنه هو أين توجد كراسة أستاذ الجيولوجيا. انتبه نادر إلى سُمْك قاعدة تحفة المكتب الفنية، وطرح سؤالا بصوت خافت، وفي سكون المكان؛ وصل إلى سمع الأستاذ:

– ماذا يمكن أن يكون مخفيا في الخشب؟

سأله الأستاذ بلهفة:

– هل يكون حقيقة ما حدست؟

وأسرع الأستاذ وأمال الشكل المركب، ورأى في الأسفل مسامير لولبية نحاسية، فأخرج من جيبه سكين مطواة صغير، وفك به المسامير، فانفصل صندوق بطول القطعة واستقر في يده، فشاهدا معا ما أسكتهما للحظات؛ إنها كراسة أستاذ الجيولوجيا؛ بغلاف مُقوّى ومُجلّد، وتحتها مباشرة خريطة مطْوية بإتقان.

تناول الأستاذ الكراسة، وفتح دفتيها، ومرّر الصفحات؛ وجدها مكتوبة بخط اليد وبمداد ذلك العهد، وكان العنوان الذي صاغه أستاذ الجيولوجيا هو: قصة هيكل دينوصور.

حمل الأستاذ الخريطة والكراسة وأسرع إلى آلة النسخ، فنسخهما، ثم أعادهما إلى الصندوق، وثبّت هذا كما كان في موضعه أسفل المنحوتة الخشبية، وتركا المكان وهما يستحثان الخطو إلى كلية العلوم، ومن بابها الرئيس سلكا أقصر ممر

إلى قسم المستحاثات، فما كان مما قام به الأستاذ هو أنه أوصد الباب، وقصدا معا الطاولة المستطيلة، ومد الأستاذ يده بالكراسة إلى نادر قائلا:

– إقرأ... بإتقان ولا تُسرع إننا سنحيا حكاية كُتِبت منذ زمن طويل؛ بقلم أستاذ الجيولوجيا وبخط يده.

كانت القصة مكتوبة بلغة فرنسية سليمة وبخط واضح، ويدل هذا بأن الأستاذ تريث في كتابتها، واختار الألفاظ بعناية، فلم يجد نادر صعوبة في قراءة النص، وكان هو هذا:

«لم أر وقتا مناسبا لكتابة هذه القصة الواقعية؛ إلا وأنا جالس في غرفة واسعة؛ على كرسي محشوّ، ومكسوّ بجلد طبيعي؛ بجانب نافذة ذات إطار خشبي؛ يسمح زجاجها بالنظر إلى سطوح المنازل، وإلى سماء مُغطّاة بسحب كثيفة؛ رمادية اللون؛ ينزل منها ومن حين إلى آخر مطر غزير أو خفيف، لأن الفصل كان شتاء، وفي الهدوء كنت لا أسمع إلا المطر ونقراته على بعض السقوف، وصوتا تُحدثه المياه؛ عندما تدوسها عجلات دراجة أو سيارة أو شاحنة، فما ستدور عليه هذه القصة؟ إنها سرد لما حاولت أنا ورجل آخر العمل على نقل عظام دينوصور متحجرة إلى خارج المغرب؛ سيأتي ذكر سبب ذلك؛ اكتشفه ذلك الرجل؛ المراقب لأنفاق استخراج الفوسفاط من المنطقة التي تقع ما بين مدينتي (خريبكَة) و(وادزم)، لكن ذلك لم يتم؛ لماذا؟ الجواب هو قصة هذا الدينوصور.

كنت قد ذهبت وكعادتي كل يوم إلى مكتبي بِـ(المعهد العلمي الشريفي)؛ في صباح يوم 20 أبريل من سنة 1954م؛ في الساعة الثامنة وأربع عشرة دقيقة، فكان الجو طبعا ربيعيا في ذلك الوقت؛ وكانت السماء زرقاء وصافية من الغيوم، ودرجة الحرارة لا تتعدى عشرين درجة فوق الصفر، وكانت أشعة الشمس تسطع على الأركان؛ التي ما تزال مُخضرَّة بظلال وماء أمطار فصل الشتاء الماضي. كانت النافذتان تُطلان على حديقة داخلية، وعندما ارتفعت الشمس في الساعة العاشرة والنصف؛ أرسلت عليها أشعتها، فزادت خضرة نباتاتها رونقا، وصبت على أوراقها وأزهارها حرارتها، فأَرِج المكان، وحطت على الفروع عصافير مُغرّدة بجمال الدنيا وبالشمس الساطعة، فكنت أرفع عيني من وقت لآخر عن

مسودات التقارير العلمية؛ التي كانت المهمة العلمية تفرض تحريرها، وبعد مراجعتها أدفعها إلى الكاتبة لتَرْقَنَها على الآلة، ثم تُحفظ في الملفات الكرونولوجية؛ قلتُ كنت أرفع عيني من وقت لآخر إلى جمال الطبيعة، فيرفع عني هذا سأم الانكباب على المضامين العصية التعبير.

كانت الساعة لم تدق الثانية عشرة بعد؛ عندما وصل إلى مسمعي هدير دراجة نارية يدنو، ويتأرجح صوتها بين تباطئها ودورانها إلى الموقف؛ الذي هو ممهد أمام بناية المعهد، وكان صوت المحرك كأنه يُحدِث دويا في الأجساد، ثم أسكت السائق الدراجة الضخمة والقوية، فعاد السكون إلى المكان، فلم أُبال، ورجعت إلى اهتمامي بما أخط بالقلم؛ حتى سمعت وطأ أقدام متريث في الممر؛ يقترب من الباب، ثم دقا خفيفا، فاستجبت له قائلا:

– أُدخل.

فُتح الباب، ويد إنسان تقبض على المقبض، وتدفع الدفة ليظهر رجل طويل؛ ضخم الجسم؛ حاد النظرات؛ ممتلئ الوجه؛ لفحت بشرته شموس أنهُر منطقة بعيدة، ويظهر أنه يعمل خارج المكاتب؛ في الأراضي المفتوحة على التشييدات والحَفْر والبِناء؛ إنه عامل مناجم، وقد فصحت عن هذا الآن بعد أن تعرفت عليه فيما بعد. حياني مادّا إلي راحة يده، فتصافحنا ودعوته إلى الجلوس على كرسي؛ ما إن نزل عليه بثقله حتى أصدر خشب ذلك الكرسي أنينا؛ خُيِّل إلي أنه سينهار بالرجل على الأرض. قدّم إلي نفسه بجمل موجزة؛ بل بألفاظ منفردة؛ قائلا:

–(كَولبير)... فرنسي من منطقة (ليل؛ Lille)[39]... مراقب مناجم الفوسفاط العام... موكول بالمهمة في مدينة (خريبكَة) المنجمية... سألت عن أستاذ باحث متخصص في الجيولوجيا، فدُلِّيت عليك.

قلت؛ ناظرا إليه طيلة الوقت؛ مُنتظرا أن يتفوه بطلبه مني، وبحاجته التي رأى أنني ربما الوحيد المستعد لقضائها:

– لم تقصدني إلا وعندك أمل في أنني سأقوم بما تدعوني إليه.

[39] تُمثِّل مدينة (ليل؛ Lille) عاصمة منطقة شمال فرنسا؛ تقع قريبا من الحدود مع بلجيكا؛ يبلغ عدد سكانها 233.098 نسمة حسب آخر تعداد أُجري في سنة 2018.

قال، وعلامات حماس تظهر على وجهه، وعلى حركات أطرافه:

– إن الذي قصدتك من أجله لا يمكن أن يكون دعوة وتلبية لهذه، فإنه مجال بحثك العلمي، ستنهض إليه دون تردد، وستوليه أهمية أكثر مني.

ما قاله جعلني أَتّجه إليه بذهني وبانتباه وبرغبة قوية، فقلت:

– إنك تعلم تهافت العلماء على البحث في كل عنصر يُكوّن هذه الأرض، ولا يتوقفون إلا بعد أن يدرسوا المحتويات والمكونات، ويستنتجون، والوقوف على التاريخ الجيولوجي، وعلى الدافع الفيزيولوجي، ومعرفة المراحل والأحوال.

قال وهو يتعجّل الخوض في الموضوع:

– في آخر تعيين أحد الأمكنة لاستخراج الفوسفاط، وتفجيره لتسهيل جرف المادة؛ انعزلت عظام متحجرة عن الصخور والأتربة؛ وجدتها لدينوصور، فألغيت الاستمرار في العمل، وأغلقت النفق، ولم يعلم أحد آخر بما اكتُشف فيه إلا أنا.

لم يكد ينهي كلامه حتى قمت من مقعدي، واتجهت إلى الكرسي الثاني المواجه له، وجلست قائلا:

– تقول يا هذا دينوصور؟

قال برهبة:

– نعم، وطلبي أن يبقى ذلك سرا بيننا.

قلت:

– إذن فماذا تنوي أن نقوم به لإنقاذ الدينوصور.

قال:

– فكرت قبل القدوم إليك... فما هو مُسْتَخبر أن إدارة الحماية الفرنسية ستنفي سلطان المغرب إلى مكان ما يزال في طي الكتمان، وأن البلاد ستكون بعد شهور تغلي، وستُنظم مظاهرات استنكار ومقاومة، ومن المحتمل أن يستعمل فيها السلاح؛ من كلي الطرفين؛ المقاومون والمطالبون برحيل فرنسا من جهة، وجنود سلطات الاحتلال من جهة أخرى، وفي هذه الظروف أرى أنه يستحيل الاطمئنان إلى أي مكان ننقل إليه العظام المتحجرة، لذلك رأيت أن يُشحن سرا وبأمان في سفينة إلى فرنسا، ولتُتاح دراسته في مختبراتها العلمية، وبعد أن تنجح سلطة الحماية في التصدي للمقاومة، وكبح جماح المطالبين بالاستقلال،

وإجبارهم على الانتظام مجددا، فإننا نعيده إلى حيث ترى أنه سيكون في مكان يُناسب حجمه، وقيمته الأُحْفُورية، وحيث ترى أنه سيكون داخل قاعة منيعة.

قلت، وقد استمعت باهتمام إلى رأيه الصائب، والغاية من عمله ذاك:

– أنت تريد السيد (كَولبير) ألا يفارق ذلك الدينوصور البلاد التي عاش في إحدى حِقَبِها الجيولوجية، ولها الحق في أن تحتفظ به، وإنه عرفان منك بعطاء المغرب الطبيعي، وإننا نشتغل على أرضه، وما قدمنا إلى هذه البلاد إلا لنُؤدّي ما يوجبه وجودنا فيها، فللجغرافية حضور قوي.

قال (كَولبير) برزانة وبألم:

– إن هذا الدينوصور بعد أن اكتشفته؛ لم يبق في ذهني وفي باطني فقط عظاما متحجرة، إنه كائن كان يقتات على طبيعة بيئة لها شروطها ولها درجة من الوفرة؛ هي نتيجة مناخ محلي، لذلك قررت أن يبقى حيث كان وحيث وُجد مُستحاثّة.

قلت مُحدّدا دوري، وحسب خبرتي في دراسة طبقات الصخور الرسوبية، وما تحتوي عليه؛ من بقايا النباتات والحشرات والحيوانات:

– ما سنقوم به هو معاينة الدينوصور وهو ما يزال في مكانه؛ لمعرفة وضعه والتفكير في كيفية ناجحة لاستخراجه؛ ننجح بها في المحافظة على عظامه المتحجرة؛ من أي تفكك أو كسور أو تهشيم، ثم نجزّئُه، ونخصص لكل عظمة صندوقا، ثم يُشحن.

قال المراقب (كَولبير):

– إن الاطلاع الأول على مدى حجمه وعدد صناديق العظام؛ سيجعلنا نختار السفينة الملائمة؛ تتسع للدينوصور، وهذا سيكون ما سنفعله ثانية.

قلت:

– ليكن بحثنا عن السفينة بعد سفرنا الأول إلى هناك.

قال المراقب الفرنسي:

– فإني أتعجل العمل يا أستاذ، لذلك أرى أن يكون انطلاقنا إلى هناك في صباح الغد على الساعة السابعة.

قلت:

– ستجدني مُستعدا بمحفظة معدات قياس الأطوال، والرسم وتقييد المعلومات، ومطرقتي الجيولوجية.

ما إن يجلس (كَولبير) على كرسي دراجته؛ وقد حمى رأسه بالخوذة، وألْبس يديه القفازتين، ويدير المحرك، فيصدر هذا فرقعات مدوية، حتى يصبح كأنه من تلك الدراجة، وقد تعوّد على القيادة، فكان يسرع وأنا خلفه في الطريق؛ لا هذه تخذله، ولا هو يتمرد عليها فتسحقه، فيتعجل فيما لا تسمح له، أو يُبطئ من السرعة فيما تريد هي أن يخرق الريح، ويترك وراءنا الكيلومترات ينزل عدُّها، فنقترب، وتظهر علامات منطقة الفوسفاط الدّالة، وبنايات (وادزم)، التي لا ترتفع عموديا إلا قليلا، وتستقبلنا المدينة بهدوئها، وتثاقلِ الحركة فيها.

وما يزال (كَولبير) يهمز درّاجته بنا في ساحة الكنيسة، وهي تطفق تُقلع بنا من مستوى سرعة إلى أخرى، إلى أن أدار مقودها إلى يميننا وغير بعيد إلى طريق ضمَّنا؛ بين صفين من منازل أوروبية التصميم؛ يعمّه الهدوء ، وتقف فيه سيارتان متباعدتان؛ كل واحدة تقف أمام بيت من يملكها، فتح (كَولبير) باب دار وأدخل دراجته إلى بهو صغير المساحة، ودخلنا إلى حجرة مُؤثّثة بأرائك مريحة، وبعد أن تغدّينا وشربنا مشروبا؛ قال (كَولبير):

– إن البيت الذي أُداوِم السكن فيه يوجد في (خريبكَة)، أما هذا فإني أقضي فيه فقط عُطلات نهاية الأسبوع، وبعض العُطلات السّنوية؛ للراحة من عناء العمل والاستجمام، فعلى بُعد عشرات الخطوات من هنا ملعب للكرة الحديدية، وبحيرة (اللاك) يُغذيها ماء يأتي من عيون باطنية، ولا يحجز الماء أيُّ شيء؛ فيستمر في جريانه إلى الجهة الأخرى من المدينة، ويتسرب في ضفاف المجرى، فينبت العشب ونبات السمار وتخضرّ الأشجار، ومُهِّدت حول البركة ممرات حديقة، فأنت سترى واحة وسط امتداد أراض محصودة وجافة في الصيف، فتدرك ما سيجلبه ذلك من ظلال يستمرئ الإنسان السير تحتها، وتسمع صوت خرير الماء والطيور والنحل، وشيء آخر ما إن تسمعه حتى يُشعِرك فوق ما أنت فيه؛ بين المياه وخضرة النباتات؛ أنك تتمتع حقيقة بجمال الطبيعة؛ هو طنين الحشرات ونقيق الضفادع وتغاريد العصافير.

وكنا بين الساعة الخامسة وقبيل غروب الشمس من ذلك اليوم؛ نحرر أقدامنا من عجلة العمل اليومي، لننقلها ونحن في نشوة، في أي جهة من منتجع مستنقع ماء العين، إنه أنسب مكان وأجمله لقضاء وقت في الصباح أو في المساء؛ خاصة في قيظ صيف هذه المنطقة.

عدنا -وهذا أحسن مما يُعبّر به- إلى بيت استجمام المراقب (كَولبير)، وظل الدينوصور هو موضوع حديثنا؛ نخطط له ونتصوره وما يحتمل، فكل عمل قد يفشل أو ينجح، والذي ألححناه على أنفسنا وأكدنا عليه، هو أن نحافظ على سرية الاكتشاف، وأن نتظاهر بغير ما يشغل تفكيرنا، ونحن نبحث عن وسيلة نقل بَحْرية تُناسب حمل الدينوصور إلى الخارج، وتساءلنا عن شكلها؛ أتكون مركبَ ترفيه شراعي، أو سفينةَ نقل البضائع، أو فرقاطةً من أسطول حربي؟ والقبطان؛ من هو ذلك الذي نستأمنه، ويساعدنا بكل ما في استطاعته أن يُبقي ما في الصناديق التي ستُوضع في مركبه سرا بيننا نحن الثلاثة فقط؟

خلت أزقة وشوارع (وادزم) من الناس؛ بعد الحادية عشرة ليلا؛ إلا البعض منهم الذين يُؤخّرهم شغل، وما يزالون يستضيئون بأنوار مصابيح مقهى أو دكان، أو باستضاءة مصابيح أعمدة الأرصفة، فنهضنا وخرجنا، وبعد أن أقفل (كَولبير) باب بيته الاصطيافي؛ ركبنا الدراجة، ولم يصرف (كَولبير) أيُّ شيء؛ غير مألوف يظهر في الطريق؛ عن القيادة التي يبرع فيها بدراجته تلك، وغادرنا المدينة، ولم نسر في الطريق المؤدّية إلى (خريبكَة)، وتلك التي انبسطت أمامنا كانت في اتجاه الجنوب الغربي للمدينة؛ متآكلة الجانبين، وخشنة؛ كان يُسمع صوت احتكاك مطاط العجلتين بالحصى، الذي ينتأ من الزّفت اليابس، ويُفاجِئُني (كَولبير) بتلك الانعطافة المرنة إلى اليسار؛ إلى مِسرب طَحَنَت تُربتَه حوافر الدواب وأظلاف الماشية، وعجلات عربات القرويين، وسرنا إلى منخفض تُحيط به من الجوانب الثلاثة أجراف صخرية؛ في أحد هذه المدخل، وفي داخل النفق وقفت مُتأمِّلا عظام الدينوصور المتحجرة؛ بارزة من الأتربة والحجارة؛ منها ما هو سالم، ومنها ما هو متضرر، ويحتاج إلى ترميم، وقمت بفحص البعض منها، ولم يتطلب ذلك ترددا مني أو وقتا طويلا؛ فقد عرفت من أي نوع ذلك الدينوصور، ولم أجد أي صعوبة في رسمه بالهيكل الكامل، وعددت للسيد

(كَولبير) كم من عظمة، وكم من صندوق خشبي يخصص لكل واحدة منها، وكان هو دائما يتحرك من مكان إلى آخر، برزانة عامل مناجم، ويُصدر أمرا واحدا لا غير؛ قائلا:

– أسرع يا أستاذ؛ فالذي اكتشفناه ونعمل باجتهاد لنقله إلى خارج بلاده؛ سيدفع المحتالين واللصوص، وعصابات الاتجار في المستحاثات والصحفيين؛ أن يُغيروا علينا، فتفشل محاولتُنا.

لم يبق أي عمل آخر لأستمهله عليه، فقلت:

– إذا كان البحث عن السفينة هي العمل التالي كما اتفقنا؛ فإني متحمس لذلك، وإني لما رأيت اكتشافك العظيم غدوت في مثل اهتمامك به، ومسؤولا عن المحافظة عليه من أي ضياع أو استيلاء، ولا نكون مثل أولئك الذين حالفهم الحظ، فنقَّبوا ليعثروا على عظام أقدم إنسان، والذي عُرِف بإنسان (بيكين)، ثم ضاعت من بين أيديهم؛ في ظروف غامضة، فجمجمة ذلك الإنسان هي الآن مفقودة منذ سبعة عقود[40].

لم نرجع إلى (وادزم)، وسِرنا بعد أن برحنا منخفض الأبراج الصخرية والمسرب التَّرِب؛ في نفس الطريق الذي أتينا منه؛ أوصلنا إلى (خريبكَة)، وفي منزل (كَولبير) بهذه المدينة ركن دراجته، وفي الصباح استقلنا سيارته، وغُصنا في طريق الأسفلت المصقول، والذي يلمع تحت وهج الشمس، والمتجه إلى مدينة (الدارالبيضاء).

أطَلت النظر في السيد (كَولبير) وهو يقود السيارة في شارع (الزرقطوني)، وينعطف إلى يمينه، ويوقف السيارة على جانب الرصيف؛ إذ لحظت أنه يتريّث عكس ما كان عليه، وهو يقول:

– نحجز أولا غرفة للمبيت بفندق، ونتوجه إلى مقهى للغِذاء، فعملنا بهذه المدينة يتوجب منا المضي بتفكير مُتأنّ، ونختار إلى من سنتحدث إليه، لأن أخلاطا من الناس تسكنها، ثم نقصد الميناء في المساء.

---

[40] المقصود هنا هياكل إنسان (بيكين) القديم التي عُثر عليها في الصين؛ قريبا من العاصمة (بيكين)، وفُقِدت في خضم الحرب العالمية الثانية، ولم يُعثر عليها حتى الآن.

فذهابنا إلى أرصفة رسو البواخر والسفن ومراكب الصيد؛ كان بعد حجز غرفة بالنُّزُل والغذاء، والاضطجاع على الأسرة التماسا للدّعة والاسترخاء. سار السيد (كَولبير) في أرصفة الميناء، وأنا أتبعه، وهو يقرأ أسماء السفن والقوارب، ويرفع رأسه إلى أعلى كابينات القيادة، وإلى الصّواري؛ ناظرا إلى الأعلام التي يُحرِّكها نسيم البحر؛ ليعرف من خلالها من أي بلد أبحر هذا المركب أو ذاك. فرز بعينيه، وبنظرات منهما رزينة سفينة يُرفرف عليه علم فرنسا؛ ذو الألوان الرمزية الثلاثة، اسمها (أطلنتيس)، وقال:

– ليس لأنها فرنسية، ولكن مظهرها الخارجي، والذي اكتسبته لا يدل إلا على أنها تُبحِر إلى حدود خط الاستواء، وإلى جنوب هذا الخط؛ في المحيط الأطلنتي الجنوبي، لنسأل عن بحّارها.

كانت مخازن الميناء في ذلك الوقت قد أقفرت من العمال، وخمدت آلات رفع صناديق الشحن العملاقة، وأرخت أذرُعها المتحركة؛ كأنها نائمة، وقد زحف الليل، فلا تُضاء الأمكنة إلا بمصابيح باهتة، وكانت نوافذ حجرات المراكب الدائرية والمواربة الدفات، هي التي تكشف عمن يكون بالداخل على ضوء مصابيح، وتلك التي ما تزال في وسط البحر؛ ربما تنتظر دورها لترسو للإفراغ أو للشحن، تبدو من بعيد أضواءً متفرقة كنجوم في سماء مظلمة. كان هذا الوقت مُناسبا للسير في الرصيف الخالي، والتقدمِ بخطوات خفيفة إلى السفينة للالتقاء بقائدها.

وهل بدا لنا من أن لا أحد يتابع قدومنا هو ما كان فعلا؟ فعلى ظهر السفينة كان شخص –استحضرته فيما بعد؛ بعد أن تطورت الأحداث– مُتكئا على حاجز السفينة؛ مُنعزلا بهمومه في ظلام وسكون الليل؛ قد رأى من بعيد شبحينا، ثم كشفت له الأضواء عنا، فعرف أننا لسنا من بحارة السفينة، ولا من عمال وموظفي الميناء، ولم يفارق مكانه، أما نحن فربما لم نشاهده أو لم لن نُعِر إليه أي اهتمام، واستمر هو في تحليل مِشيتنا الظرفية، وفي دُنوّنا غير متردد، واندفاعنا المتزن، واستنتج أننا نُثابر ودون التفاتة؛ إلى أن نصعد إلى ظهر المركب للاجتماع بالقبطان، ونحن اتجهنا إلى الجسر المتحرك؛ الذي يصل ما بين الرصيف والسفينة، وسمعنا وطء أقدامنا عليه، وهو صرير خشبه تحت ثقلينا،

ونظرنا إلى كوة مقصورة القبطان؛ التي كان الضوء يظهر منها، ودق السيد (كَولبير) الباب، فسمعنا صوتا يرُدّ؛ يُؤذِن بالدخول.

فدفع (كَولبير) باب الكابينة القصير ودلف، وأنا كظله أتبعه، فرفع إلينا رجل في زي البحري الأبيض عينيه، ما يزال جالسا إلى مكتبه يعمل حتى تلك الساعة؛ مُرحِّبا بنا، ودعانا إلى الجلوس.

وكان بعد الذي حدث؛ فيما أتى من أوقات تحضير عمل نقل الدينوصور، وأعدنا بناء الحدث؛ عرفنا أن ذلك الرجل، وما إن دخلنا إلى مقصورة القبطان؛ حتى خطا بمهل ودنا من الكوة الخشبية، ولم يُحدث بحذائه وقعا يُلفت الأسماع، وظل يسترقّ سمع ما يدور حوله حديثُنا مع القبطان.

قدّرت عُمُر بحار سفينة (أطلنتيس) بما فوق الخمسين؛ هادئ ولا يتكلم كثيرا، ويوجز فيما يجيب عليه، وفيما يقوله هو، ومن مَلمحِه ونظراته تبيّنت أن رأسه مخزون ثقافة تكوَّن لديه؛ من اتصاله المباشر بأهوال البحار والمحيطات، والمضايق والمعابر البحرية، وبشعوب وقبائل ما وراء البحار، ولم تخنه ملاحظته بأن قدومَنا لم يكن من أجل ما هو مُعتاد، وإنما لشيء آخر نادر الحدوث؛ يُستثنى من كل ذلك، فكان مُستعدّا لسماعِنا.

كنت أول من بدأ بالكلام، فقلت:

– إن الغرض الذي جئنا إليك من أجله، هو نجاحنا في إنجاز العمل، وإلا فهناك صعوبة.

قال:

– تأكدا أنني سأنفِّذ ما تطلبان مني، ولكن لن يكون طبعا فوق استطاعتي.

قلت:

– رأينا أن سفينتك أنسبُ، ولا ندري أهي في خط الإبحار إلى فرنسا، أم ما تزال في رحلتها إلى البحار الجنوبية؟

نطق بكلام ينمّ عن إتقان لعمله؛ حيث قال:

– كنا في رحلة العودة من (البرازيل)؛ في مياه الجهة الأخرى الغربية من المحيط الأطلنتي، لكن عاصفة بحرية كادت أن تغرق سفينتنا، فغيرنا اتجاهنا إلى جزر (مادير)، ومن هذه إلى ميناء (الدار البيضاء)، ولإصلاح عُطُب طالما حصلت

في محركات الدفع، وما نستورده في سفرنا البحري من البرازيل هو أكياس من بذور الكاكاو؛ التي هي خام للمهنيين الفرنسيين؛ صُنّاع تركيبة الشوكولاطة.

أخرجت من جيبي ورقة رسم الدينوصور، وبسطتها أمام عينيه، ولم أتفوه بأي كلمة، وهو صار ينظر في كل ما احتوت عليه، من رسم يُفصّل الهيكل العظمي، وكيفية تقسيمه إلى عظام؛ كل عظمة تستقل بصندوقها، ويقرأ في نفس الوقت ما يشير إلى كل ذلك.

قال (كَولبير) مُحاوِلا أن يجعل ذهن القبطان يستجمع خيوط ما يحدث بالضبط:

– إنه دينوصور؛ ما يزال هيكله العظمي في المكان الذي عثرت عليه فيه، وقد تُشارِكُنا فيما نفعل من أجل المحافظة عليه؛ من أن تمتد إليه أيدي من لا يرى فيه إلا سلعة تُشترى وتُباع، ومن لا يعي بقيمته العلمية، والذي فكرت فيه أن المغرب وللاضطرابات المنتظر حدوثها بعد نفي (محمد بن يوسف)[41]؛ لن يكون مُؤهلا لاستقبال مثل هذه المستحاثة، لذلك رأيت أن تُشحن إلى فرنسا، لتُحفظ وتُدرس بطرق وأجهزة علمية متطورة، ثم بعد أن يستقر الوضع نُعيدها، وسيبقى الأستاذ (شارل) وهو باحث جيولوجي في (المعهد العلمي الشريفي)؛ هو المحافظ الخاص بهذا الدينوصور.

نهض القبطان من مكتبه؛ مُتناوِلا الورقة في يده، وخطا وعيناه مشدودتان إلى شكل الدينوصور، ثم عاد وجلس قائلا:

– إن لهذا الدينوصور مكان آمن في سفينتي؛ لا يمكن بتاتا أن يبقى هذا الموروث الإحاثي نهبا للجشِعين، أو يتعرض للإهمال والضياع. إنها عظام لحيوان انقرض، ويعطي أجوبة لأسئلة كثيرة، وتتفرع عن دراسةٍ أفكارٌ واستنتاجات علمية. كانت له البيئة التي عاش فيها، ولمناخ الكرة الأرضية تغيرات وفترات؛ هل ثلاثة أيام كافية لكما ليكون هنا مُعدًّا للنقل؟

أجاب (كَولبير) بثقة مُنفّذ خُطَط:

---

[41] هو المغفور له محمد الخامس (1909م- 1961م)، وقد ورد هنا باسمه الشخصي واسم والده؛ لأنه لم تأت بعد فترة الاستقلال؛ وهذا من صيغ المؤرخين الذين يضبطون الأسماء وفقا لفتراتها التاريخية.

– نعم؛ وسيكون كل شيء في عملنا مُحْكما؛ سواء تحديد الأوقات، أو ما ننقله من هنالك.

نظر القبطان إلي طويلا بتفكر، ثم قال:

– أتستأمن جيوبك والأمكنة التي تجوبها؟

سألت مُمعِنا في الإيضاح:

– على ماذا؟

قال القبطان مُجيبا:

– ورقة رسم الدينوصور هذه ... مَزّقْها حتى لا تقع في يد أحد.

قلت:

–لم أفكر في مدى خطورتها على عملنا.

ومَزّقت الورقة إلى قطع، ورميت بها في سلة التخلص من أوراق التّسويد وغيرها.

ونهضنا جميعا من كراسينا، وشيء واحد يأخذ بتفكيرنا ألا وهو الدينوصور، وخاطبت والسيد (كَولبير) القبطانَ بكلمات امتنان واحترام، وهو يُهنئنا على إنجاز عمل تَحمّس للمساعدة في القيام به، وعَدّه إنجازا مهنيا يتباهى به، ثم تركناه يعود متابعا عمله.

لم يصل إلى مسامعنا وقع أقدام ذلك المُتسمِّع، والأرجح أنه ابتعد وتوارى عن أي أحد يمكن أن يراه، وهو يرى باب القُمرة يُفتح، وينفلت الضوء مُنبسِطا على سطح السفينة، ويرى ذانك الرجلين اللذين دخلا منذ مدة من الوقت، واجتمعا بالقبطان؛ يغادران السفينة، ولم يبق القبطان إلا وقتا يُنهِي فيه ما لا يُؤجّل، ويُرتِّب ما سيتابع العمل فيه في الغد، وبرح مكتبه مُتّجها إلى مكان نومه.

ولما سكنت الحركة في السفينة؛ إذ كان قد آوى عدد من البحارة إلى مضاجِعِهِم، والبعض الآخر ما يزالون في سهر في مقاهي وأندية المدينة الليلية؛ اتجه ذلك الرجل إلى غرفة القبطان، ويتساءل القارئ: من يكون هذا حتى يوجد على سطح السفينة، ويُسمح له بالدخول إلى كابينات السفينة؟

فأجيب وبعد أن تحرينا حقيقته فيما بعد؛ أنه مُنظِّف، وقد اعتاد جميع من يعمل في الميناء، ومن يرسو من القباطنة والبحارة؛ من مختلف البلدان

والجنسيات؛ أن يشاهدوه قابضا بمكنسته، وسطل حديديّ، ومنشفة مياه، وهو يعرض خدمته، وهم لا يعترضون على عمله، ولا يمانعونه ذلك، ويُنقدونه بعض الدراهم، لأن ذلك العمل هو ما يسترزق به.

وكانت أذناه قد التقطت، وعبر النافذة الدائرية؛ ما اجتمعنا عليه نحن الثلاثة، وربما لم يفهم آنذاك المراد من تلك الورقة، أو مرّ ذكرها على سمعه ولم يفهم ما دار حولها من حديث، وهل يمكن أن تكون خطرا على العمل الذي سنُقدِم عليه.

كان أول ما يبدأ به هو إفراغ الأوراق المطروحة، وبفضول كان يُقلب المُكرشة منها والمقطعة، وكانت قِطع رسم الدينوصور هي آخر ما انتثر فوق الأوراق، فتناول كُتلتها الممزقة، وجمع الباقي منها واحدة واحدة، ثم فحصها، وإلا لما عرف ما رُسم عليها، وما كُتب عليها من الكلمات المُبيّنة، فأودعها أحد جيوب لباس العمل، وتابع الكنس وإزالة الغبار والتنظيف بالماء، وغادر غرفة القبطان إلى غرفة أخرى كما اعتاد، ولم يمض في ذلك العمل وقتا طويلا، فقد سار في الرصيف، ثم ترك الميناء خلفه غاطسا في الظلمة والسكون، واتجه إلى مقهى؛ لأنه لا يغيب عنه أن شخصا سيكون ما يزال في سهر ليلي مع البحارة وربابنة السفن في مَقصف، يلهو مع هؤلاء، ويسمع منهم الأخبار، وما يحكون وما يقصون عن سفراتهم الطويلة في البحر.

لماذا اهتدى إليه؟

هو الإسباني (خوليو)؛ الذي يُتاجِر في كل ما تحتاجه السفن التجارية ومراكب الصيد؛ من زيوت ومِصفات المحركات، والشِّباك، والصنانير والأسماك القصديرية التوهيمية، وطعوم الاصطياد، من هذه المواد ما يُهرّب له في السفن الآتية من أوروبا، ومنها ما يشتريه من متاجر (الدارالبيضاء). كان يعمل بحارا بإحدى سفن الصيد الإسبانية، وفي أحد الأيام ضمه بَرُّ المغرب بحنان، ولما برِم من العمل البحري الشاق على ظهر السفن؛ لم يترك أرصفة الميناء، وصار وفي أول تجارته؛ يبيع مستلزمات الصيد إلى صغار الصيادين، ثم تطور عمله إلى تهريب تلك السلع من خارج المغرب، وتلك السفن والمراكب التي يعرف بحارتها حقا؛ وسيلة تُيسِّر له ذلك.

من باب المقهى التقت عينا المنظف بعيني المهرب الإسباني؛ في إحدى التفاتات من هذا الأخير، ليَفطِن إلى ذلك البريق غير المألوف، الذي يظهر في عيني المنظف؛ كأنه يدعوه، وعليه أن ينهض، فسار نحوه، واختليا في زاوية بيتين متعامدي الجدارين؛ قال المنظف وهو يُخرِج قطع الورق من جيبه ويمد بها إلى الإسباني:

– في سلة مكتب قبطان سفينة (أطلنتيس) وجدت هاته الورقة المقطعة.

فصل الإسباني القطع بعضها عن بعض بأصابعه الغليظة والقوية، وحاول أن يرى بوضوح تحت ضوء فانوس العمود رسوماتها المتقطعة، وضم البعض منها إلى البعض الآخر، ليتشكل جزء من الدينوصور، فنطق أخيرا:

– إنه مُستحاثّة دينوصور.

ولم تغفل عنهما عين ذلك العامل بإحدى السفن الذي استخبرناه، الذي نقل السر إلى بحار آخر، وهذا أخبر به قبطان (أطلنتيس)، الذي دلنا على الأول، وكان من بين المقصفين، وكان قد أثار انتباهه اختلاء الاثنين المنظف والإسباني، وهما يقصدان بيتا من ثلاث طوابق؛ به غرفة يقيم فيها المهرب، فتبعهما وتصنّت، فهناك كما قال جمعا مِزق[42] الورقة بشريط لاصق، فانبسطت الورقة بكاملها أمامهما.

قال الإسباني وقد انبهرت ملامحه، وباندفاع تاجر عثر وبالصدفة على صفقة رابحة يَثرى بها:

– إنها تساوي الملايين يا صاحبي. هل تعلم كم سيمنح هذا الهيكل العظمي من المال الكثير؛ إنه لشيء نادر، قد لا يُعثر على مثله في تضاريس الكرة الأرضية. سأقطع طريق من استهواه هذا الدينوصور، ويريد أن يكون له دون غيره، قلتَ يا هذا أن هذه القطع الورقية كانت في مكتب قبطان سفينة (أطلنتيس)؟

أجاب المنظف قائلا للمرة الثانية:

– بعد لقائه بشخصين؛ لم يسبق لي أن رأيتهما من قبل في الميناء.

---

[42] جمع مِزقة، وهي قطعة من شيء ممزق.

سأله الإسباني وهو ينظر بهدوء، وباستفهام عميق:

– تعرفهما من قوامِهما ولباسِهما، واللغة التي يتكلمان بها.

قال المنظف:

– كما ظهر لي فإنهما فرنسيان؛ أحدهما ذو جسم قوي طويل، وعريض؛ لفحت وجهه أشعة شمس منطقة قارية، والآخر يبدو أنه من الكَتَبة؛ يقضي الأوقات الرسمية في مكتبه.

قال الإسباني:

– إن أهم ما هو مكتوب في هذه الورقة بالنسبة لنا هو المكان الذي يوجد فيه الدينوصور؛ إنه ما بين مدينتي (خريبكَة) و(وادزم)؛ غير بعيد عن مدينة صغيرة اسمها (بولنوار).

قال المنظف:

– ذلك ما سمعت منهما، وأنهما وفي ظرف ثلاثة أيام سينقلان العظام المتحجرة إلى الميناء؛ ليُحمل إلى فرنسا.

قال الإسباني بصوت منخفض، وبتركيز ذهن من هو ذو ثقة بما يخطّط وينفّذ:

– لن يسافر ذلك الدينوصور إلى الشمال؛ إلى فرنسا، بل ستأخذه تيارات البحار الجنوبية في رحلة إلى أمريكا اللاتينية.

والتفت إلى المنظف الذي ظل مشدوها؛ ثابت النظر بما سمع، ولم ينطق بأي كلمة وقال:

– سيكون لك الربع مما سنكسبه من مال من بيع ذلك الدينوصور.

لم يقاوم المنظف جشعه وسأل:

– ... والربعان الآخران؟

أجاب الإسباني:

– لقائد السفينة التي ستُبحِر به إلى ما وراء خط الإستواء؛ إلى أقصى جنوب المحيط الأطلنتي، ولآخر يُساعدنا، ومُتدرب على السياقة، ليقود الشاحنة المعينة لنقل عظام الدينوصور في طرق المنعطفات؛ بعد الاستيلاء عليها طبعا، وقد انتهى دورك، فلن تتنقل معنا، الخطة تتطلب ذلك.

ثم بعد لحظات تفكير سأله:

– السفينة الشراعية الأرجنتينية ذات السّواري الثلاثة؛ أما زالت راسية على الرصيف؟

أجاب المنظف:

– نعم؛ لقد كانت في رحلة بحرية في البحر الأبيض المتوسط؛ لتُلقي بمرساتها كما كان مبرمجا لها؛ في مراس وجزر ومدن العالم القديم؛ كالإسكندرية وطَرسوس وصُور وميناء قبرص وجزيرة رودس وجزيرة كريت وصقلية وموانئ اليونان والبندقية وسردينيا ومارسيليا وقادس[43]، ولما خرجت من الحوض المتوسط عبر أعمدة (هرقل)؛ في خط إبحار عودتها إلى وطنها؛ رست في ميناء (الدار البيضاء)؛ للتزود بماء الشرب ولصيانة مُعدّاتها، وسيكون هو ميناء انطلاقها في رحلة عبور المحيط الأطلنتي الطويلة.

تحفزت عينا الآخر ببريق، وقال بهدوء:

– ذلك ما فكرت فيه عندما أطْلَعتْنا المِزْقات[44] على وجود عظام دينوصور متحجرة غير بعيد عن مدينة (خريبكَة).

سأله المنظف قائلا:

– هل سيُقدِم قبطان السفينة على مُشاركتنا، وحتى إذا وافق هل سيرضى بالقسمة؟

قال المهرب الإسباني:

– سأُقنِعُه بما سنحصل عليه من عرض تلك العظام؛ على تُجار المستحاثات، وإن هذا الدينوصور لفرصة لن تسنح لنا مرة أخرى.

لم يُبلّغ بهما ذلك المتسّمع، لأن حياته ستكون في خطر.

من المؤكد أنهما اجتمعا بالسائق وبالقبطان الأرجنتيني، واتفقا معهما على أن يستعينوا ببعضهم البعض على الاستيلاء على الدينوصور، وتوافقوا على تقسيم الغنيمة إلى أربعة أقساط؛ حتى لا ينفرد أحدهم بحصة الأسد وبالقوة، فيوشي الآخرون به، فيُزج بالجميع في السجن، لذلك لم يستأمن أحدهم الآخر، وإلا لما وُجد ثلاثة منهم في مكان المستحاثة، وفي ساعة نقل الدينوصور المعينة.

---

[43] هذه جزر ومدن عالم البحر الأبيض المتوسط القديم.

[44] قطع الورق الممزق.

وفي أثناء ذلك الوقت الذي اجتمعوا فيه اختاروا –ومن بين الشواطئ الرملية المتفرقة على طول ساحل المحيط الممتد من (الرباط) إلى (الدار البيضاء)– أحدَها يكون مُناسبا من حيث بُعْدِه عن عُمران المدينتين الساحليتين، ولا يَطْرُقه إلا القليل من الناس، ولا يخضع لمراقبة دورية من طرف رجال الدرك إلا نادراً؛ فكان هو شاطئ (كَيفيل؛ Guyville)[45] الرملي، وقُبالَتَه وفي وسط البحر سترسو السفينة الشراعية الأرجنتينية، وإليها سينقل قارِب بمحرك مُوجِّه المستحاثّة، وهذه ستكون قد أُفرِغت شاحنة منها؛ سيُستوْلى عليها وهي تُحمّل بصناديق العظام؛ أمام مدخل النفق الذي عُثر عليها فيه، وستسير في طريق مُعبّد؛ درسوه على الخريطة؛ ينطلق من هناك ليأخذ ذلك الذاهب إلى (خريبكَة)، إلا أنها ستنحرف يمينا إلى قرية (الكَفاف)[46]، ومنها ستستمر إلى أن تميل إلى يسارها في الطريق المتجه إلى مدينتي (زحيليكَة) و(الرُمّاني)، ومن هذه الأخيرة ستأخذ الطريق الذي يتجه إلى مفترق الطرق عند وادي (كريفلة)، ومنه إلى (سيدي يحيى زعير)، ثم تنعطق إلى اليسار إلى طريق (عين عتيق)، وما بعدها ستنحرف إلى اليمين في الطريق الساحلية الرابطة بين (الدار البيضاء) و(الرباط)؛ لتنعطف يمينا وتتجه إلى شاطئ (كَيفيل)، وقد رسم القبطان الأرجنتيني خط سير الشاحنة على خريطة؛ طواها بعد ذلك وأعطاها إلى الإسباني الذي أدخلها في حافظة جلدية صغيرة؛ لا يسهو عنها أبدا، ولا يدعها تُفارقُه.

لم يكن شيئاً آخر سيشغل بالنا أنا والسيد (كَولبير) إلا آخر ما نطق به قبطان سفينة (أطلنتيس)؛ سائلا عمّا إذا كانت ثلاثة أيام كافية للحفر عن الكائن المُتحجِّر، ونفض التراب عن كل عظمة منه، ووضعها في صندوق، ويزداد عدد الصناديق حسب كَمْ من عظمة، ونقلِها بشاحنة إلى رصيف ميناء (الدار البيضاء)، فعُدْنا في نفس ليل ذلك اليوم إلى (وادزم)؛ كانت الطريق ما بين الساعتين الحادية عشرة والواحدة تكاد تكون خالية، فلا أحسب إلا أن السيارة التي نركبها هي الوحيدة التي تُصدر ذلك الهدير المستمر؛ في سكون ليل تلك

---

[45] شاطئ رملي يوجد بمدينة (تمارة).

[46] قرية بها محطة قطار؛ توجد إلى الجنوب الشرقي من مدينة خريبكَة، أو بين الطريق الفاصلة بين (واد زم) و(خريبكَة).

الجهة التي تتباعد مساكنها وقراها مسافات طويلة، ومُظلمة ورهيبة؛ لا يُسمع فيها صوت ترتفع به حنجرة إنسان، أو عقيرة حيوان، ولن أنسى ذلك الشعور الفريد الذي شملني، ولم يتملكني مثله من قبل؛ إنه الشعور بخوف من بَرز لتحمل المسؤولية؛ أثاره طريق الليل الموحش، ومكان المُستحاثّة الذي كان في خيالي يكتنفه الظلام، والتوجس من أن أحدا يقتفي أثرنا.

لم يَرفِقْ (كَولبير) بسيارته حتى انعطف بها إلى زقاق، وكبح عجلاتها أمام بيته الذي بتنا فيه بقية ساعات الليل، وفي الصباح أخبرني (كَولبير) قائلا:

– إننا نحتاج إلى شخص يساعدنا، ويحمي في آن ظهرينا ونحن في النفق نستخرج الدينوصور، وقد اخترت أحدا وهو مغربي؛ قوي وجلْد وصبور وكتوم؛ اسمه (العَرْبِي)؛ خدم معي مدة خمسة عشر عاما؛ إنه يسكن بالبادية؛ إلى الجنوب الغربي من (وادزم)؛ على بعد خمس كيلومترات. سأذهب إليه في مساء هذا اليوم بعد الانتهاء من العمل؛ ليكون مُستعدا في ليل يوم الأحد.

لم ينتظر مني أي كلام وخرج، ثم سمعته يقود دراجته النارية إلى خارج البيت، ويُشغّلها وينطلق بها هادرة.

بعد غروب شمس يوم الأحد ركبنا الدراجة النارية في اتجاه ذلك المنخفض الخالي؛ تنتصب حوله أجراف صخرية وما بعدها الهضبة، وفي أحدها مدخل النفق؛ ترجلت أنا ومشيت في الداخل. أما (كَولبير) فإنه قاد شاحنة كانت هناك، وسلك طريقا آخر ذاهبا في اتجاه (خريبكَة). عاد بعد نصف ساعة ومعه (العَرْبِي)، فشرعنا في العمل بعد أن حدد (كَولبير) لكل منا دوره. كنا نعمل في صمت؛ لا نسمع غير دقات شفرة المعول والمِجرفة، وأصوات وطء قدمي (كَولبير) الذاهبتين والآيِبتين؛ كان ثقل الصناديق وثقل جسمه الضخم يُربِكان قدميه المنتعِلتين بإحكام وبقوة؛ يجعلانهما يدكّان الحجر والتراب، وكنت أسمع هنالك صوت احتكاك الصناديق بصفيحة الشاحنة؛ عندما يدفع بها (العربي) بمهارة العامل الدؤوبة.

كُنّا مُنْهمِكِين على العمل، ومُنصرِفين عن التفكير في أي شيء آخر، وبالُنا مُنصبّ على أن ننتهي من العمل، ولن نرتاح إلا بعد أن يكون الدينوصور في طريقه إلى ميناء (الدار البيضاء).

كنا قد اسْتَكنّا وبشغف إلى ما نقوم به، وشعرنا باطمئنان، وبأننا في مأمن، وفي الحقيقة خُدِعنا، فليس جميع ما يحدث بأيدينا، ففي ذلك المكان المُتحجِّر، وبين ركام التراب، وبين حجارة قد يصل عرضها عرض (كَولبير)، وطولها أكثر من متر، وبجُهدنا العَرِق وبأيدينا المتربة؛ برز من حائط النفق رجل بوجه جاف، وبعينين تُرسلان نظرات حادة؛ أسرع وبحركة مخطط لها من قبل؛ فقبض على نصل المجرفة الخشبي، ورفعها عاليا ضاربا بحديدها رأس (كَولبير)، فارتج هذا وانهار على الأرض، وحاول النهوض، فكان يتمايل خائر القوة، ولم يمهله ضاربُه، فأدار حول جِذْعِه حبلا مفتولا، وقيّد يديه إلى الخلف. حاولت أن أدفع المهاجم بيدي العاجزتين؛ اللتين لم تتعودا على الإمساك بشيء آخر سوى الأقلام؛ لكني تلقيت لكمة قاسية على وجهي من يد قوية؛ لم أدر من أين جاء صاحبها، فسقطتُ على وجهي؛ على التراب والحصى والعظام المتحجرة، فلم أعد أرى ما كان يجري؛ ما أحسست به هو يدي وهما تُربطان إلى الخلف وبإحكام؛ بحبل استغربت متانته وألمه، فأدركت وأنا أستحضره من حين لآخر أنه من حبال أشرعة السفن، وتحركت جالسا؛ رأيت قدمي وهما تُوثّقان كذلك، وحاولت النظر في الشخصين المجهولين، فلم أشاهد غير وجهين صارمين ومُتعجِّلين، فأي حركة منّي ومن (كَولبير) يُشك فيها تُعرّضنا إلى القتل، ثم بعد هذا رأيت أحدهما يضرب (كَولبير) بقدمه ضربة قوية أدت به إلى الانبطاح على الأرض، فصار الضارب يفتش في جيوب (كَولبير)؛ حتى أخرج من أحدها مفاتيح الشاحنة، فسار بضع خطوات ورمى بها إلى مدخل النفق، فسمعت تهديدا من شخص ثالث في الخارج يُوجّه إلى (العربي)؛ برفع المفاتيح من الأرض وتسليمها إليه، ووصل إلى آذاننا جميعا صوت تشغيل المحرك، وتحركت الشاحنة مُبتعدة بهديرها في هدوء الليل.

كان (العربي) ثالثنا، والذي وُفق (كَولبير) في اختياره حسب ما حدث في الدقائق التالية؛ فقد قام بدور المنقذ لنا من هذين الهاجمين، واللذين وإن توصلا حسب ما يقتضيه الموقف؛ إلى أن تصفيتنا ستمهد لهما الطريق إلى الاستيلاء على الدينوصور، فلن يتأخرا على فعل ذلك. خرج أحدهما من النفق يريد أن يتعقب (العربي)، غير أن هذا وكما خمنت اختفى، لأنه بحزم ابن المنطقة، ويعرف

المنافذ إلى المنجم، وظهر من نفق آخر في وقت كان قد دب فيه خلاف بين الشخصين، بحيث أراد أحدهما أن يضغط على الآخر لمراجعة القسمة، وإقصاء منظف السفن منها، كما أدركت فيما بعد، ففك (العربي) قيود (كَولبير) مُستغلاّ انحصار الضوء عنا؛ مُناوِلا إياه مُسدّسا، فقام (كَولبير) هائجا وأردى أحد الرجلين قتيلا، وعدا الآخر بلا هوادة في ظلمات الأنفاق يحاول الانفلات من الرصاص.

وغاب (كَولبير) بدراجته النارية السريعة طيلة ساعات الليل تقريبا؛ في أثر ذلك الذي قاد الشاحنة، ولما عاد حملنا جثة القتيل إلى (وادزم) لتُدفن في مقبرة الموتى المسيحيين.

في بيت (العربي) نفضنا محفظة الرجل الذي قُتل، وكان مما عثرنا عليه ورقة مِزق الدينوصور، فعرفنا أن أحدا كانت قد اقتنصتنا عيناه ونحن مُجتمِعين بالقبطان في غرفته، وسمعت أذناه ما دار من حديث حول الدينوصور، وكان أول ما فعلناه بعد أن برحنا (العربي)، ودون تأخر، وقد دفع إليه (كَولبير) بالمحفظة المحتوية على الورقة، وأيضا المسدس؛ آمرا إياه بدفنها في مكان مجهول؛ فلا تصل إليها يد أحد؛ هو أننا ركبنا السيارة، وكان (كَولبير) قد تهيأ بكل ما اكتسب من خبرة ودُربة في السياقة، فغدا يمرق بالسيارة في الطريق الملتوية؛ بين الانعطافات التلية ومنحدرات السفوح؛ إلى أن سطعت علينا شمس صباح ربيعية، ونحن ندنو من بين بيوت الاصطياف من شاطئ (كَيفيل)، فأنعشنا نسيم البحر، أذهب عنا إلى حد ما أثر رُعب الليلة الماضية، أو كاد أن يُنسينا ما حدث، وفي مِرأب أحد البيوت المهجورة؛ خَرِب السقف كانت شاحنة الدينوصور تنتظر قُدومَنا؛ راسية على عجلاتها، وهناك بعيدا في نهاية الزقاق الرملي كان شخص يختلس إلينا النظر، سألت عنه (كَولبير)، أجابني بأنه حارس مغربي؛ لا يهتم ولا يدرك ما يجري؛ كان قد أعطاه بعض المال ليحرس الشاحنة.

تساءلت بيني وبين نفسي حينذاك: «كيف استطاع (كَولبير) أن يسترجع الشاحنة؟» لم أتفوه بأي سؤال؛ لهول ما كنت في خضم حدث محاولة الاستيلاء على الدينوصور الدّامي، و ظل هو صامتا؛ وأمرني بإشارة من رأسه بالصعود إلى جانبه في الشاحنة؛ قاد هذه في طريق أدى بنا إلى مكان قريب من وادي (أبي

رقراق)؛ إلى استغلالية أحد الفرنسيين الفلاحية؛ مبنية سقوف بيوتها ومخازنها وحظائرها بالقرميد الأحمر، وفي قبو تحت الأرض وضعنا صناديق العظام، وتركناها وصعدنا الدرجات المفضية إلى الأعلى، ومنها إلى ساحة يجوبها الدجاج والبط وكلب صيد سلوقي؛ ويرتفع من الحظائر والإسطبلات خوار البقر الحلوب وصهيل الأحصنة. قد أوضحت على خريطةٍ السّبيل إلى هذه العظام من الهيكل المتحجر، أما الأخرى المُبينة لتلك التي ما تزال مطمورة في النفق المُفجّر؛ أرفقتها مع هذه القصة.

لم يكن طبعا البيت الذي سنأوي إليه، أو بالأحرى سنلوذ به؛ بعد أن أُرغِم السيد (كَولبير) على خوض معركة قاتلة، وبعد استماتته في استرجاع الشاحنة المحملة ببعض من عظام الدينوصور المتحجرة، وتفكيره الصائب في إخفائها في دهليز بيت المعمر الفرنسي؛ حتى أجل غير معلوم حتى لديه هو نفسه؛ غير بيتي بشارع (لامارن)[47]، فاستحممنا، ولم يبق لأدمغتنا تفكير في عمل نحن مرغمون على القيام به، وإن ظل (كَولبير) يحدق في الفراغ من حين لآخر، مُسْتحضِرا جثة الشخص الذي قتله، وكان يعيد علي نفس السؤال ليُخفف عنه وطأة فعله، فيقول:

– ألم يكن الموقف يستدعي فعل ذلك... أليس حتم علي قتله... لو لم أُزِح قهرهما لنا لقتلانا.

كنت أجيب:

– ذلك لا شك فيه، وقد ازداد طمعهما ذانك المُغِيرين؛ لمّا رأيا بعينيهما مستحاثة الدينوصور، وأغرتهما بعظامها المتحجرة، التي كانت حقيقة لا خيالا، وتخيلا مالا كثيرا يجنيانه من بيعها.

وقال لي وقد رفع رأسه مُتذكِّرا:

– لم أخبرك بعد كيف تمكنت من تعقب ذلك الذي استولى على الشاحنة، وعن الطريقة التي تطلبها الموقف لأذود عن صناديق عظام الدينوصور، وهو يريد

[47] هو شارع (باتريس لومومبا) بالرباط حاليا.

أن يقوم بحملها من الشاطئ بقارب خشبي بمحرك مُوجِّه إلى السفينة الشراعية، التي كانت راسية في البحر على بعد نصف ميل.

قلت:

– لقد كان لما حدث في النفق تأثير كبير علي، وتبعا لهذا فإني عرفت أنك ستتجنب قتل شخص آخر، وستحاول أن تنهي محاولة السطو على العظام بسلام.

فصار يروي ما وقع قائلا:

– ما إن نظرت إلى الخريطة التي تُبيِّن الاتجاه الذي عُيِّن للرجل الذي قاد الشاحنة عَنوة سلوكه، حتى فكرت في طريق آخر أقرب مسافة للحاق به بالدراجة النارية، وتركت بيني وبينه مسافة كافية حتى لا يراني بالمرآة وأنا سائر وراءه، وقد خططت ألا يكون التقاؤنا في نزال فاصل إلا بعد أن يوقف الشاحنة في الشاطئ، ويبدأ بحمل الصناديق إلى القارب، وكان هذا ما حدث؛ لم يكن أحد في انتظاره ليساعده غير قارب خشبي تعلو وتهبط به مُويجات خليج (كَيفيل)، وكان البحر في جَزْره، وما إن سار غائصا بساقيه في الماء، وعاد وهو يقود القارِب إلى الشاطئ الرملي، وحمّل فيه بعض الصناديق؛ مال بثقلها القارب على أحد جانبيه ولم يستقم؛ مما اضطره هذا على ترك الباقي إلى أن يرجع للكرّة الثانية، وسرَّع المحرك، وصار القارب يُبحِر بصعوبة، فجريت إلى جهة أخرى صخرية من الشاطئ، بحيث أصبحت أشرف عليه من جرف عال وقريبا منه، وغدا هو في مرمى مسدسي، فسددت في خشب القارب حتى انشق اللوح، وسددت الثانية والثالثة، فلما التفت بهلع إلى مصدر صوت الطلقات وشاهدني؛ أَلْقى بنفسه إلى البحر مخافة أن يُصاب برصاصة، وسبح في اتجاه الرصيف الصخري الطبيعي، ومنه تابع السباحة في المحيط. عُدت إلى الشاطئ الرملي، ومنه سبحت إلى القارِب، وغيرت اتجاهه عائدا به، حتى اخترقت مقدمته رمال (كَيفِيل) الخشنة، فأعدت الصناديق واحدا واحدا إلى ظهر الشاحنة، وكلفت من يحرسها كما رأيت؛ حتى أتينا إليها.

قلت:

– ما أود قوله هو أنك قُمْت بما تُوجِبُه قيمة تلك المستحاثة، وإلا لما وجدت لها مكانا في هذه البلاد؛ إذا ما نجح أولئك السَّفِلة كما تنعتهم دائما في نقلها إلى خارج المغرب؛ إلى أين؟ إلى ما وراء البحار الجنوبية، فيُجهل مصيرُها، ولا حتى المتحف الذي تستقر به في نهاية رحلتها؛ إذا ما بيعت إلى إحدى المؤسسات الرسمية التي تُعْنى بتاريخ الدينوصورات.

في صباح اليوم التالي سافر (كَولبير) عائدا إلى (خريبكَة)، ومنذ ذلك التاريخ لم أكن ألتقي به إلا لماما؛ إذا قدِم في إحدى المهمات الرسمية، ولم يجمعنا إطلاقا حديث عن الدينوصور ولا أحداثه، ودَفنّا في أعماقنا الحادثة الغريبة بعض الشيء والمؤلمة».

أوقفت نهاية القصة نادر عن النّطق، والتفت إلى الأستاذ وقال:

– إن القصة التي كتبها أستاذ الجيولوجيا تُطابق في كل أحداثها ما روى الشيخ (العربي) علينا، وتسرد ما لم يكن يعلمه، فنكون نحن قد عرفنا منهما جميع ما حدث، وفوق هذا لنا علم بمأساة القبطان الأرجنتيني.

قال الأستاذ في استرخاء وكأنه لم يبق شيء آخر يهمه:

– يكاد ما حدث من إغارة وقتل في قصة الدينوصور أن يصرفني عن الهيكل العظمي نفسه.

سأله نادر مُتعجِّلا الإجابة:

– ماذا سنفعل الآن بعد أن عثرنا إلى جانب القصة عن الخريطة التي تبين المكان الذي توجد فيه بقية المُتحجِّر.

قال الأستاذ وقد تنبّه بعد أن كان ما يزال يسترجع حدث القصة الذي قُرِئ عليه؛ رابطا إياه بما شاهده في السّرداب، فقد كان منظر هيكل القبطان لا يُفارِق مُخيّلته، وقد علم بكل ما وقع:

– لنتتبع ما أُشير به على الخريطة؛ لعلنا نصل إلى مكان الصناديق.

لم يكن شيء آخر أكثر أهمية من الدينوصور يُؤخّرهما؛ لقد سرت إليهما عدوى هوس مراقب أنفاق الفوسفاط وأستاذ الجيولوجيا بالدينوصور، والجري وراءه والحصول عليه بأي طريقة، فخرجا مُسرعين من كلية العلوم؛ ناظرين في الخريطة التي أخبرتهما بأن عليهما أن يتابعا سيرهما في شارع (ابن بطوطة)، ويجتازا باب

سور مدينة رباط الفتح؛ المُحاذي لـ(باب الرواح)، ويستمرا في اتجاههما إلى أن ينعطفا ما بين ثانوية (مولاي يوسف) وجامع (السنة)؛ في شارع (يعقوب المنصور)؛ إلى أن يخرجا من باب سور المدينة؛ المحاذي لباب (زعير)، ثم يسيران في الطريق المؤدي إلى مدينة (شالة) الأثرية؛ وينحرفا عند بابها الرئيس؛ الذي يُؤرخ بناؤه في عهد السلطان المريني (أحمد المنصور) الملقب بـ(السلطان الأكحل)، ويهبطان في أجمات نابتات على سفح وادي (أبي رقراق) العريض.

وقد تتبعا هذا المسار المرسوم حتى ظهر لهما من أعلى السفح بيت خرب؛ مهدم الحيطان، ومنهارة أجزاء من سقوفه؛ ما يزال عليها بعض القرميد الأحمر؛ تحف به بعض جذوع أشجار الثمار متفرعة؛ ما تزال تقاوم الخرف، ونبتت نباتات دغل على جوانب حقله؛ الذي لم يبق منه إلا آثار دارسة، ونزلا المنحدر بحيطة؛ حتى استوت أقدامهما على الأرض المستوية التي أقيمت عليها الاستغلالية الفلاحية، واتجها إلى البيت الخالي، وطفقا يبحثان عن مدخل القبو حتى وجداه، وتعاونا وبجهد كبير على فتح بابه، ودخلا، ولم يكن ما حُكِي خيالا، حيث وجدا الصناديق مكدس بعضها فوق بعض؛ كانت بالية الأخشاب؛ قررا أن ينقلاها ليلا؛ إلى القاعة التي وضعا فيها من قبل عظام النفق؛ فجمعا تلك بهذه، فتكون عظام هيكل الدينوصور المتحجرة قد اكتملت.

في ليلة ذلك اليوم حررا تقريرا بعشر صفحات عن الاهتداء إلى الدينوصور، وما صادفاه في أثناء ذلك؛ قدماه إلى رئاسة الجامعة، التي أبلغت الإدارة المركزية المختصة في النظر في الأمر المثير؛ الذي ذكراه في التقرير، وهو هيكل القبطان الأرجنتيني العظمي، فلتلك المصلحة الرسمية خبرة بما يلزم فعله.

أما الإسباني المهرب، والذي قتله (كَولبير) دفاعا عن نفسه وعن أستاذ الجيولوجيا، ولحماية الدينوصور من السرقة، فقد سبق وأن اختلى الشيخ (العربي) بنادر، وأخبره بأنه كان قد ذهب بعد عشر سنوات من الحادثة إلى حارس مقبرة النصارى، واجتمع به ليُسر إليه بأنه وفي صباح أحد الأيام، وكان هو الأول من يفتح أبواب المقبرة الحديدية، استغرب أمرا وهو أنه وجد الحفرة التي دُفن فيها تابوت جثة الإسباني، قد نُبشت وفارغة، فذهب إلى حفار القبور ليعلم منه أن

أحد أقارب الإسباني قدِم وقدّم طلبا إلى كاهن الكنيسة بحفر القبر، وحمل تابوته إلى مدينة مسقطه.

الفصل الرابع

عِقْد من أصداف ناساريوس[48] (Nassariuse)

اِعْتاد نادر؛ منذ أن صار يُتابع دراسته بكلية العلوم، وبعد أن ينتهي في المساء وقت إحدى الدروس التوجيهية أو التطبيقية أو إحدى المحاضرات؛ أن يقصد أكشاك بيع الجرائد والصحف والمجلات والكتب -المُتفرّقة على رصيفي شارع (محمد الخامس)- ليَقْتني إحدى المجلات الثقافية؛ تُلائم اهتماماته العلمية، وتُرغِّبُه نصوصُها المُثِيرة في القِراءة، كان يقوم بهذا من قبل؛ إلا أنه قَلَّ ما كان يفعل ذلك، لأنه كان عليه أن يركب حافلة نقل عمومية تتجه به إلى (الرباط)؛ من ضاحية هذه الجنوبية الغربية التي يسكن مع والديه في إحدى بيوت أحيائها؛ قاطِعة به تلك الحافلة مسافة أكثر من عشر كيلومترات، لأنه كان ما يزال يدرس في إحدى مؤسسات التعليم الإعدادي والثانوي المحلية.

وفي إحدى المرات وهو ينقُل عينيه بين معروضات الأكشاك؛ إذ قرأ في ركن من رُكْني غلاف مجلة؛ بأن مع العدد الشهري لتلك المجلة هدية، فامتدت يدُه وتناولها، ومعها لوحة ورقية مطوية هي الهدية، استطاع أن يعرف من جزء منها على أنها خريطة لقارات العالم الخمس، وعليها أسهُم كثيرة، وبتفصيل يُثِير الدهشة؛ تُشير إلى اتجاهات هجرات الطيور عبر العالم، فاشترى مجلة الهدية بفرح غامر، وتصور إلى أي حد ستُضفي على غرفته تلك اللوحة الورقية وهي مُعلّقة على الحائط؛ امتدادا عالميا؛ بإحداثيتي الطول والعرض الجغرافيين، وجوّا طبيعيّا، فلكل طائر خط هجرته من منطقة إلى أخرى؛ داخل البلد نفسه، أو من قارة إلى أخرى.

ما إن رجع من رحلتيه الأخيرتين، حتى انغمس في مذاكرة دروس السنة الدراسية، فلم يجد الوقت الكافي لقراءة اللوحة الورقية كلمة كلمة، وتتبُّع أسهم

---

[48] (ناساريوس) هو من الرخويات البحرية؛ استخدم قواقعها الإنسان القديم حُلِيّا؛ عُثر على البعض منها في كهوف الإنسان القديم، وبالأخص في مغارة (الحمام) بـ(تافوغالت)، وهذه جماعة قروية توجد في المغرب الشرقي.

الهجرات؛ رابطا إياها بأنواع الطيور، وبأوقات السنة، وبالمناطق والقارات المختلفة، وبالطُّقوس والمناخات، ويستنتج ويستخلص التفسيرات، ويعرف العوامل البيئية، حتى كان ذلك اليوم من الأسبوع الثاني من شهر أبريل، الذي أرسلت فيه الشمس على وجهه أشعتها في صباح صفت فيه السماء من الغيوم؛ عبر النافذة المُواربة الدفتين، ورأسه ما يزال على الوسادة، ففتح عينيه ونهض، وهو يسمع تغاريد العصافير؛ التي تطير وتنزل على فروع الأشجار المورقة، ورأى من النافذة أسرابا من الطيور تُحلِّق في أجواء الفضاء؛ منها ما كانت تُرفرِف بأجنحتِها؛ مُسافِرة إلى بلاد بعيدة، وأُخرى تصعد إلى الأعلى وتهبط حتى تدنو من الأرض، أو من سطوح المنازل وأعمدة الكهرباء، أو تحُط عليها، فنظر إلى لوحة القارات الخمس وهجرات ذوات الأجنحة المعلقة، والممتدة طولا وعرضا، فشدته إليها أشكال العصافير وأحجام الطيور المختلفة، وبهرته ألوانها الكثيرة، وصار يتأمل في مناقير الجارحة منها المعقوفة، ومخالبها الحادة الناهشة للحوم الطرائد.

انصرف عن النُّسور والعُقبان والصُّقور اللاحمة، وظل زمنا طويلا يحصي العصافير، ويفرز بعينيه البعض منها؛ الذي يسمع أنه يُتاجَر به؛ منه الذي يُحبس في الأقفاص؛ إناثا وذكورا، ويتزاوج، وتَفقِس بيوضُه، ومنه ما يُصْطاد، وهذا بريّ؛ يعرف منه عصفور (الحسّون)، و(البسبوس)، و(الدوري الذهبي السوداني)، و(الحميراء)، و(الشحرور)، فمضى به خياله بعيدا هنالك في براري الطبيعة التي تعيش فيها هذه الكائنات المحلقة، واستهوته، فرغب أن يكون بينها، فيراها وهو قريب منها؛ تُرفرِف بأجنحتِها المَرِنة، والنَّاعِمة الرِّيش، والجميلة الألوان، وتطير وتُحلق وتحط على ضفاف الأنهار والبحيرات، فيتفرج عليها وهي تُحرِّك أجنحتها في الماء، فتنثر الرذاذ البارد على أجسادها؛ مُنتعِشة بذلك، فشوَّقتْه هذه الصُّورة، وكذلك شمسُ فصل الربيع الساطعة، والطقسُ المعتدل؛ إلى أن يذهب إلى غابة؛ يدخل إليها، فيُخْفِيه شجرها القصير بفروعه المورقة والمتشابكة، وجذوعها الطويلة؛ المُرْسِلة للأغصان، والمليئة بالأوراق الخضراء، ويسير مُمهِّدا ممره بيديه ورجليه، إلى أن يجد نفسه في ساحة مفتوحة على السماء، تتوسطها حواف نهر صخرية؛ تلجأ إليها الطيور والعصافير، والأرانب

والحَجَلات البرية، أو إلى شِعب عميق، أو أجمة كثيفة النباتات؛ تبني فيها العصافيرُ أعشاشَها.

وهو منذ أن قام بسفرتيه إلى (وادزم)؛ لم يُحمِّسْه أي شيء آخر ليسافر مرة أخرى، فدفعه عالم الأجنحة المهاجرة ذاك؛ إلى التفكير في القيام برحلة. عاد إلى سريره وجلس؛ يُعيِّن من بين الأودية والغابات التي يعرفها؛ أحدَهَا يُتيح له الاقتراب من مجتمع العصافير، فيُتابِع أفراد السِّرْب وهم يقضون نهار اليوم؛ في النبش بالمناقير عن الطعام؛ ليملأوا به الحوصلة، والشُّرْب من ماء الشلالات.

والذي يسعى نادر إلى الحصول عليه؛ بأناة وصبر، وبوسيلة وطريقة اصطياد؛ هو نوع من العصافير مُهدّد بالانقراض؛ ليدرسه ويرسمه بدقة متناهية، ويُشكل بالخشب منحوتة طائر لا تختلف عن الحي، لأنه سيقيس كل عضو منه بالجزء من الميليمتر، فيُضِيفُه إلى المحنط والمرسوم والمحفوظ في السوائل الكيماوية؛ مما يُغني متحفه الطبيعي.

فما هو ذلك العصفور الذي ربما قُنِّن حظر اصطياده لأنه قد يكون مهددا بالانقراض؟ وبأي تقنية يُصطاد، وبأي طريقة يمكن الحصول بها عليه؟ فبحث في الكتب، فكان الطائر الذي يعنيه هو المسمى بـ(الحسّون)[49]، فأعد بطاقة علمية عنه. لكن الذي كان يجهله حينذاك هو الأداة، فهو كان يسمع من قبل أن صائدي الطيور يستخدمون شِباكا، لكن بأي تقنية وبأي كيفية؟ وظل بعض الوقت حبيس قوقعة ذلك السؤال، وضاقت به دائرته، إلا أن أومض من هنالك في ذهنه مكان لا بد من أن يذهب إليه، فهو الذي يُخْرِجُه من غمامة تفكير قاتمة، ويُمهِّد له الطريق إلى المعرفة، وهو السوق؛ ففيه بعض محلات بيع الطيور، وله أمل في أن تلتقط أذناه من استجوابه لأحد البائعين المحترفين؛ تِقانَة وطريقة القبض على الطائر.

صادف ذلك النهار المشمس يوم السبت، الذي كان مما أغراه على أن يسيح في الأودية والمُنبسَط الأخضر من الأرض، ولذاك اليوم وقع خاص من بين باقي أيام الأسبوع؛ يُترك فيه ذلك العمل نفسه والوثيرة نفسها، والواقع المفروض المُرّ،

[49] هو طائر صغير، من مواطن امتداده شمال إفريقيا؛ ريشه براق، وزقزقته رخيمة.

فتُخفَّف الوطأة، وتستكين النفوس، وتُراح الأعصاب، فتُحلِّق بالأذهان الأحلامُ والمتمنيات، فتنتشي الأقدام السَّيرَ إلى أماكن ومحلات التسوق.

بعد أن أفطر نادر، وبعد عشرات الدقائق من ركوب الوسيلة؛ كان يسير في زُقاق مدينة (الرباط) التجاري القديم، وبين دكاكين عرض السلع؛ كان أحدها قد رش صاحبُه المساحة التي أمامه، وكنسها، وعلّق الأقفاص المتعددة الأحجام، والمختلفة موادِّ صُنْعِها، فمنها البلاستيكية ومنها الخشبية، وهذه الأخيرة بالنسبة لنادر هي التي تمنح للقفص المسحة الطبيعية، وتحافظ على جماله الأصلي، ومختلفة الأشكال كذلك تلك الأقفاص، فمنها المكعب، ومنها من تعلوه قبة ساحرة، ومن داخلها ارتفع صوت تغريد كل عصفور، وإن اختلفت الزقزقات؛ إلا أنها كانت تتجاوب، فليس هناك بينها فاصل من الوقت إلا القصير، وما من مار إلا ووقف دقائق؛ يوزع نظراته في ألوان وأشكال الطيور وأقفاصها.

حيا نادر بائع الطيور، فبادله هذا التحية.

قال نادر:

– أحفظ بعض أسماء الطيور لكن لم يسبق أن رأيتها.

فصار البائع يقدم طيورَه واحدا واحدا باسمه، وهذا برّي وذاك من فقس البيوض في الأقفاص، ويُقدّر ما تساويه من أثمان، والأغلى منها والأرخص، ومن له تغريدة تحرك المشاعر الإيجابية، وتطرب له الآذان، ويُشِيع الأُلفة والسعادة في البيوت والأحياء.

سأله نادر مرة أخرى قائلا:

– فالبرّي إذن يُصطاد؟

أجاب البائع:

– نعم.

وسكت لحظة ثم قال:

– بالشّباك طبعا، وتركّب هذه بفنية؛ تُؤهِّلُها بأن تُطبِق بعيونها الضيقة على العصافير، ولها طريقة استعمال خاصة.

وسار البائع إلى مكتب مَحلِّه الخشبي، وتناول ورقة وقلم رصاص، وأخذ يرسم تصميما للشِّباك؛ مُوضِّحا لنادر دور كل جزء منها.

وقال:

– لكن الشيء الحاسم هو ربط أنثى العصفور الذي تنوي اصطياده؛ بخيط إلى عود خشبي أفقي يرتكز على آخر عمودي؛ يُدقّ طرفُه الأسفل في الأرض، والأنجع أن تكون تلك العصفورة حيوية الحركة وذات تغريد مرتفع الصوت وحاد، وتُحفر حفرة يُصبّ فيها قَدْرا من الماء المُطْفِئ للعطش، وتُنْثر الحبوب في المحيط مما تستسيغه الطيور، أما طريقة استعمال الشباك...

لم يستمر البائع في كلامه؛ لأن اثنين في عُمُر نادر دخلا، يحمل كل واحد منهما كيسا من ثوب خشن وقديم؛ وجهاهما أدكنان بفعل شموس الخلاء، وفي عيونهما يقظة وتحمس واندفاع؛ يرتديان ألبسة باهتة، وينتعلان حذاءين قويين؛ عليهما بقايا تراب وَحَل، وفي أيديهما علامات الاشتغال بدق الأوتاد ومد الحبال، والحفر بالأصابع في تربة الأرض، فلاحظ نادر سواد هذه في أظفارهما المهملة؛ سلما على البائع؛ بدا لنادر أن البائع على معرفة سابقة بهما، فاتجها بهما البائع إلى زاوية تُواري عن أنظار من بالخارج؛ من التُجّار والمارة، وأخرج كل واحد منهما قفصا من الكيس؛ كان القفصان قديمين؛ تزعزع بعضُ قضبانهما ونخر في الخشب، كان على الأقل أربعة طيور في كل قفص، ووصلت إلى أذني نادر مساومة صاحب الدكان لهما في المقابل النقدي.

في تلك اللحظات كادا أن يغادرا محل البيع؛ لأنهما لم يرضيا بالثمن، فزاد عليه البائع، وكان ما أضافه نهاية للمساومة المُقلقة والمرهقة إلى حد ما، والمُولِّدة لليأس للصّيّادين، وأخيرا أخذا النقود واختفيا في انعطافات الأزقة الضيقة.

نظر البائع إلى نادر بابتسامة ثقة ومراوغة، وقال:

– ما شاهدته لا يحتاج إلى توضيح؛ إنهما صيادان محترفان؛ يكسبان قدرا من المال لا بأس به، ولهم دراية بفصول وأماكن الصيد، وأنواع الطيور البرية، وأثمانها في سوق الطيور، ويتحيّنان الفرص، ويستغفلان الأغرار من ليس لهم معرفة بالطيور وأثمانها.

كان نادر يريد أن يتكلم، إلا أن البائع رفع كرسيا من أحد الأركان وقدمه إليه ليجلس، فاستوى نادر على القطعة الخشبية وقال:

– أنا طالب علوم، ولي ميل إلى البحث أكثر في حياة الكائنات الحيوانية والنباتية؛ الحية منها والمتحجرة والمنقرضة، والسعي للعثور على بعض ما تخلف من ريش طائر مُهاجر، أو عظمة من هيكل حيوان تناقص عددُه، أو انقرض، أو نزح إلى منطقة أخرى، بعد أن زحف الناس والعمران على الطبيعة، أو لم يبق وجود لحيوان آخر أو حشرة أخرى؛ كان يقتات عليها، وإني أود أن أسير بين الحقول والمزارع، وأتتبع الأودية؛ إلى أراضي الطبيعة الرحبة، وأمشي وسط الغابات؛ إلى أي مكان تُبنى فيه الأعشاش، وتبيض العصافير بين فروع أشجاره وبين نباتات الصّبَّار، وفي الأجراف العالية، فأكون قد دخلت إلى عالم الطيور، وأُجرّب فعل الصيد.

رفع بائع الطيور عينيه في وجه نادر، ثم نظر إلى الأسفل، وعاد فجال ببصره في هيئته، ثم قال:

– إنك إذن تحتاج إلى عُدّة الصيد، والأنثى المُغرِية، والحبّ المحرك لشهية العصفور، والماء الراوي من ظمأ رحلة طيران، وعيدان جلوس الكائنة المغردة، والشّبكتين؛ المفروشة والمُطبِقة، وحبل متين للجذب والشدّ في اللحظة المواتية.

سأله نادر بحماس:

– ألديك أنثى طائر (الحسّون)؟

أجاب البائع باحترافية بالغة:

– لا... فإن للصّيّادين اللذين انصرفا بعد قليل أربع إناث ينصبان بهما الفخاخ لطائر (الحسّون).

سأل نادر عن حاجته الأخرى قائلا:

– هل أجد شبكتين مُركبتين بالتقنية التي تحدّثتَ بها من قبل؟

ظهرت على بائع الطيور حماسة، وقال:

– انتظر قليلا من الوقت ريثما أرسل في طلب صانع الشِّباك.

ونادى على أحد الصّبية وأرسله؛ حافظا أمرا واحدا إلى صانع الشِّباك؛ بأن يأتي سريعا إلى الدكان؛ حاملا مما يصنع، لأن هناك من يريد شراء حِبالة، وهو ينتظر. فلم تمض خمس دقائق حتى قدم الصّانع مُتأبِّطا لِفافة ورق مقوى، مد يده بها إلى بائع الطيور، الذي أسرع وأزال ورق التغليف عن مصيدة مطوية بعناية

وحبال، وتظهر من بين طياتها عيدان تُوتِّر نهايات الشبكتين، وعودا ربطِ الأنثى الحسناء؛ سجينة الإنسان المارد، وقال البائع مُوجها كلامه إلى نادر:

– كما ترى فإنها مُتقنة التركيب، وقد شرحت لك كيف تُبْسط الشبكة المفروشة، وتُشدّ بالأوتاد، وكيف تبتعد مُسلّحا بطرف حبل الشبكة المتحركة؛ مسافة بعيدة، وتتوارى وراء جُلمود، أو كومة من نباتات، أو حَجَرة كبيرة، أو جذع شجرة.

قال نادر:

– وإني في حاجة أيضا إلى قفص خشبي صغير بقضبان جديدة.

فاختار البائع أحسن ما يبيع من الأقفاص الخشبية؛ فيه صندوق التَّزْوِيد بالحبوب؛ يُسحب بسلاسة، وخزان مُسيِّل للماء يزيد القفص إغراء، وأرجوحة خشبية يتشبث بها العصفور في فضاء القفص، فأنقد نادر البائع بمجموع ما تساوي هذه الأشياء، ورحب البائع بنادر مرة أخرى يَقْدِم فيها إلى الدكّان، وقد أحس بأن همه الأول هو العِلم بما يدب على الأرض ويمشي على اثنين أو أربع، ويحلق في الفضاء، ولا شغل له أيضا الآن إلا التعمق في تاريخ الحياة على الأرض.

خرج نادر من ذلك المكان، الذي تملأه حركات الطيور الدائبة، وأصواتُ حناجرها التي لا تنقطع، وكانت قد طرأت على ذهنه فكرة؛ عندما أجاب البائع عن طلبه؛ بأن ليس عنده أنثى طائر (الحسّون)، ليستدرج بها فرقة من الطيور إلى الفخ، فما هي؟

كان مما قرأ نادر في إحدى روايات الكاتب الأمريكي (إرنست همنجواي)[50]؛ عنوانُها: (عَبْر النّهر ونحْو الأشجار)؛ هو أن قناص البط؛ في المستنقعات والبحيرات؛ ينزل في برميل طافٍ على ماء بحيرة ببندقيته وخراطيشه، يتوارى فيه عن طيور البطّ السابحة، ويُلقي على ماء المستنقع طيور بط خشبية خادعة، ويُدلي أنثى قنص حية لتسبح وهي مربوطة إلى حبل بمرساة؛ يكبح طيرانها أو الضرب في الماء بعيدا؛ يستدرج بهذا كله سربا من البط؛ يصوب إليه البندقية،

[50] إرنست ميلر همنجواي؛ (1899م- 1961م Ernest Miller Himingway)، كاتب سيرة ذاتية وقصص وروايات أمريكي؛ حصل على جائزة نوبل للآداب في سنة 1954م.

فما واتى نادر أن يفعل على هذا النحو؛ أن ينحت من الخشب أنثى طائر (الحسّون)، وبأدق تفاصيل الطائر الحي؛ مُفرِدَة الجناحين قليلا، فيكون قد توفّر لديه عصفور توهيمي في الشكل، وفي ألوان الريش والبطن والعنق، وتغريد تلك الأنثى الخادعة؛ لن يكون كذلك إلا محاكاة، وقد سبق وأن اطلع في إحدى موسوعات اصطياد الطيور؛ على أنواع صفارات خشبية بأصوات أنواع الطيور؛ يُنفخ فيها فتُصْدِر مثل ما تُصوِّت به حناجر العصافير، فكانت الفكرة لحاجته الثانية أن يحاول صنع صفارة تقليد لصوت طائر (الحسّون).

في صباح يوم من أيام شهر أبريل الأخيرة؛ أضاءه نور الشمس، لأن السماء كانت صافية؛ إلا من سُحُب صغيرة بيضاء كالثلج؛ استَقلّ نادر إحدى سيارات الأجرة؛ تلك التي تُسْرِع بركابها، وهي تذهب وتؤوب في طريق الجنوب الغربي، ولم تقطع به إلا أقل من عشر كيلومترات؛ حين أشار نادر بحركة من يده؛ إلى السائق المتعود على إدارة المِقْود يمينا؛ نحو حاشية الطريق ليُوقِف السيارة، ويسارا لينطلق بها في الأسفلت مضغوط المكونات والمتماسك؛ بأنه يريد أن يترجل، وإلى حيث بدا لنادر وادي (إيكّم)[51]، وقد نزل من السيارة، وعَبَر الطريق إلى جهتها الأخرى؛ مُتأبِّطا أدوات الصيد، وحاملا بيده القفص، وسار عكس الاتجاه الذي يجري فيه النهر؛ مُبْتعِدا عن ساحل البحر، ومُتوغِّلا قليلا في مُنحدرات الوادي، وفي أراض منبسطة؛ تُوازِي الماء الجاري؛ يُغطِّيها العُشب وأشجارٌ قصيرة الجذوع والأغصان، واختار مكانا تتسع فيه الضفتان، ويمتد على مسافة طويلة، بحيث يُتيح له أن يبسط حِبالته، ويمد الحبل بِبُعْد تشترطه طريقة الصيد بالشبكة المركبة، ثم اختار أجمة من نباتات قصيرة، وخطا المسافة التي رأى أنها مُناسِبة، ودق الأوتاد الأربعة الماسكة للحِبالة، ووتدا واحدا يشُد الأخرى إلى الأرض، وبينهما غرز دقّا العودَ العمودي، وربط إلى الأفقي الذي يعلوه أنثى الصيد الخشبية، وحفر حفرة صبّ فيها الماء، ونثر في المحيط الحبَّ، ثم أمسك بطرف الحبل وسحبه؛ عائدا إلى ما وراء نباتات الاختباء؛ المتكاثفة الأغصان والأوراق، وصار يَسْتدرِج طيور (الحسّون) نفخا في الصفارة الخشبية؛ بتغريدة

[51] أحد أنهار المغرب؛ يصب في المحيط الأطلنتي.

مُخادِعة؛ مرة بعد مرة، ولم يستمر لأنه رأى شياها قادمة ترعى العشب، ثم اقتربت من مصيدته، وكلبَ حراسة يحني رأسه في ذلك الاتجاه أو ذاك، ويرفع خَيْشُومه ويتشمم، ثم يتابع ركضه البطيء، ويظهر الراعي وكأنه يسير صوب نادر، وقد دنا منه فعلا، فنطق مُسلِّما، فرد نادر السلام، بادر الراعي إلى الكلام، فقال بنبرة تدل على أنه جاد:

– لن تجد حريتك في الصيد في هذا المكان.

سأله نادر وقد فتر حماسُه:

– ولماذا؟

أجاب الراعي بيقين:

– إن صيادين محترفان لا يتركان أحدا يصيد هنا؛ مُنافِسا إياهما، ويطردانه بالقوة مُهدّدين إياه بضرب يُدمي؛ إذا ما رفض وأراد مقاومَتَهُما، فخير لك أن تغادر إلى مكان آخر.

قال نادر مُبْدِيا غرضه الذي قد لا يهدد صيد أحد:

– أنا لا أصيد لأبيع.

قال الراعي:

– إني قد عرفت ذلك من نصبك للشَّرَكَة الأول، ومن تريّثك في الاختيار، وبُطئِك في تناول المطرقة التي استثقلتها يدك، والأوتاد لم تعرف بعد دقها بزاوية مع الأرض؛ لا ينبغي أن تكون منفرجة تلك الزاوية لتتحمل تلك الأوتاد عكسيا شدة سحب الحبل، وإني أرعى الغنم في ضفاف الوادي وعلى سفوحه؛ منذ أن كنت طفلا في عمر ست سنوات، وكثيرا ما دفعتني حيوية الصغر إلى تسلق الأشجار النابتة على السفوح، والصعود إلى الأجراف الصخرية؛ باحثا عن الأعشاش، وصِدْت أصنافا من الطيور، وأيضا الأرانب والقنافذ والحجل البري، ولكل كانت له أداة صيد وطريقة، وتعرفت إلى تحول هذا الوادي من حال إلى حال؛ بتأثير تغير الأحوال الجوية، وتعاقب فصول السنة، وإلى الأمكنة التي تنصب فيها الطيور أوكارها، وبذلك سأدلك على أحدها... اِتْبَعْنِي.

جمع نادر الشّبكتين، ولف الحبل على حامل العصفور الخشبي، وربط الأوتاد إلى بعضها البعض، وضم مَرْفِقُه جميع هذه الأشياء إلى إبطه، وحمل القفص،

وسار يتتبع خطوات الراعي، وبعد قطع مسافة في عشر دقائق، سمع الراعي يستطرد قائلا:

– ... فهنا أرض تنبسط لنصب الشبكتين.

وأضاف مُشِيرا إلى أعلى سفح الوادي:

– ... إلى ألواح الجرف الصخرية تلك تطير العصافير، وتحوم حولها وتحط عائدة من غابات وشعاب ومروج بعيدة، حاملة في مناقيرها عيدانا دقيقة تُحيك بها الأعشاش، أو متناولة بمناقيرها طعاما لصغارها.

أعدّ نادر الحِبالتين، ونثر الحبوب ذات البريق الجاف الجاذب، وذات الامتلاء الغِذائي، وأفاض الحفرة، فتدفق الماء مُبلِّلا التراب، وابتعد، واندس بين النباتات، وسحب الحبل فتوتر، وكانت الصفارة الخشبية المقلدة لأصوات العصافير تتدلى من خيط مُطوّق للعُنُق، فنفخ فيها، وتسللت نظراته من بين الفروع والأوراق؛ إلى سرب من عدد قليل من الطيور، وأخرجت الصفارة الخادعة الزقزقات، فاستُدْرِج السِّرب، وحط بين الشبكتين حيث الحب والماء والأنثى الغيْداء، فكانت من نادر جذبة قوية للحبل، فرأى الشبكة المتحركة ترتفع وتُحلِّق كجناح نسر باسط للظلال، وتنطبق على أفراد من فرقة طائر (الحسون)، فانطلق نادر عَدْوا، وانقض كالصّقر، كانت عيون الشبكة قد شلت طيران العصافير، وغَدَت تُرفرِف مُسْتضعَفة بأجنحتها الحبيسة. أدخل نادر ذكرا وأنثى إلى القفص، وحرر الطيور الأخرى. كان الراعي يُتابِع صيد نادر، وقد شاهد كيف استمال الطيور بالتغريد المُقلَّد، وبأنثى الطائر المشكَّلة من الخشب، والمطلية بالأصباغ المُماثِلة للحيّة، فابتسم، ونزل المنحدر مُشجِّعا له ومُهنِّئا، وسُرَّ نادر بنتيجة التجربة.

لم يدم لقاؤهما المثمر، فقد التفت الراعي رافعا رأسه إلى قمة السفح، لأنه سمع صوت أقدام مندفعة؛ تطأ الحجارة، وهذه تنحدر إلى منخفض؛ مُحْدِثة ارتطامات فوضوية، ومن علامات بدت للراعي؛ سمعه نادر يقول وهو يستل من قِرابه الجلدي هراوة:

– أُنْج بنفسك وبطائريك (الحسّون)، سأُبْطِيء تعقبَهما لك بهراوتي هذه، وذائدا عنك.

لم يدرك نادر ماذا يجري، فنظر في اتجاه انتباه الراعي، فانبهرت عيناه لصيَّادَي العصافير المحترفين؛ اللذين كانا قد دخلا دكان بيع الطيور، وهو في حديث مع صاحبه، ليبيعا له ما أمسكت شبكتاهما من طيور برية، فهما يتجهان نحو نادر بهجوم مخيف، ليأخذا منه عنوة العصفورين، لأنه نجح بطريقته في صيدهما، وليضرباه بعنف حتى لا يعود مرة أخرى، وقد أدرك نادر بإحساس بالمواجهة المفاجئة شرّهُما، فبينما كان انحدار السفح يُطوِّح بهما، وهما ينزلانه، جرى نادر حاملا القفص والحبالتين؛ في طول الوادي، حتى إذا رآهما يتدحرجان في الأسفل، صعد هو السفح مُتشبِّثا بجذور الأشجار؛ البادية من التربة المتصلبة، وبحُزمات النباتات القصيرة، وبفروع شجيرات مُتدليّة؛ يحاول الوصول إلى القمة الصخرية المطلة على الوادي، وما بعدها تنبسط الأرض، فيلوذ بمسرب ممهّد أو طريق مُعبّد، لكن قدمه اليسرى غارت في فراغ، ثم خسف بجسده العُشب والتراب والحجر، وهوى في حفرة كبيرة؛ إلى أن سقط على الأرض، واستقر بجانبه وعلى ظهره التراب والحصى والصخر، الذي رافقه من الأعلى، فلم يتبين ما حوله، لأن عتمة حالت بينه وبين ذلك، إلى أن ألفت عيناه الظلمة الخفيفة، فاستعاد الرؤية، فلاحظ أن المكان يتسع، فهو تجويف في وسط الصخر، فهو كهف، وله امتداد واحد، يضيق إلى يساره، وحَدَّق في جوانبه التي تبرز منها نواتئ صخرية، وفي الأرض بدا له كأن شيئا مُسْتدِير يظهر من التراب، فذرى عنه ما يكاد يغطيه من غُبار، فتفاجأ بوجود جرة من طين مخدُوشة ومُشقَّقة، وبرز كذلك مثله، فكان هذا الشيء قِدْرا مكسورا، وفكر في سلوك ممر إلى الخارج، في ذلك الجانب الآخر الذي انحنى ظهرُه لأعلاه، فصار يحبو على تراب خشن ومتماسك، فآلمه بعض مما برز منه من رؤوس حصى ناتئة، وليتقدم براحتيه صار ينظر بحيطة إلى ما بأسفلهما، وقد أمعن نظره في قواقع مُلتحمة بالتراب المتصلب، ولاحظ أنها تتالى في خط ملتو مغلق، وما بدا له أن هذا الشيء ليس من صنع الطبيعة، فتناول حجرة صلدة مَسْنُونة الرأس، وحادة الجوانب، وحفر حول الأصداف، إلى أن انتزع قطعتها من التراب المتماسك، وتابع زحفه في النفق؛ دافعا أمامه قفص العصفورين، والشبكتين، وقطعة القواقع المتصلبة التربة، والجرة، والقِدر، إلى أن واجهته شظايا صخور، وحجارة وتراب،

تنفذ منها جذور سميكة، وسمع صفير الريح، فأسرع إلى إزالة بعض التراب بيده، فرأى من ثقبٍ ضوء النهار، فاستمر في هدم ما راكمته سيول سفح الوادي، من تراب وحجارة وصخور وحصى وجذور النباتات، ولم يتسع له المدخل إلى النفق من الخارج، فهدمه بأداته الحجرية الحادة الجوانب، ثم اندفع بجسده خارجا، يستنشق هواء مُنْعِشا، ويسمع صوت أمواج المحيط، وهدير محركات المركبات الانفجارية، يأتي من الطريق الساحلي الذي ظهر له من بعيد، فاتجه إليه ليركب إحدى سيارات النقل؛ عائدا إلى البيت.

لم تكن لنادر نية في الاحتفاظ بالطائرين، وسيُحرّرهما، ووجد نفسه في صباح اليوم التالي، وهو يحمل القفص تاركا غرفته ويهبط السلم، ويسير في وسط الدار غير المسقوف، فكان مُنفتِحا على سماء صافية الزرقة، وعلى نسائم الصباح والمساء، وجو الطبيعة، ولا يخطو أبعد من أَصيصٍ؛ ترتفع من التربة التي مُلئت به نَبْتة لبلاب، سارحة بأغصانها وأوراقها العريضة الخضراء على الحائط، فعلّق القفص قريبا منها، وكانت شمس ذلك الوقت قد علت، فاستقبل الطائران والنبات المتمدد الأغصان الأشعة الساطعة، فكسَّر خشبُ القفص، وخضرةُ اللبلاب، وبُنيّة طين الأصيص؛ بياض الحائط المطلي، ولم يترك نادر لحظة ما أبدعته الطبيعة تفوته؛ من زاوية سقوط شعاع الشمس، وضوء ربيعي، فبسط ورقة رسم، وأطلق العنان لريشته المعدنية المغموسة في الحبر الصيني الأسود؛ تُرسِل الخطوط، ولفُرْشاتِه لتُذِيب الصباغة بالماء، فتُلوِّن المساحات، فكان ما رسمه مجسما أمامه، ولم يُضف من الخيال شيئا، وله حكاية: فهو قد خرج في رحلة إلى الوادي، لينصب شباكا، ويستدرج عصافير (الحسون) بالأنثى المُغْرِية، والتغريدة المُقلَّدة، وانسحب مُتفادِيا مُواجهَة صائدَي طيور، دب فيهما المقت والحسد، واشتدت بهما نية شريرة، ثم صعد نادر إلى أليفته الغرفة، ونظر طويلا في أصداف القطعة من الطين المتحجر، وأمسك بفرشاة وطفق يُزِيل مِمَّا بالقواقع، ومما حولها من التراب؛ حتى انعزلت تقريبا، وبدت بحجمها الكامل، إلا ما ظل مُلتحِما، وهو جزء سفلي صغير بالقطعة الحاملة للقواقع، وصار يُحدِّق فيها؛ يحاول ملاحظة ما قد تتفرد به، وما الغريب والاستثنائي فيها، ورسم إحداها؛ بتفاصيلها الدقيقة، وبحجم كبير، فاختزنت ذاكرته ذلك، ليبحث لأي كائن

تكون، ولم يتوفر بعد عن موسوعة لحيوانات القواقع البرية والبحرية، لذلك سيُطلع أستاذ الأحياء والمستحاثات عليها، وعلى عصفوري القفص.

في الغد حمل ما جناه من مغامرته في الصيد في الوادي، فما كلفه به الأستاذ؛ عندما رأى العصفورين هو تحرير تقرير عِلمي عنهما، وطبْعِه وإيداعِه في خزانة الكتب، ليكون من بين مراجع بيبليوغرافيات البحوث العلمية، لأن القبض عليهما كان نتيجة تجربة لأحياء مُسْتدرِجة، وتقليدٍ لأصواتها، وأخبر نادر الأستاذ بأنه كان سيتعرض لهجوم عنيف من طرف صيادين اثنين؛ يتكسبان من صيد الطيور، ويخافان منافسة آخرين في تلك الجهة من الوادي، ويتسلحان بشجاعة الجهات غير المطروقة، وبمعرفتهما بممرات الهروب، والاختباء في الأدغال والأحراش والغابات، لولا أنه تعجل الجري مُبْتعِدا عنهما، وصعد السفح لتستوي قدماه الهاربتان؛ على طريق تسلكه مركبات الوقود السائل، وبأنه سقط في كهف فيه جرَّة وقِدر من الطين، وتلمست يداه أصدافا ملتصقة بتراب مُتكتِّل، فنجر منه الجزء الذي يكفي لترك القواقع حيث هي؛ لا تنفصل، وما إن طرق أذني الأستاذ كلام نادر ذاك؛ حتى نظر في وجهه وأسرع إلى طرح سؤال مُلِحّ على الإجابة:

– أأتيت بتلك القواقع الآن؟

أجاب نادر قائلا:

– نعم، وإني أحذر منذ ذلك الوقت من أن تتفكك تربة الطين المتماسكة، والملتحمة بها القواقع.

سار نادر إلى طاولة كبيرة؛ اتسع له سطحها، ليضع عليه وبعناية القطعة المُتيبِّسة من تُراب الكهف. فما إن كشط الأستاذ تُرابا من قطعة القواقع، وأطال النظر فيها بعدسة الميكروسكوب؛ حتى قال:

– إنها تربة طينية ترسبت في الكهف منذ آلاف السنين.

وما إن نظر أيضا إلى القواقع بمُكبِّرة يدوية؛ حتى قال:

– إنها قواقع لحيوان بحري من الرخويات منقرض اسمه (ناساريوس)، أما وضعها بهذا الشكل الذي هي عليه الآن، فذلك لم أعرف له سببا، ولا الحاجة منها، وما لاحظْتَه أنت بأنها ليست من فعل الطبيعة فهو صحيح، والغالب أن

الإنسان جلبها من شاطئ البحر القريب، لأي غرض؟ لم أتوصل الآن إلى أي من ذلك.

واتجه الأستاذ إلى النافذة المفتوحة الدفتين، وأطل على حديقة تنبت بها شجرتان وورود، وظلت عيناه مُنْبتّتين في تُربتها المحروثة بقادوم وبِمُشط الأرض، والمسقية في وقت مبكر من ذلك اليوم، وطال تفكيره، وأعادت ذاكرتُه ما روى عليه نادر منذ قليل، فالتفت إليه وجال ببصره في وجهه، وفي عينيه بريق استِبْشاري، فقال:

– إن المكان الذي هويت فيه هو مغارة؛ هو مأوى للإنسان الأول، وذلك القدر وتلك الجرّة الطينيتين كانتا له، وتلك أصداف لـ(ناساريوس) البحري؛ جمعها لحاجته إليها... ما هي؟ هذا سؤال يجيب عليه أحد الأساتذة الباحثين في علم آثار الإنسان الأول، سنبحث عمن له علم بذلك ليكشف لنا عن سر القواقع.

ونظرا في عيني بعضهما البعض، وشيء واحد فقط كان يدور في ذهنيهما، وهو المعهد الذي يُدرّس فيه علمُ آثار ولُقيا الإنسان الأول؛ في مختلف حقب التاريخ، فمن بين أساتذته سيجدان المتخصص منهم، وتوجها إليه، ولم يتطلب منهما ذلك وقتا طويلا، فقد كانت إحدى حصص الدرس على وشك الانتهاء، والأستاذ سيخرج من قاعة الدرس، وسيقصد خزانة الكتب، وإلى هذه كانت كاتبة الإدارة تتقدم نادر وأستاذَه، وتدخل وتُقدّمُهما إلى أستاذ الآثار، فيتعارفون على بعضهم البعض، فكان أول من بدأ بالحديث هو أستاذ الأحياء والمستحاثات قائلا:

– إن ما سنُخبِرك به هو اكتشاف عظيم؛ يدخل في مجال تخصص علم الآثار، ولا أحد طبعا يُدرِك أهميته العلمية، ودَرس المناهج والأدوات للبحث في موضوعه.

تخلص ذهن أستاذ الآثار من التفكير في أي شيء؛ كان ما يزال يشغل باله، وعاد بانتباه إلى بداية الحديث ذاك، فقال:

– عندما نطقت بكلمة اكتشاف، فإني أعرف إلى أي حد مهم ذلك الذي أُكْتُشِف.

قال أستاذ الأحياء والمستحاثات:

– نعم، وإن الذي اكتشفه تلميذي نادر في أول رحلة صيد له؛ هو كهف من تلك الكهوف التي توجد على بُعد مئات الأمتار؛ من شاطئ البحر، والتي كان يأوي إليها الإنسان الأول، ولديه ثلاث دلائل؛ قِدْر وجَرّة وقواقع للرّخويّ البحري المنقرض (ناساريوس).

فما كان من أستاذ الآثار إلا أن تحرك في كرسيّ حتى سُمِع لهذا أنين، وعلا بجذعه وأطل على نادر والأستاذ، وقال:

– لقد لخصت يا أستاذ حياة الإنسان القديم؛ أوجزت ما سنبحث عنه بالتدقيق، وبالإفاضة في المعلومات؛ في كلمات، فتلك كانت مواعينُه التي يُهيئ بها غِذاءه، والقواقع كانت زينة له.

فأشار أستاذ الأحياء والمستحاثات إلى نادر بأن يُخرِج الشيء المكتشف، فلم يتردد نادر، ووضع أمام عيونهما قطعة القواقع، فصار ينظر أستاذ الآثار إلى ذلك الشيء مبهوتا، ولم ينتظر لحظة لينطق باسم الاكتشاف العظيم، فقال:

– إنه فعلا عِقد من قواقع الحيوان اللافقاري، يا لعجائب الزمن؛ ما تزال القواقع في ترتيب؛ من أكبرها في أسفل العقد، وتتدرج في الخيط في حجمها إلى يمين هذه الكبيرة وإلى يسارها، إلى أن تلتقي في أعلى العقد بأصغرها.

وبعد وقت لم يرفع فيه أستاذ الآثار عينيه عن العقد من قواقع الحيوان الرخوي؛ استطرد قائلا:

– سنقوم بحفريات في الكهف؛ طبقا لمناهج التنقيب، وطرقه وأدواته؛ باحثين عما يمكن أن يكون قد تخلف من آثار عن الإنسان الأول الذي نزل فيه.

وخطا إلى خزانة من أدْراج خشبية مستطيلة، وأخرج خريطة وبسطها، وطلب من نادر أن يبين له مكان المغارة، فصار نادر يبحث عن الموقع انطلاقا من ساحل البحر وخط الوادي؛ إلى أن حدده في إحدى ثنيات هذا الأخير، ودل عليه قائلا:

– هنا الكهف، ويمتد نفقه مع اتجاه المجرى؛ إلى المصب على مسافة أُقدِّرها بعشرين مترا.

قال أستاذ الآثار مُتحمّسا:

– سنقوم بحفريات في المغارة وفي محيطها؛ في أقرب وقت، لأن هذا الفصل عادة ما يكون مُناسبا لعملنا نحن الأثريين، ثم سكت لحظة وأضاف قائلا:

– وهذه القطعة من أرضية تلك المغارة نادرة بشكلها المتفَرّد به، ونموذج لدراسة حياة الإنسان الأول اليومية، وهي تعبير عن ذهنيته وتصوره لجمالية الأشياء، وكيف جنى من محيطه الطبيعي ما يُسعده، ويُضفي عليه الزّينة، وما يستمر به أملُه وأمانيه، وتكبُر أحلامُه، وإن السعادة في نور فتيل قنديل؛ يتحلق حوله أفراد الكهف، وحولهم تُظلِم الدنيا، ومن الغاب البعيدة يصل إلى آذانهم عُواء الذئاب، وتشرق الشمس في الصباح، فيُضاء جانب من المغارة، ويعم العالم النور، وتنعم الأجساد والأفئدة بالدفء.

قال أستاذ الأحياء والمستحاثات ناقلا نظراته بين أستاذ الآثار ونادر:

– إن نادر يوافق على أن يكون عقد الأصداف من بين ما عَثَر عليه علماء الآثار من اللَّقايا، ويُحفظ في خزائن المعهد، حتى لا يُعوِز البحث في علم الآثار فقدان ما يُغني معرفتنا بحياة الإنسان الأول.

فشكرهما أستاذ الآثار، وكانت تحيته لنادر خاصة من عالم مُتبحِّر صادقة، وبعد أسبوع من التحضير ترأس عالم الآثار فريقَ تنقيب بعد أن اختار أفرادَه بنفسه؛ بأوصاف معينة، وبمعايير تطلبها الحفر في موقع أثري قديم قِدم الإنسان الأول، وذي أهمية بالغة، ويستلزم النّهلَ من علوم أخرى مُساعِدة، وأبرق أحد المراسلين بالخبر إلى وكالة الأنباء، وعلم أحد الصحفيين وبحسه الذي تولد لديه؛ هداه إلى المصدر بأن شيئا ذو قيمة أثرية قد لا يُضاهيه أيُّ مما نقب عليه علماء الآثار –تُحفتهم التي تُلقي الضوء على حضارة الإنسان– في بقعة أخرى من الأرض كجزر (الكناري)، وضفتي حوض البحر الأبيض المتوسط؛ إنه عقد من قواقع الحيوان البحري (ناساريوس)؛ ما يزال على حاله وإن تفتت الخيط، ولم يتبق منه إلا أليافا فُحصت بالميكروسكوب، وذلك الحيوان المائي قد انقرض، فمنذ كم من السنين حدث ذلك، وهل كان ذلك العقد قد جُلِب بالمقايضة من جماعة بشرية أخرى تقيم في مكان بعيد، قد يفصلها بحر عن أصحاب عقد (الناساريوس)؟ فكتب ذلك الصحفي قصة مثيرة؛ موضوعُها اكتشاف المغارة والعثور على ذلك العقد، حققت للصحيفة شهرة وإقبالا كبيرا، ولم يمض شهر

حتى فاجأ أستاذُ الأحياء والمستحاثات نادر بعدد من نفس الصحيفة؛ ينشر خبرا بسرقة عقد قواقع (ناساريوس).

قرأ نادر الخبر، فوجده لم يزد عن الإنباء على أن قطعة الخيط الذي نُظمت فيه أصدافُ الرّخويّ البائد سُرقت، وعلى أن البحث جار، والتحقيق مع آخِر من رأى العقد المسروق، ومع من يُشك فيه، ومن يُحتمل أن يكون السّارق، وقد حز فقدان العقد في نفس نادر، فبدت على وجهه غمامة من الحزن، وتهالك على كرسي مضطربا، وصفحات وأوراق الصحيفة بين يديه، ثم وضعها على الطاولة بغضب، والأستاذ ينظر إليه بأسف، وأراد أن يُعيد إليهِما معا الإحساس بالأمل، فقال:

– لن يتهاون موظفو المصلحة المفوض لها التحقيق في الأعمال الخارجة عن القانون؛ في البحث عن العقد، والقبض على الذي امتدت إليه يده.

لم يسمع الأستاذ من نادر أيّ تعليق على كلامه، ورآه يقوم وقد التمعت عيناه، وسرى الدم ساخنا في وجنتيه، وقال متسائلا:

–ألم تكن قطعة الأصداف من بين ما ظل في مكان الإنسان الأول؛ في بهو المعروضات بالمكتبة الوطنية؟

أجاب الأستاذ فورا:

– نعم؛ وقد عُرضت تلك اللُّقى القديمة؛ بموازاة مع اللقاء الدولي حول حياة الإنسان الأول، وكم من علماء الآثار المختلفي الجنسيات وفدوا من دول العالم؛ لإلقاء محاضرات حول حضارة إنسان الكهوف.

أنصت نادر باهتمام إلى إجابة الأستاذ، وفكر فيها طويلا، فقال:

– وهل نُظِّم ذلك اللقاء الدولي بمناسبة العثور على العِقد من قواقع (ناساريوس) ذاك؟

أجاب الأستاذ على الفور:

– نعم.

وَحدَّق في وجه نادر؛ قارئاً أثر إجابته، ومُنْتظرا ما سيقول، وتحرّك لسان نادر ناطقاً:

– ليس من يُقْدِم وبهذا التخطيط والتحيُّن للفرصة؛ إلاّ أحدا أجنبياً، فقد استغل ظرف انصرافنا عن الاهتمام بهذه الأشياء، وبِعِلم بها.

قال أستاذ الأحياء مُتحفِّظا:

– قد يكون اسْتِنتاجُك صحيحا.

بعد لحظة صمت فاه بملاحظة:

– لم ترِد في خبر الصحيفة كيفية السرقة.

قال نادر مُدافِعا عن استنتاجِه:

– ذلك لا ينفي بأن السارق أجنبي.

حرّك الأُستاذ رأسه مُوافِقا وقال:

– ما دمت أنت الذي عثر على العقد، ولم يكن ذلك مصادفة، لأنه كان بدافع استكشاف الأماكن، والرغبة في ارتياد الطبيعة، فلك الحق في معرفة الكيفية التي سُرِق بها العقد، ولك أن تُخبَر بما حدث بالضبط، وتطّلِع على من سرق، ولأي غرض.

قال نادر مُقترِحا:

– نستطيع نحن الإثنان أن نتعقب السارق.

كأن الأستاذ اِنتبه من غفلة، فصار يُعِيد في ذِهنه كلام نادر، ويُقلّبه ظَهْراً لِبَطْن، ثم قال:

– نعم؛ نستطيع، فأول ما يُمهّد لنا إلى ذلك هو الاطلاع على لائحة الزائرين والمدعوين والمشاركين الأجانب، والمرافقين لهم ومساعديهم؛ الذين تقاطروا على المكتبة الوطنية، ونحاول أن نعرف أشياء كثيرة عنهم، البعض منها قد يكون له علاقة بسرقة العقد.

ولم يُطِل تفكيرُ نادر فيمن يمدّهم بأسماء أولئِك الأجانب، فقال:

– إن الذي التقينا به سابقا، وكُنّا قد قصدناه لأنه أستاذ باحث مُتخصّص، وما أخبرتُه به من أمر ذلك الكهف هو من جميل الأعمال، فكان أن حظي بأولوية العلم به، أيكون جاهلا بمراسلات تنظيم الأسبوع الدراسي، وبلوائح المحاضرين المشاركين والمدعوين؟

قال الأستاذ بِنَفْي قاطِع:

– قطعا لا؛ فهو من يُتِيح لنا الاطلاع على القائمة.

قال نادر بإِقْدام مُنقطِع النَّظير:

– حالا، وإلا فالوقت يمرّ، والسارق يُسابِق الزمن، ويستعجل نفسه ليفلت بالعقد؛ بعد أن يكون قد أصبح خارج نطاق التفتيش.

قطعا المسافة الفاصلة بينهما وبين معهد دراسة الآثار والتراث؛ بالسيارة في وقت وجيز، وما إن وصلا حتى سألا عن أستاذ الآثار، فأُجِيبا بأنه يتصفح الكتب في الخزانة، فاستأذناه، فرحب بمجيئِهِما، وجلسا مُقابليْن له؛ إلى الطاولة الخشبية ذات الطلاء اللامع، والممتدّة طولا وعرضا. نظر في عيونهما، فبدت له علامات هِمّهِما بالعقد وقد ارتسمت على وجْهيهِما، وقال:

– يظل السؤال المُهيمِن على عقولنا؛ هو هل سيتمكن المحققون من الوصول إلى السارق، وإيجاد العقد؟

سأله أستاذ العلوم قائلا:

– أيُمكن أن يُباع إلى أحد متاحف دول العالم؟

أجاب الأثري:

– قد يُباع، وليس من الضروري أن يُعْرض في القاعات المفتوحة للزائرين، فيُحْتفظ به في قبو مستودع، ولا يُسمح بإظهاره؛ إلا للباحثين في تاريخ الإنسان الأول؛ بهدف الوصول إلى استنتاجات علمية باهرة.

كان أستاذ العلوم قد فكر من قبل في سؤال، فقال:

– كيف عرفتم أنه سُرِق، وما هو آخر مكان وُجِد فيه العقد؟

أجاب أستاذ الآثار دون تردد:

– عندما فتحنا الصندوق الخاص بنقل العقد، والذي أعادته سيارة معهد الآثار من قاعة العرض؛ وجدناه فارغا، ولما دقّقنا النظر في تقنية صنعه؛ تبين لنا أنه مُقلّد، واتضح لنا أن الصندوق الأصلي أُسْتُبدِل؛ كيف وأين ومتى؟ ما بين الوقت الذي كنت قد تناولت فيه العقد بنفسي من صندوق قاعة العرض الزجاجي، ووضعته في الصندوق الخاص به، وأمرت أحد الأعوان بحمله إلى حجرة إيداع الأشياء التي عُرِضت، أو التي كانت رهن العرض، وحُدِّد وقت النقل في الغد؛ مع بداية الوقت الرسمي للعمل، ففي لحظة انصراف انتباه الحراس،

وهم في وقت انتهاء المناوبة؛ تسلل أحد على الساعة الحادية عشرة ليلا، ودمر القُفل بآلة ضغط عالية التقنية؛ مُزوّدة بكاتم للصوت...

توقف لحظة عن الكلام، وأدار وجهه عن أستاذ الأحياء ونادر ناظرا بعيدا، وقد بدا عليه الحرج، وقال:

– إن لتلك الحجرة خطورتها؛ كان من باب الاحتياط أن تُزوّد بنظام إنذار إلكتروني... للأسف لم يفكر في هذا، كأن تراثنا لا يتطلب تقنية مراقبة متطورة.

ولم تُنْسِ أستاذَ الأحياء كيفيةُ سرقة العقد التي أخبراهما بها أستاذ الآثار، وإن كانت مُثيرة؛ الغاية التي من أجلها قدما إليه، فقال:

– إن إحساسنا بأهمية العقد، وحسرتَنا على فقده؛ دفعانا إلى السؤال عما يَمُتّ بِصِلة بعملية سرِقتِه، فإذا لم يكن أيّ مانع؛ هَلاّ أطلعْتنا على لائحة أسماء المدعوين والمشاركين في اللقاء؟

لم يَبْد على أستاذ الآثار أيُّ تردد، وقام وسار إلى مكتبه، وعاد بورقة؛ قُيّدت عليها أسماءُ أشخاص، وتخصصاتهم العلمية، ومدة إقامتهم لزيارة بعض المتاحف المغربية، وتحرير تقارير، وإنجاز بحوث علمية، وقد لفت نظر أستاذ الأحياء اِسمُ أحدهم، فمُدة برنامج اشتغال هذا العلمي بالمغرب كانت ستطول، ووردت معلومات عنه؛ أنه عالم آثار يوناني، يبحث في حضارة إنسان العالم القديم الأول، وخاصة إنسان شمال إفريقيا وجزر (الكناري)، وهو يرحل بين بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط؛ في سفينة شراعية يملكها، وهي راسية في ميناء مراكب الترفيه؛ على الضفة اليمنى لنهر (أبي رقراق[52])؛ بمدينة (سَلا)[53]، فاحتفظ أستاذ الأحياء بملاحظته، ولم يتحدث بها إلى أستاذ الآثار، وشكره، وغادرا بناية معهد الآثار، وفي طريق عودتهما؛ أخبر الأستاذُ نادر بما لاحظ، والتقطت أذنا نادر الكلمات المغربية بالاستكشاف والتحقيق، فأسرع قائلا:

[52] نهر ببلاد المغرب ينبع من جبال الأطلس المتوسط ويصب في المحيط الأطلنتي؛ طوله 240 كلم.

[53] مدينة توجد في الشمال الغربي للمغرب على ساحل المحيط الأطلنتي؛ على الضفة اليمنى لنهر (أبي رقراق)؛ يبلغ عدد سكانها 403.982 نسمة حسب إحصاء 2014م.

– فَهَلُمّ بنا يا أستاذي إلى الميناء؛ لنرى شكل سفينة عالم الآثار، وهل ستلتقط عيوننا أيّ حركة؛ تُشْعِرنا بأن لا ريب في أن العقد؛ سيُقلِع به مركب عالم الآثار اليوناني؛ مُبحرا نحو الأفق؛ يخوض أمواج البحر.

فقاد أستاذ الأحياء السَّيَّارة التي يستقلانها بسرعة في الطريق المار خارج شوارع المدينة المتقاطعة، وبعد تجاوزهما منحدر جرف وادي (أبي رقراق)؛ تطلعا إلى السواري التي ترسو مراكبُها على الأرصفة الخشبية الطافية، وهما يترجلان من السيارة ويسيران؛ إذ بدت لهما أبدان تلك القوارب منتظمة في صفوف؛ متنوعة الأشكال والألوان، وكلما خلقت مراوح محرك زورق أمواجا من الماء وامتدت، وتتالت، تحركت تلك المراكب، فتحدُث جلبة خفيفة، تغدو كأنها فعلا لا غنى عنه في الميناء، الذي يبدو كأنه هادئ، وقد تُسمع وَطْآت أحد وهو يتجه إلى أحد المراكب، أو يُغادِرُه؛ على لوح الرصيف العائم، وهما يخطوان كذلك في ساحة أسمنتية واسعة؛ يُودَع فيها بعض زوارق رياضة البحر؛ إذ خطف بصرَهما مركبٌ مصممٌ وبشكلٍ مُتطور عن قوارب اليونان الخشبية، مَطليّ بسائل التلميع البني اللون، فكان جميل الشكل؛ يجذب إليه الأنظار، ومُتميِّز عن باقي القوارب والمراكب المصنوعة من مادة اصطناعية.

وما كادا أن يدنوا منه حتى خرج منه رجلان مغربيان، وبدت على هيئتِهما أنهما مُحقِّقان من جهاز الأمن، فتبادل أستاذ الأحياء ونادر النظرات، فالمركب إذن قد خضع للتفتيش، ولم يستبعدا أنهما طرحا أسئلة على عالم الآثار اليوناني؛ مالك المركب، وتتبع نادر والأحيائي المحققين وهما يغادران الأرصفة الطافية؛ بِخُطُوات ثقيلة، وبالتفاتات في الأرجاء غير مُبالِية، مما جعل الأستاذ ونادر يَسْتنتِجان بأنهما لم يعثرا على دليل؛ على أن العقد سيُنقل خُفية بمركب العالم اليوناني، ولم يصرفهما تصرف المحققين ذاك عن القيام بجولة في مساحات وأرصفة الميناء، والنظر من حين لآخر إلى المركب اليوناني، ويُبْدِيان إعجابا بشكله الكبير.

ولما رجعا من أقصى أحد جوانب الميناء؛ جلسا إلى مائدة مقهى مُظلَّلة، وطلبا كوبي عصير، ولفتَ نَظَر الأُستاذ مركبٌ وهو يتحرك على صفحة مياه الميناء

الساكنة، ورأى الشخص الذي تهادى به المركب يخرج من الكابينة، ويتجه إلى المقهى، ويجلس إلى مائدة غير بعيدة عنهما، فخاطبه الأستاذ قائلا:

– طوبى لك.. فما أمتع أن تُبحِر بهذا المركب في البحر؛ إنه لَأَسْعد وقت يُنْسيك تعب حياة المدينة.

ابتسم الرجل، وقال:

– أكون أكثر سعادة إذا شاركتُماني مُتعة السّفر به في البحر، وإني أدعوكما إلى قضاء وقت بصُحبتي على سطح مركبي هذه الليلة؛ إذا لم يكن هناك ما يشغلكما.

اغتبط الأستاذ بدعوة الرجل، وقال:

– لنكن الآن ثلاثة تحت هذه المظلة، وإلى هذه المائدة لنتعرف إلى بعضنا البعض.

فلم يُؤخّر رجل المركب خَطْوة من خطواته، وقام وانضم إلى الأستاذ ونادر، قدم أستاذ الأحياء نفسه، وأضاف قائلا:

– وهذا تلميذي نادر.

قال الرجل مُبدِياً اهتمامه بما طرق أذنيه:

– هذا خير ما أسمع، فرُفقة التلميذ لأُستاذِه فيه نفع كثير؛ التعلم والاقتداء.

وتابع كلامه مُقدّما نفسه:

– أستاذ بدرجة محاضر في الطب، وأحد من ثلاثة يملكون عيادة للتطبيب والجراحة، بعد العمل طول اليوم المُضْني؛ ألوذ بمركبي ليأويني ليلة أو ليلتين للتّخفّف من الأعباء والتعب، ومنحِ الجسم فرحة الحياة في جو البحر الذي يبعث على النشاط.

كان أستاذ الأحياء يستمع إلى الأستاذ المحاضر في الطب بانتباه، ويرى أمامه رجلا في الخمسين من العمر؛ ذو بنية كبيرة؛ رياضي الملبس والحركات؛ وبشوش؛ فارغ الذهن، ينظر إلى المستقبل بإصرار، ولا يستحضر من الأمس إلا ما فضل منه نفع أو فائدة، مِقدام؛ يصرفه تَرَفُّعُه عن الفضوليين الوضِيعين إصرافا، وأحب شيء إليه هو أن يجمعه مجلس إلى من ذو عقل نَيِّر؛ إلى مُتعلّم يتدفق ثقافة،

رجاؤه أن يجوب أمصار وأصقاع العالم؛ خائضا في مياه البحار والمحيطات؛ ليتعارف مع أفراد الشعوب والقبائل.

دُعي أستاذُ الأحياء ونادر إلى المركب، وهما يسيران خلف الأستاذ الطبيب على الرصيف الخشبي الطافي، ويصل إلى سمعهما وقعُ أحذِيتهِما؛ إذ كانا يختلسان النظر إلى مركب عالم الآثار اليوناني؛ ما إذا كانت بداخله حركات وأصوات آدمية؛ لم يصل أي من ذلك إلى آذانهما، فمن غير المستبعد أن يكون سكونُ الظهيرة وحرارتُها الزّائِدة وأكل الغِذاء التّخم؛ قد أثقلا جفون من يسكنون المركب، فقيّلوا به.

كانا قد خطوا وراء المحاضر في الطب على الرصيف، وكانت أول مرة يحظى نادر بذلك، وكان ما شعر به جديدا عليه، ولا تسأل كم كانت سعادتُهما معا حين نقلا خطواتهما من ذلك الرصيف المتحرك إلى المركب، فكلا هذين الأخيرين كانا يتمايلان كأراجيح الأطفال، ويكادان أن يفقدا توازنهما، وكأن الأرض خسفت أو مادت بهما، أو قد غديا بين السماء والأرض، ولَشَدّ ما وجدا نفسيهما في سكن مَركب؛ بخشب بدِهان خاص لامع؛ منبسطة أرضيته، ومفروشة جوانبه وزواياه، وله حُجرات؛ منها ما هو مُخصّص للطبخ، وآخر لمكتبة للقراءة، وآرائك للاستلقاء والاسترخاء والنوم، وكان تقريبا كل ما تحتاجه جلسة حميمية متوفرا في المركب الشراعي، فقُدِّمت أكواب الشاي، ووُضِع على المائدة المستطيلة صحنٌ من الكعك الذي طهت عجينه النار، فتشقق بلون الحرق الخفيف، فاستلذته العيون، وانشحذت له الأسنان، واندقت له الأضراس الساحقة، تخللتها أحاديث شيقة؛ أوحى بها ذلك المكان المخصص في شكله، كالجديد في صناعة المراكب والسفن، والاكتشافات الجغرافية في القرن الخامس عشر الميلادي، التي لولا اختراع السفينة لِحاجة في خوض المحيطات والبحار؛ لما نجح الأيبيريون؛ سكان جنوب غرب أوروبا، في اكتشاف تيارات بحرية أخرى غير معهودة في حوض البحر الأبيض المتوسط، أو في المحيط الهندي، فالأول كانت تُبحر فيه مراكب لها شكل وشراع مُعيّن، وفي الثاني كانت تبحر سفن لها شكل وشراع معيّن، وفي المحيط الأطلسي أو المحيط الهادئ؛ كانت السفن

والأشرعة بأشكال أخرى تؤهلها لهذين المحيطين؛ لم يسبق قبل ذلك القرن أن خاض الإنسان خِضمَّهما.

فماذا بعد ذلك عن مركب عالم الآثار اليوناني؛ الذي ما تزال فرضية وجود العقد به تطن في رأسي أستاذ الأحياء ونادر؟ فقد امتد بأفراد الجماعة إتحاف بعضهم البعض بمواضيع، وبنوادر مما يحدث؛ إلى ما بعد غروب الشمس، وكان نادر قد شاهد من نافذة المركب الدائرية الإطار ضوءًا أحمر ظاهريا يُلوِّن أسوار مدينة (سلا) الأثرية، وحيطان البيوت الأسمنتية، والمتلاصق كل منها بالآخر، والتي علت على السور المبني بالتراب الأحمر وبالحجارة الدقيقة، فترك من كان يجلس في المقهى، ومن انتهت مُناوبتُه من عمال وحراس الميناء، وسكنت حركة من ظل هناك، وقد أحاط سكون الليل به، وبالمراكب الهادئة، وبالأرصفة الطافية، وقد تشاور أستاذ الأحياء ونادر فيما بينهما، ولم يكونا بمفردهما ليَنْبِسا بكلام، فكانت نظرات العين المُعبِّرة، وإشارات الأيدي تُغنيهم عن ذلك، ليُسِرّا إلى أستاذ الطب بما جاءا بهما في الحقيقة إلى الميناء، وقد شوَّقتْه القِصّة وانبهر بإصرارهما ومجهوديهما، وما دامت مثل تلك القضايا الثقافية تستهويه، فقد تحمَّس وبدت آمارات الشجاعة على صفحة وجهه، وفي عينيه اللتين برقتا بتحفّز، وانتابته رغبة شديدة في مُشاركتِهِما في مُغامرتِهِما، وقام ورفع رأسه، وأطلّ ليستكشف المركب اليوناني الشكل، وأبدى إعجابه بتصميمه، ثم عاد وجلس كمن يتأهب لفِعل مُلِحّ، وقال:

– ما أجسم مهمة تجَنَّدتُما من أجلها! وعلى أي أساس؟

أجاب أستاذ الأحياء:

– أولا: كان العِقد من ضمن معروضات المتحف العالمي المؤقت، والذي تم تنظيمه بمناسبة الأسبوع الثقافي الدولي، الذي كان موضوعه حياة الإنسان الأول في منطقة البحر الأبيض المتوسط، ثانيا: كان أستاذ الآثار اليوناني المختص من بين الذين ساهموا بإلقاء المحاضرات، وزيارة الأماكن الأثرية بالمغرب، ثالثا: إن المركب اليوناني هو الوسيلة الوحيدة والمُتاحة لنجاح عملية نقل العقد إلى خارج بلده الأصلي.

لم يستمر أستاذُ الأحياء في إجابتِه، وانتظر تعليقَ أستاذ الطب، الذي طَفِق يُفكّر فيما سمعه، وسأل:

– أَوَ استبعدتم أستاذ الآثار اليوناني من العملية؟ لا يليق بمثله، وهو أكاديمي متخصص أن يكون صاحب الفكرة، والمُخطِّط، وأحد أعضاء جماعة سرقة اللُّقى الأثرية.

رد أستاذ الأحياء بسرعة:

–اِسْتبعدْناه، ونحن في أولى مراحل البحث عن العقد، وعن تعقب السارق.

قال أستاذ الطب:

– إذن فهذا واحد أو أكثر ممن يُرافِقُونه في سفره البحري.

قال نادر:

– ما هو مؤكد أنه لا بد من أن يكون لهذا المركب، وبهذا الحجم قائد له تجربة في توجيه الدفة، وتفحّصِ خرائط المسارات البحرية، والرسو في الموانئ، وبحارة يساعدونه.

قال أستاذ الطب:

– ليس كل ما تنقله السفن والمراكب، وهي تَمْخَر البحر عمله شريف، فالتوغل في البحر قد لا يُتِيح أي بارقة أمل في استرجاع ما سُرِق، لست مُتشائِما؛ لكنها الحقيقة التي أعرفها ويعرفها من يمتهن العمل في البحر.

وتمضي ساعات الليل الأولى، ويخرج نادر إلى سطح المركب، ويُجيل ببصره في جميع الاتّجاهات، فينظر إلى ما انعكست عليه الأضواء الكاشفة، كأسوار مدينة (الرباط) الأثرية، وصومعة (حسان)[54]، ويبدو له هنالك ضوء متحرك يسير سريعا، فيعرف أنه لقاطرة تجر عرباتها، ويتلوى القطار في المنعرجات ويهبط الوادي، ويعبُر قنطرة نهر (أبي رقراق)، ويتقدم، سُرعان ما يَخطِفه انعطافٌ، ويختفي في ظلام سفح قمة الهضبة، التي بُنِيت عليها صومعة (حسان)، وجامعها الدارسة حيطانه، وأعمدته الأسطوانية، والضريح الملكي[55] الذي تُنِير بياض بنايته

[54] صومعة (حسان) مبنى تاريخي في العاصمة المغربية (الرباط)؛ بنيت في عهد يعقوب المنصور الموحدي (1160م- 1199م).

[55] ضريح يضم رفاتي المغفور لهما محمد الخامس والحسن الثاني.

أضواء كهربائية قوية، وهو ينتعش بجو الليل الرائق؛ إذ لفت سمعه ضربات مجذاف في مياه النهر، فالتفت إلى مصدر هذا الصوت الغريب في ذلك الوقت من الليل، فالتقطت عيناه زورقا من زوارق ضفتي النهر؛ المألوفة لسكان العُدْوتين، والتي يعبرون بها النهر؛ يقترب من مركب أستاذ الآثار اليوناني، ويُنْبِّته أحد من ركاب السفينة بقبضة من راحته، ويستعد صاحبه لآستقبال أحد في زورقه الخشبي، فنادى نادر بصوت حذر وخافت على الأستاذين، فهَرِعا، ورأوا جميعا الزورق وهو يتراجع برجلين بعيدا عن المركب اليوناني، ويمضي بهما صاحبه مُجذّفا في اتجاه الضفة اليسرى للنهر؛ حيث الصخرة الهائلة والمرتفعة التي تستقر عليها بيوت مدينة (الرباط) القديمة؛ المطلية بالبياض؛ تُتوّج نوافِذُها كِنان[56] خشبية، وتمتد أمامها شُرفات من قضبان من حديد، وموطئ قدم من خُشبان مطلية بالأخضر.

نظروا إلى بعضهم البعض، لأن ما رأوه جعل تفكيرهم يذهب بعيدا، سُرعان ما أدركوا أن ركوب الزورق ليلا من طرف شخصين، ويقصدان الضفة الأخرى؛ فِعلٌ يتطلب منهم أن يعرفوه، فكان أول ناطقيهم هو أستاذ الطب، قال بنظرات حادة، وبملامح صارمة ؛كان قد أدى إليها مجيء الزورق الغريب وذهابه؛ تُسمع ضربات مجذافيْه، تتالا بدُربة وبرتابة دون لفت أسماع أيّ من بقي في الميناء:

– لا أشاطركما رأيَ أخذ زورق النجاة والتجذيف به وراءهما، وهذا ما تبيّنتُه من نظراتكما المُتحمّسة؛ أرى أن نركب سيارتي ونسير في طريق قنطرة النهر، وندور إلى الضفة الأخرى، فقد نُدْرِكُهُما وهما ما يزالا يبحثان عن موطئ أقدامهما على الرصيف الطافي؛ ليتجها إلى المدينة.

ما إن سمع نادر وأستاذ الأحياء اقتراح أستاذ الطب حتى تبعاه، وكان هو قد همّ بمغادرة مركبه، فجروا جميعا إلى السيارة وركبوها، وانطلق بها صاحبها أستاذ الطب بسرعة؛ مُحاوِلا أن يقطع المسافة وفي وقت أقل من وقت تجذيف الزورق المُتعقَّب، وكانت أقدام رجُلي المركب اليوناني قد تركت الرصيف الخشبي المتحرك، وسمعوا هم وَطْآتِهِما على الجسر الطالع إلى الأرض، ثم رأوهما قد عبرا

[56] جمع كُنّة وهي السقيفة التي تبنى فوق باب الدار أو النوافذ.

الشارع المزدوج الموازي للنهر، وصعدا دَرجَ بناء باب (البحر)[57]، وكان قد ركن بهم أستاذ الطب السيارة، ونزلوا مُحاوِلِين ألا يغيبا الرجلان عن أنظارهم في الزقاق الصاعد الذي يمتد إلى مُفترق زقاق سوق (السّبّاط)[58]، وزنقة (القناصل[59])، ولم يبلغاه؛ فقد توقفا أمام محل لبيع الكتب القديمة، وتبادلا كلاما؛ لعلهما يُشاوِران بعضهما البعض، فلهما أيضا اهتمام بالكتب والمخطوطات العربية النادرة، فدلف أحدهما إلى داخل متجر الكتب ذاك، وتابع الآخر طريقه الصاعد، وفي زمن مدته دقيقة؛ كان أستاذ الأحياء قد استعد لدوره، وهو أن يظل يراقب الذي دخل إلى متجر الكتب، وتبع نادر وأستاذ الطب الرجل الذي انعطف إلى زنقة (القناصل) وسار، ثم انعطف يمينا، وبعد عشرين مترا مال إلى زقاق ضيق، ثم إلى آخر وآخر، والأزقة تتشابك به حتى دفع بابَ بيت خشبي ثقيل ودخل في ممر، وصعد درجا وغاب، فدخل نادر واختبأ في زاوية مدخل البيت، وكَمَن، وظل أستاذ الطب واقفا، ثم طرأت على باله فكرة، وهي أن يستدرج صاحب دكّان قريب ومُجاور للبيت الذي دخله الرجل؛ إلى حديث يستخبِر به، فقال له بأنه قادم من مدينة أخرى بعيدة؛ إلى العاصمة الإدارية ليسأل عن شأنه الإداري، الذي يتطلب منه إقامة أسبوع، فيريد أن يكتري حجرة، وألح على ذلك البيت القريب من محالّ التسوّق. قال تاجر المواد الغذائية بأن البيت قديم البناء ومسقوف بالخشب؛ مكون من حجرة في الأسفل وغرفتين في الأعلى؛ إحدى هاتين تسكن بها أسرة من ثلاثة أفراد، والأخرى أُكتُرِيت منذ عشرة أيام لأجنبيين؛ وأن صاحب البيت كان قد أطلعه على استغرابِه؛ وهو أنهما لم يبيتا فيها ليلة واحدة؛ فقط استودعاها حقائب اليد والظهر، وفي مُغادرتِهما للغرفة والعودة إليها ارتباك، وكأنهما يتعجلان تركها في فرصة تسنح لهما، وأنه هو الذي تودع عنده المفاتيح بعد الإخلاء النهائي للغرفة، التي عادة ما يُدفع مقابل كرائِها مُسبقا، وصَادف أن خرج ذلك الأجنبي حاملا حقيبتين جلديتين، تدلت

[57] باب (البحر)؛ من أبواب مدينة الرباط القديمة الأثرية.
[58] تسمية محلية تعني سوق الأحذية؛ زقاق تجاري تباع فيه الأحذية والنعال الجلدية.
[59] سُمّي بذلك لأن قناصل الدول الأوروبية كانوا يتخذونه مقرا لهم؛ منذ القرن السابع عشر؛ حتى العقد الأول من القرن العشرين.

إحداها مُكرّش جلدِ حجمها من كتفه، والأخرى متينة ومربعة الشكل؛ يقبض بعُروَتها المتقنة الصنع حاملا إياها، وقصد تاجر المواد الغذائية ومد إليه يده بمفتاح، وسار هابطا الزقاق بجسم قوي وبخطوات ثابتة. في هذه الأثناء كان أستاذ الطب قد تراجع والتفت إلى الوراء ليرى نادر قادما، فتبِعا الأجنبي الذي لم ينعطف يمينا، ليسلك الإتجاه الأول، وإنما انعطف يسارا في زنقة (القناصل)، ثم إلى يمينه ليتجه إلى قوارب النهر، وهناك وجد صاحبه الذي تركه في دكان بيع الكتب القديمة، فنادا على صاحب مركب، فجذف هذا وقَارَب زورقه بالرصيف الطافي ليركبه الرجلان، ثم يجذف بهما نحو الميناء.

كان قد التقى نادر وأستاذ الطب بأستاذ الأحياء في نفس الوقت، فعادوا بالسيارة وهم يراقبون من الطريق ومن أعلى القنطرة؛ قاربَ رجوع ثلاثة أشباح مُعتَّمة؛ يُبحِر بهم بهدوء في ظلام الليل، ولم يغيبا الرجلان عن أنظارهم حتى دخلا إلى المركب اليوناني، وهم ما يزالون بعيدين مسافة تجعل وجودهم لا يُثِير أحدا، وقد أحاط بهم سكون الليل، ثم خَفّوا إلى داخل مركب أستاذ الطب، وظلوا يقِظِين طول الليل، وهم يترقبون حركات تقنِصُها عيونُهم، وأصواتا تسمعها آذانُهُم بعد عودة الرجلين، وكان الذي أبصروه من كوة المركب المستديرة هو قدوم سيارة؛ أُفرِغت من صناديق وأكياس، وقد أظهرت الكتابة التي عليها أنها مواد تموين، وبالكمية التي كانت بها عرف الثلاثة أنها لسفر بحري طويل، وبعد أن دقّت الساعة الواحدة ليلا من اليوم التالي؛ بدا لهم الرجلان يتكلمان في مؤخرة المركب بخُفوت، ثم ارتفعت أيديهُما بالنقاش، وتبادُلٍ مرتفع وحاد للكلمات، ثم تنافرهما، ويسير أحدهما على درابزين المركب ويرجع، ويَسكُن صوتاهما، وكان أن لُفِظت كلمتا: عقد (ناساريوس)، من طرف أحدِهما، وانفضا بهدوء، وسار كل واحد منهما في اتجاه؛ يشعّ تِبْغ سيجارتيهما المشتعل في الظلام.

كان ما تصنت عليه الثلاثة صيدا، وقد تأكدوا من وجود عقد (ناساريوس) بحوزة هذين الرجلين، ومن استعداد ركاب المركب من الإبحار، وقد ظهر لهم ذلك جليا، فوقف الثّلاثة مبهوتين، وسؤال واحد يَرُجّ كياناتِهم وهو: ما العمل؟

كان نادر وأستاذ الأحياء قد استحضرا مغادرة المحقِّقيْن للمركب اليوناني، والذي كانا يبحثان عنه؛ كان ربما في الغرفة المكتراة في أحد بيوت المدينة القديمة، كان هذا خُطة مراوغة للمحققيْن.

قال أستاذ الطب:

– بما ليس فيه شك؛ أن المركب سيُبحِر بالرجلين وبالعقد في أي ساعة، وقد رسما خطة محكمة، وإذا ما قصد المحققان للمرة الثانية إلى مركبهم سيُغرِقان العقد في اليَمّ الذي تليه ضفة فيضان النهر؛ إذا ما كان في المركب، ولا حجة عليهما، لذلك أرى أن ننتظر حتى يتحرك مركبهما بالإبحار فنتعقبهما، ولا هَمّ بمواد التموين، فقد اشتريتها منذ يومين، لأني كنت أريد الإبحار بقاربي الشراعي إلى جزيرة (تينريفي)؛ إحدى جزر (الخالدات)، وإني ومركبي على استعداد لهذه الرحلة الطويلة، والآن ليبقى أحدكما على السطح؛ يراقب الأنوار التي تُضيء داخل المركب اليوناني، وأيضا إذا ما كان هناك من يغادره أو يقصده، ونزل أستاذ الطب وأستاذ الأحياء إلى الداخل، ولم يغْد نادر في ظلام الليل إلا شبحا يتنقل بسكون وصمت؛ ما بين الزوايا التي تُمكِّنُه من مراقبة كل ما يجري على سطح المركب اليوناني، ومحاولة التصنت للأصوات؛ سواء لتفوُّهات أو حركات، التي تصدر من الداخل، وليعلم ما يحدث، وهل هناك استعداد لرحلة العودة إلى الوطن، أو لمتابعتها في مياه الأوقيانوس الجنوبية.

تناوب الثلاثة في ملاحظة السفينة اليونانية؛ التي زحفت عليها ظلمة الليل وسكون هذا الأخير، فصارت شبحا يُرصد، ولم يبق من أضوائها إلا واحدا منها خافت.

قبل شروق الشمس بساعة تحركت سفينة العالم اليوناني ببطء؛ من بين مراكب الميناء الرابضة بهدوء بالأرصفة الخشبية، وعلى المياه الساكنة، وسارت بحيطة مُنْفلِتة من مدخل الميناء، ثم في النهر العريض. لم تغفل عينا أستاذ الطب عنها، وظلتا تُتابعانها حتى غادرت مصب النهر، وظهرت في عُرض مياه المحيط الأطلنتي بحجم صغير، فأبحروا وراءها، وظل الثلاثة يراقبونها حتى دارت بمقدمتها منعطفة إلى اليسار؛ في خط الإبحار الجنوبي. ضرب أستاذ الطب على كتف نادر بمرح،

وقال وهو يستعِدّ ليَدير دفّة توجيه المركب؛ ناظرا في البوصلة؛ في اتجاه جنوب- جنوب- غرب:

- إنهما يُبحران إلى جزر (الكناري)؛ نفس الوجهة التي كنت أنوي هذه الأيام الإبحار إليها.

اِستقبلهم البحر بحفاوة؛ كأنه يقول لهم: «بالرَّحب والسَّعة»، فكان هادئا، وهبّت على وجوههم نسائمُه الصباحية، فكان الجو رائقا ومُنعشا. لم يسبق لنادر أن سافر بحرا، وطفق يُدير وجهه في أرجاء البحر الواسعة، وفي الفضاء الرحب، ويُحدِّق في السماء؛ في البرّ كان البناء والبشر، والجري وراء الحاجات اليومية؛ يصرف الأنظار عن زُرقة السماء والطيور المحلقة في الجو، أما أستاذ الأحياء فإنه يذكر أنه سافر في بعثة علمية إلى إحدى جزر محميات الطيور والزواحف؛ في البحر الأبيض المتوسط، وفي المحيط الأطلنتي.

كان أستاذ الطب؛ قائد مركبه لا ينصرف إلى أي شيء آخر عن الدّفة، وخاصة منظاره المكبر؛ مزدوج العدستين؛ ينظر من خلاله ومن حين لآخر إلى المركب اليوناني، الذي كان يظهر كقَشَّة من حصيدة في الأفق؛ يرفعه الموج ويخفِضُه، ويحاول ألا يغيب عن ناظرِيه، ويبْذُل جَهْدَه، وبدُربة ومعرفة في توجيه المركب في مهب اتجاه الرياح؛ لتملأ هذا الأخير الشراعين اللذين يدفعان المركب وبسرعة إلى الأمام؛ حتى يبقى المركبُ اليوناني في دائرة تعقُّبه.

كان أستاذ الأحياء قد فكَّر طويلا، ثم قال:

- ألا نلحق بهما، ونصطنع من الأسباب لنُؤخّرهما، ونستميلهما إلى صحبة بحرية مُستأنِسة، ونخطط لاسترجاع العِقد؛ بحيلة من الحيل نُحيكها، وفي وقت يلهوان فيه بملاهيهما[60].

أجاب أستاذ الطب وعيناه لا تطرفان إلا قليلا؛ تحدقان بحدة في الاتجاه الذي تظهر فيه طريدته المركب:

- إن ما سرقه هذان شيء ذو قيمة أثرية وعلمية، وإذا ما ضُبِطا وهو بحوزتهما سيُزج بهما في السجن، لذلك فالقتل مصير من يحاول أن يقتحم عليهما

[60] يقصد هنا آلات الطرب.

مركبَهما، أو حتى من يسمع أو يعلم بسرهما، إنهما بلا ظُنون لصان قاتلان، وخطتهما في الاختفاء بالعِقد، والتكسب من بيعه قد وضعاها، وما قد يحدث من عراقيل، أو يظهر من يقف في طريقهما قد تصوراه، واحتملاه، فلا تُوعز إلينا أستاذُنا بما يُهلِكُنا.

لم يناقش أستاذ الأحياء هذا الرد وتساءل:

– وعلى أي أساس سنخطط نحن لآسترجاع العِقد؟

أجاب أستاذ الطب قائلا بالتفاتة جانبية سريعة؛ حدج بعينيه خلالها كلا من نادر وأستاذ الأحياء:

– اِنتهت زيارة العالم اليوناني العلمية؛ في منطقة مصب نهر (أبي رقراق)، وفي الساحل ما بين (الرباط) ومدينة (تمارة[61])؛ حيث توجد الكهوف الذي سكنها الإنسان الأول، وليس في خط إبحاره هذا إلا جُزر (الكناري)، وإنها مجال بحوثه العلمية، ودراساته حول آثار الإنسان الأول، وهي أمكنة زاخرة بذلك، وكنت قد اطلعت منذ أربع سنوات على أحد الكتب العلمية التي تُنشر في أبهى طبعة؛ طُبعت على صفحاتها الكبيرة صور لمتحف جزر (الكناري) ولقواقع (ناساريوس). أَيُسرق عقد (ناساريوس) ليُباع إلى هذا المتحف، ويُضاف إلى ما به من لُقيات أثرية قديمة؟ وهو عِقد متميز باحتفاظه بحالته الأصلية، ولم يُعثر على مثله في هذه الجزر بالرغم من الحفريات المكثفة؟ لذلك أستبعد إبحارهما به إلى ما بعد جزر (الكناري)؛ وما دام تخصص عالم الآثار اليوناني هو إنسان حوض البحر الأبيض المتوسط.

اِنبهر أستاذ الأحياء ونادر بكلام أستاذ الطب، فسأله نادر بحماس:

– ما هي الخطة التي تراها ناجحة أستاذنا؟

أجاب أستاذ الطب؛ قابضا دوما بيدين قويتين بالدفة، ولا تميل عيناه عن الأفق، وعن النقطة التي يحتلها باستمرار المركب اليوناني:

– سنُنفّذ خطتنا تبعا لما سيقومان به، ومهما حدث فللعِقد نهاية لرحلته؛ أفي المتحف أم في مكان آخر؟ عندئذ نسترجعه مهما كانت الظروف، ونُبحر به إلى

[61] مدينة تقع إلى الجنوب الغربي من العاصمة الرباط؛ بمسافة 11 كلم؛ عدد سكانها 550.000 نسمة حسب إحصاء 2014.

أقرب شاطِئ رملي على ساحل المغرب؛ يوجد في خط عرض جزر (الكناري)؛ بعد دراسة الخريطة بدقة طبعا.

قال أستاذ الأحياء:

– كان علينا أن نُبلِّغ بهما، وهما راسيان بمركبهما بالميناء، ولا نتكبد عناء هذه الرحلة البحرية الطويلة.

نظر إليه أستاذ الطب نظرة خاطفة، وعلى وجهه ابتسامة تهكم، وقال:

– لا تطرح يا أستاذنا سؤالا كهذا، وما أدراك أن العقد لم يكن في المركب وهو يُقلع، ستُفاجأ عندما أقول لك: لقد اِنتقل إليه العِقد وهو ما يزال يسير في مصب النهر من قارب خشبي كان في انتظاره، فعند رجوع رجلي المركب من الحجرة المكتراة، وركبا القارب؛ نفذا الخطة.

بُهِت أستاذ الأحياء ونادر، وتبادلا نظرات تساؤل واستغراب، وعادا وحدقا في وجه أستاذ الطب، ولاحظا بأنه لم ترتسم أي آثار عليه؛ مما تفوه به، فلم يزد عن كلامه شيئا، واستمر في القيادة والنظر في المنظار المكبر وفي البوصلة، فهناك الساحل الآخر لا بد من أن يصل إليه مركبه.

علق الأحيائي بيأس:

–إنهما مُراوِغان؛ حَاذِقان.

بعد خمسة عشر دقيقة قال أستاذ الطب، وهو يشير إلى صندوق كبير:

– اِفتحا ذلك الصندوق.

قام أستاذ الأحياء بفتح صندوق من مادة البلاستيك القوية؛ بمساعدة نادر، ورأيا فيه ما جعلهما يقفان مُتسمِّرين، ولم ينطقا بأي كلمة، ونظرا إلى أستاذ الطب الذي لم يتأخر فقال:

– إنها عُدّة الغوص... هل سبق لكما أن غطستما في أعماق البحر؟

أجابا بسرعة:

– لا.

قال دون رحمة:

– إنها مرحلة من تنفيذ الخطة.

سأله نادر:

– وكيف؟

أجاب على الفور أستاذ الطب:

– سنسبقهما إلى الشاطئ غطسا في الماء، وننتظر كيف سينقلان صندوق العقد إلى داخل إحدى المدن، أو إحدى قرى الشاطئ؛ لا أدري.

وتوقف لحظة ثم سألهما:

– لم تسألاني كيف اهتديت إلى هذه الخطة؟

سألاه باستعجال:

– كيف؟

أجاب:

– إن من يُخطط لنقل شيء ما مسروق وبكيفية غير مشروعة؛ إلى أحد الشواطئ الخالية أو المهجورة؛ فوسيلته الوحيدة هي زورق مطاطي أو خشبي سريع، وفي وقت بالذات هو ما بعد منتصف الليل، وما قبل شروق الشمس، فعناصر قوة خفر السواحل؛ عادة لا تُخلي أمكنة الشاطئ التي تُتيح الرسو والتسلل إلى داخل القارة... فاستعدّا وبحزم... ولا رجعة أو تهاون فيما قُرِّر.

قال أستاذ الأحياء برهبة، ونادر هو الآخر داهمه نفس الشعور:

– ولكن نحن الإثنان لم يسبق لنا أن تدربنا على الغطس، فكيف نستطيع أن نُجاريك فيه في عمق الماء، وأنت ماهر فيه كما يظهر؟

وكعادته لم يُمل وجهه إليهما عن الأفق والبوصلة والمنظار المكبر. كان يتكلم بثقة، وقال:

– فعلا؛ سبق وأن تدربت في ناد للغوص، وحصلت على شهادة اعتراف بقدرتي على الغطس. إذا طبقتما ما سأُمليه عليكما من قواعد الغوص ستنجحان دون شك، ولا خوف عليكما، فإني درست مخاطر الغوص ولي معرفة بتطبيبه وبالإسعافات.

وتحمّسا جدا بهذا الكلام، فهما تحت إِمْرة وتأطير أستاذ جامعي باحث.

قال أستاذ الأحياء مُتسائلا:

– في أي شاطئ ستنتهي بهما رحلتهما، وكيف سيحملان العقد وإلى أي مكان؟

بسط أستاذ الطب خريطة تُبيّن جزر (الكناري) السبعة، وقال:

– هذه جزر الكناري السبعة: لانزروت، وفويرتيفانتورا، وكناري الكبرى، وتينيريفي، ولاكَوميرا، ولابلما، والهيرو. أكبرهن مساحة هي جزيرة (تينيريفي)، وبها مدينة (سانتاكروز) وهي عاصمة الجزر السبعة، وانفردت بوجود متحفين، أحدهما للآثار والأنتروبولوجيا والآخر للطبيعيات.

سأله أستاذ الأحياء:

– هل سيرسوان هذان بإحدى تلك الجزر بعيدا عن جزيرة المَتحفيْن؛ تُبعدهما عن أي موضع شك؟

أجاب أستاذ الطب قائلا:

– لن يُؤخر عالم الآثار زياراته لمتاحف عاصمة الجزر، لأن له شغف العلماء، ودائما يكون على استعداد للبعثات العلمية، فلا يشير لأفراد طاقم مركبه إلا بالرسو غير بعيد عن جزيرة (تينيريفي)، وإشارته هذه هي تحت رغبة المصاحبين له، سواء شعَر بذلك أو لم يشعر... لا بد إذن من دراسة شواطئ جزيرة (تينيريفي)، وتحديد مكانين أو ثلاثة من المحتمل أن يرسو بأحدها المركب اليوناني، تكون شواطؤها مناسبة لإبحار قارب النجاة، واجتياز منطقة المد والجزر بسلام إلى داخل الجزيرة.

لم يغب عن أنظارهم المركب الذي يوجد في أحد مخابئه أندر عقد (ناساريوس) بشكله، واللقية التاريخية الأثرية القيمة، وما يزال أستاذ الطب يقرأ بتأمل خريطة جزر (الكناري) العامة، ويُدقق في كل سنتيمتر مربع من شواطئها بمكبرة يدوية، وينظر من حين لآخر إلى المركب المُتعقَّب، ويقيس المسافة المتبقية؛ فهي قد قصُرت، فيتناول بين يديه المنظار المكبر، ويرى من خلال عدستيه شاطئ (تينيريفي)، ويخفِض رأسه ليشاهد مياه المحيط وهي هادئة، والمركب اليوناني الشكل يُخفِّض سرعته، ويتوقف غير بعيد عن شاطئ منخفِض؛ بحصى بحري أسود، وتشُدّ أنظارَهَم مِرساة وهي تلقى منه إلى عمق المياه الضحلة، وتُثيرهم ضجة الارتطام، وكأنها إعلان رهيب عن بداية القيام بعمل لا تُتوقّع عواقبه، ويبقى السؤال يَرُجّ عقولَهم ويُكهرِبُها وهو: هل سينجحون في استرجاع العِقد المسروق؟

ومركب العالم اليوناني راسٍ تتهادى به الأمواج غير الصاخبة والهادئة؛ بوداعة حيوان بري مُروّض، وما يزال أستاذ الطب يُطلق العِنان لمركبه مُتجاوزا جهة رسو المركب اليوناني، وأدار دفة القيادة الملمّعة الخشب؛ إلى ما وراء رصيف صخري طبيعي ممتد، وتوقف بالمركب بحيث لا يغيب عن أنظارِهِم ما سيحدث في محيط مركب عالم الآثار اليوناني.

وربض المغامرون الثلاثة في مركبهم؛ مُتيقّظين ومُتناوبين في الرّصد، ووجه أستاذ الطب عدستي المنظار إلى جزيرة (تينيريفي) فشاهد بيتا خشبيا، وأمامه يجلس رجل وبيده شبكة صيد يُحِيكُها أو يُرمّمها؛ غير بعيد عنه وعلى مياه خليج صغير قارِب صيد، وطفق ينقل العدستين المُكبرتين في رؤية (بانورامية)، فانطبع على زجاج المنظار مركب حربي يرسو بعيدا، فأمعن النظر فأدرك أنه لقوات خفر السواحل، فقال مخاطبا الإثنين:

– مفاجأة غير سارة لنا... كما توقعت؛ لولوج بر (تينيريفي) لا مناص من غطسة تحت الماء تُخفينا عن حراسة الخفراء.

قال أستاذ الأحياء:

– رسونا في ساعة مبكرة في هذا الصباح، فالوقت لم يحن بعد ليُنقل العِقد إلى داخل الجزيرة، وهو ما بعد غروب الشمس وزحف الليل؛ يكون حينئذ الاستعداد، ولو لم يكن للّيل ظلمة حاجِبة ومُخيفة لما حذرت العرب حاطبَ الليل[62].

كان قرص الشمس قد بدأ يغطس في ذلك الأفق، الذي يصل ما بين سطح البحر والسماء، واصطبغ بذلك اللون البرتقالي الغامق والمُشعّ، الذي يبعث على الإعجاب والتمتع بسحر الطبيعة، ويجعل الآفاق نائية في مخيلة من يتأمل الغروب، والنفوسَ وهي تهفو إلى الانطلاق في أرجاء الدنيا، ويزيد هذا الوقت من شوق حسرات القلوب، وخاصة منظر تلك الأسراب من طيور النورس والحمام، المحلقة في اتجاه بيئة قارة أخرى، أو رائحة تستعجلها أفواه صغارها واهني الجناح، والمشرئبّة مناقيرهم من الأعشاش أو الأوكار؛ في مكان ما من هذه

[62] مثل عربي.

البسيطة، فكانت قلوب الثلاثة تنبض بجدية الموقف، وتسرح إحساساتها في عتمة حلول المساء؛ الدالة على مغامرة جزيرة (تينيريفي) الخطرة.

ما إن بدت من بعيد أضواء تتلألأ في الظلام؛ الذي غطى دنيا المكان لقرية أو لمدينة؛ حتى كان أفراد رحلة (ناساريوس) قد تجهزوا بألبسة وأدوات الغطس: البدلة الإسفنجية الدافئة والعازلة، وأنابيب التنفس، والزعانف الطويلة والعريضة، وسكاكين الأعماق، ونظارات الغطس، فألقى كل واحد بجسده المسلح إلى ماء البحر وبتريث؛ مُتفادين جلبة المياه، وطبّق الأحيائي ونادر ما مرّنهما عليه أستاذ الطب من قواعد الغوص، وسارا خلفه؛ يضربان بالزعانف على إيقاع زعنفتي الذي يتقدمهم؛ يحيط بهم ظلامُ الليل، وسكونُ أعماق المياه، لا يسمعون غير قرقرات فُقّاعات الماء المنفوثة من قنينات الأكسجين، ولا يمكنهم أن ينطقوا أو يتفاهموا إلا بإشارات الغوص في الأعماق المتفق عليها، وكل واحد منهم يُرسِل أمامه نور مصباحه اليدوي (التحتمائي)؛ ليتبين به ما يعترض عومه من نباتات بحرية أو مِسلاّت أو كتل صخرية؛ قد تخدش نتوءات الصخور حلّةَ الغطس أو تثقب أنبوب التنفس، وتقدموا حتى لمست أيديهم الحصى، ودبوا على الشاطئ حتى استقاموا حفاة من الزعانف التي تُعيق السير على الأرض، وكانوا قد ضربوا بها غوصا في عمق المياه، وكان صياد (تينيريفي) ما يزال يعمل في شبكته أمام كوخه الخشبي؛ على ضوء مصباح بنزين، ولم يتعجب لظهور هؤلاء القادمين من أعماق البحر أو يُخيفه، فهو قد شاهدهم ينزلون بمعدات الغوص إلى الماء؛ من سطح مركبهم، كان أول من حياه هو أستاذ الطب، فأستاذ الأحياء، ثم بعدهما نادر، ولم يقم من على صندوق السمك خشبي قديم، الذي كان يجلس عليه، ونظر إليهم بهدوء مُنتظِرا نطقهم بحاجتهم إليه. كان أستاذ الطب قد فكر في سؤال؛ يتعرفون من الإجابة عنه عن نُزُل قريب يقضون فيه ليلتهم، أو عن المسافة التي تفصلهم عن مدينة (لاس بالماس)، إلا أن الذي شد نظره هو مقدمة شاحنة (فيسْبا؛ Vespa) صغيرة؛ تظهر من وراء الكوخ، فطرأت عليه فكرة،

«...وما يزال أستاذ الطب يُطلق العِنان لمركبه مُتجاوزا جهة رسو المركب اليوناني، وأدار دفة القيادة الملمّعة الخشب؛ إلى ما وراء رصيف صخري طبيعي ممتد...»

فبعد كلمات ترحاب نطق بها الرجل، ودعوته لهم بأن يشاركوه شرب الشاي، سأله أستاذ الطب قائلا:

– إننا نريد الذهاب إلى (لاس بالماس)، ولبُعد هذه من هنا فلا ندري بأي وسيلة نتنقل بها؟

أجاب الرجل:

– إن مسافة عشر كيلومترات طويلة لمن يغامر بقطعها على القدمين.

سأله أستاذ الطب:

– أ تلك الشاحنة الجميلة ملكا لك؟

أجاب الصياد:

– نعم؛ ورِثْتُها عن والدي، كما ورثت عنه حرفة الصيد، فهي التي أحمل عليها صناديق السمك إلى المدينة، إنها (موديل) ثمانينيات القرن العشرين، وذات تصميم فني قديم؛ يثير الحنين، وتخيّل مُتعة الماضي.

وكان أستاذ الأحياء قد فهم قصد أستاذ الطب؛ لما رآه ينظر مرة بعد مرة إلى شاحنة (فيسْبا) المغرية بالقيادة، فسأل الصياد طالبا:

– لن نجد وسيلة سفر أمتع من شاحنتك (فيسبا) أيها الرجل الكريم.

أجاب الصياد:

– ليس لدي أي مانع؛ إلا أن للطريق حوادث لا تطرأ على البال، ألديكم ما يضمنها لي؟

أجاب أستاذ الطب بلا تردد:

– عُدّة غوصِنا؛ ثلاث حُلل غطس ممتازة، وأنابيب التنفس لا بأس بها، وقارورات الأكسجين؛ جميعها أصلية الصنع، وقارب نجاة مركبي.

قال الصياد:

– أنا أقبل ما عرَضْتَه علَيّ.

لم يبتعدوا بالشاحنة عن المكان الذي يرصدون منه تحرّك طاقم مركب العالم اليوناني، وظلّوا ثلاث ساعات يتسمّعون لأخفض صوت، ولحركة صامتة، ويستبينون ظِلال الأجسام والأشباح؛ إلى أن فُوجئوا بقارب يظهر من بين سدول الليل؛ يركبه شبحان؛ يتأبط واحد منهما صندوقا صغيرا، ويطآن بأقدامهما رمال

الشاطئ الخشنة، ثم يختفيان وراء الصخور، ليبدوان مرة أخرى راكبَيْن دراجة نارية؛ مُنطلقِيْن بأقصى سرعة؛ في طريق ساحلي مُنعرج؛ في اتجاه (لاس بالماس)؛ لم يتأخروا هم وتعقّبوا شبحَي الدراجة ذات درجات السرعة؛ التي يُسمع صوت تدرُّجِها الميكانيكي؛ من درجة إلى أخرى، كان نادر هو من يمسك بمقود الشاحنة؛ لخفة عظمه، ونشاط جسده الفتي، وأستاذ الطب وأستاذ الأحياء في الخلف؛ يتمسّكان بالهيكل الحديدي؛ للحفاظ على توازنهما المهدد بِمطبّات الطريق، وبانعرجات هذه، ولم تختف دراجة الحاملَيْن للصندوق الذي يُعقد الأمل على ما يُحتمل أن يوجد فيه؛ عن عيني نادر، ولحسن الحظ أن الطريق في ذلك الوقت كان خال تماما من حركة المركبات، ثم رأى نادر أضواء المدينة تسطع من بعيد على بناياتها العالية، وجعلت علامات تحديد السرعة القابض بمقود الدراجة؛ يُخفف السرعة، فكانت تلك فرصة لنادر ليسير خلف الرّاكبَيْن؛ بسرعة قليلة مُتحكم فيها، ومُحافِظا في آن واحد على مسافة تُبعده عن موضع شك، ولم يستمرّ الرجلان طويلا، فقد توقفا أمام فندق؛ يُضِيء بابَه الأمامي سراجٌ كهربائي، ونزلا وسلما الدراجة إلى أحد العمال؛ الذي ساقها إلى سقيفة وراء الفندق، واتجها هما إلى الدّاخل، ولم يظهرا بعد ذلك، كان أول ما قاله أستاذ الأحياء:

– يُحتِّم علينا ما يجري الآن أن نبيت نرْتقِب خروجهما، وأن نكون يقظين من أن يُغيّرا هيئتيْهما للإيهام.

وقبل أن تُشرِق الشمس؛ خرج الرجلان، وفي هذه المرة كانا يرتديان لباسين أنيقين؛ بربطتي عنق، واتجها راجلين إلى مقر ما، فساروا وراءهما بتريث؛ إلى أن تابعوا من نوافذ بناية عالية وواسعة لقاء الرجلين بأحد بالداخل؛ يضع على عينيه نظارة سوداء، ويرتدي معطفا ينزل ثوبه إلى ما تحت ركبتيه، فشاهدوا بما اقشعرت له أبدانهم، وهو أن مُدّ بالصندوق إلى الرجل، ويعطي هذا علبة من ورق إلى أحد الرجلين؛ اللذين تركا المكان بعجل واختفيا في شوارع (لاس بالماس)؛ في تلك العتمة التي كانت ما تزال تتراجع أمام ضياء الشروق؛ الذي بدا من وراء أفق جبال جزيرة (تينيريفي).

اِستبدّت بالثلاثة حيرة شديدة؛ لم يعهدها أي واحد منهم في حياته، وعجبوا كل العجب، ونظروا إلى بعضِهِم البعض مبهوتين، ولا سؤال غير الذي تنطق به ملامحهم المتأثرة بغرابة الموقف، وهو: ما مُبرر أحد في أن يقبل بوجود لُقية أثرية مسروقة من بلدها الأصلي بين معروضات متحف أو مكان آخر؛ بشرائها أو بدفع أجر عن سرقة قام بها رجلان، أهو الهوس بجمع لقايا العصور القديمة، أم هو دافع آخر.

قال أستاذ الأحياء:

– علينا الآن أن نفكر في طريقة لاسترجاع العقد، بعد أن عرفنا آخر مكان وجوده.

لم يسمع من الآخَرَيْن أي كلام، وتراجعوا وقصدوا شاطئا صخريا، وجلسوا في بقعة رملية محصورة بين الصخور، وهم قد شرعوا في بسط تفاصيل إحدى طرق الوصول إلى لُقية (الناساريوس)؛ إذ فاجأهم نادر قائلا:

– لم تنتبها إلى إحدى مُلصّقات أعمدة الشوارع.

سأله أستاذ الطب:

– ماذا كُتب عليها، وما الصورة التي طُبِعت عليها؟

أجاب بسرعة:

– موعد تنظيم لقاء علمي لمدة أسبوع حول إنسان الكهوف، وعَرْض جميع ما تخلف عنه في بهو المتحف وفي حديقته، والصورة مُتخيلة؛ هي لإنسان (الكناري) القديم، ولنماذج لبعض أدوات عيشه.

قال أستاذ الأحياء مُستنتجا:

– دون شك سيكون عقد (ناساريوس) من بين المعروضات.

سأل أستاذ الطب نادر مرة أخرى بلهفة:

– في أي يوم سيُنظم اللقاء؟

أجاب نادر بحزم:

– بعد يومين.

قال أستاذ الأحياء مُتحمسا، وبرقت عيناه في نفس الوقت:

– إذن لدينا الوقت الكافي لزيارة المتحف، ومعرفة مرافقه وحُجُراته ومنافذه، والبنايات المحيطة به، والأزقة والشوارع المؤدية إليه.

وقاموا بالاِطِّلاع على كل ذلك، واتفقوا على خطة؛ هي مغامرة بالمعنى الدقيق للكلمة، لأنهم لم يهتدوا إلى الحجرة أو الغرفة التي أودع فيها العقد، وقضوا يوماهم في فندق متواضع.

جاء موعدُ اللقاء وعرضُ موجودات إنسان جزر (الخالدات) القديم، وتنقل الثلاثة في المساء في أرجاء المتحف؛ مُدققين أنظارهم فيما يظهر من الصناديق الزجاجية؛ حتى وجدوا صندوق لُقية العقد في الحديقة؛ تُضِيئُه مصابيح كاشفة، وتحاذيه ورقة تعريف تعطي معلومات علمية عنه؛ مُدبّجة باختصار، لكنها قد تفي لفضول الزائرين، وانتحى نادر جهة قصيّة، ونظر إلى الخيوط التي تجلب الكهرباء إلى المصابيح ذات الأنوار القوية، وكان مقصّ المعدن الكبير ذو المقبضين الغليظين، والذي يتأبط به تحت سُترته؛ أداة تنفيذ الخطة المحكمة، وفي ساعة كان بهو المتحف والحديقة يفرغان فيها من الناس، أسرع نادر إلى الخيط الكهربائي وقطّعه، فصدرت شرارة مضيئة وأُطفِأت المصابيح، فغرق المكان في ليل دامس، وفي نفس الوقت كان أستاذ الطب قد اقتلع الصندوق الزجاجي من دعامته الخشبية بحديدة لها شفرة حادة، وأدخله في كيس من ثوب، ثم اختفى الثلاثة؛ كل واحد منهم يسلك طريقا مُغايرا، ولم تمض عشر دقائق حتى كانت شاحنة (الفيسْبا) تطوي بهم الطريق إلى كوخ الصياد، ولم يمتنع هذا أو يتأخر عن حمل الثلاثة بمركبه ذي المحرك الموجه؛ إلى مركبهم الشراعي، وبعُجالة شغل أستاذ الطب محرك المركب، وأدار الدفة إلى حيث يتجه المركب بمقدمته عرضا إلى الساحل الإفريقي، في وقت كان فيه أستاذ الأحياء ونادر ينشران الشراع الكبير والصغير، بحيث امتلآ بريح دفعت بالمركب، وبسرعة؛ يخترق ذروات الأمواج إلى شاطئ المغرب، ومن أحد مراسي الصحراء استأجر أستاذ الأحياء ونادر سيارة أجرة أوصلتهما إلى (الرباط)، ودارت عجلاتها بهما في هذا الشارع وذاك؛ حتى بلغت بهما إلى متحف الآثار، فاستأمنا إحدى حجراته على لُقية عِقد أصداف اللاّفقاري (ناساريوس).

الفصل الخامس

وادي الدينوصورات

ما ذُكِر من قبل هو أن لنادر رغبة شديدة في معرفة بيئات الكائنات المختلفة، والاطلاع على أحدث ما كُتب عنها في البحوث العلمية، وفي الموسوعات المميزة بطبعاتها البهية، والمغرية برسوماتها وصورها الفوتوغرافية الموضِّحة، وخصوصا منها تلك البيئات القديمة، والكائنات الحيوانية والنباتية المتحجرة، وأحب إليه هو تلك البقايا، والتي هي دلائل مادية ملموسة على أن بحيرة كانت موجودة، أو نهر جار، أو بحر مائج، أو حيوان ما يزال نوعه يتوالد أو مُنقرض، ومثل هذا الأخير، والذي لم يبق له وجود، ويستهويه هو الحيوان البحري (الترايلوبيت)؛ المتعدد الزعانف والذُّرعان، والدينوصور المارد، والماموث فيل الأصقاع الباردة؛ الكث الشعر، ولم يتأخر كلما سنحت له فسحة من الوقت في أن يقصد خزانة كلية العلوم؛ التي تضم رفوفُها وبوفرة كُتبا وموسوعات البيئات القديمة، فما امتع ذلك الوقت الذي يختلي فيه بخياله؛ يُسافر به في تلك الأزمنة الجيولوجية القديمة، فيتصور بحيرات تُحيط بضِفافها الأجمات والأدغال، وتُهاجر إليها الطيور، ويسكنها الهوام والحشرات، وتسبح في أعماقها الكائنات المائية، وتقصدها الحيوانات البرية الزاحفة؛ لتتغذى على الأسماك، أو على أعشاب الضفاف الطرية، وترتوي من مائها، فالذي ما يزال وجود نوعه مُستمرا مألوفا، عيّنة منه تُثْرِي معرفة الجميع به، وقد تطورت المجاهر الإلكترونية المذهلة، ووسائل وتقنيات الفحص والتحليل، أما الذي انقرض؛ فما تخلف عنه وترسب يبقى مجهولا ولغزا؛ يُحمِّس إلى التنافس في الكشف عنه وحله، وما أسعد نادر أنه وُلد ويحيا في بلاد ثرة بالمتحجرات؛ والذي يهتم به علماء المنقرضات أشد الاهتمام، بل هو مهووس بالبحث فيه، وحل لغز انقراضه؛ هو حيوان الدينوصور، وإنه لحَظّ وفرصة لا يغفل عنهما، فتمران دون الاستفادة منهما، فطرأت عليه فكرة، وهي أن يقوم برحلة إلى الجهات التي من المحتمل أن تكون الدينوصورات قد عاشت فيها، أو ما تزال طبقات صخورها الرسوبية تحفظ عظامَها المتحجرة،

ويصحبه فيها أستاذ الأحياء وزميلة الدراسة صفاء، وأخوه الأصغر منه أنور، الذي ما يزال في سن ينظر فيه إلى ما هو أكبر منه مثالا للشجاعة والمغامرة، ويأخذ عنه تجاربه ومعارفه، فنادر يرى دائما أن في رُفقة الصغار للكبار تَلْمذة في مجال العلوم؛ فهي سُنّة لا ينبغي أن تُتجاهل، وحري بالآباء والإخوان أن يطالعوا كتب العلم ويكتبوا في مواضيع، ويُصبحوا قُدوة للصغار الذين لهم ميل طبيعي إلى استكشاف العوالم؛ التي ما تزال مجهولة لديهم، والانطلاق في فضاءات الطبيعة الرحبة؛ في رحلة علمية كهذه التي فكر فيها.

في مساء أحد الأيام من شهر ماي؛ كان الجو دافئا؛ ليس في حالة الطقس ما يُضايِق؛ تُرسل الشمس أشعتها المنيرة على الأرض، فتعُمّ الدنيا سخونة تُريح النّفوس وتُسعِد القلوب، ويرحل الخيال بالإنسان إلى أماكن ذات طبيعة خاصة وفريدة، أو التي توجد ما وراء البحار، فتغدو حُلما يُفرحِ وإن لم يتحقق؛ كان نادر قد خرج من قاعة الدرس؛ بعد أن انتهى الوقت المبرمج لإحدى المحاضرات، وخفّ إلى القاعة المخصصة لوحدة علوم البيئات القديمة، والكائنات المتحجرة، والتي عادة ما يجد فيها أستاذ الأحياء؛ يقوم بالبحث في الكتب والموسوعات المفهرسة هناك، فوجده مُنبثة نظراته على صفحات ورق مجلد مصقول؛ يتأمل ويُدقق. بعد التحية المتبادلة قال نادر للأستاذ:

– إن جو شهر ماي الصافي؛ يُحمِّسُني إلى ارتياد المناطق التي من المحتمل أن تكون في طبقاتها الرسوبية هياكل الدينوصورات، وإنّ رحلة إلى هناك تجعلني أجوب أماكن؛ أرى ما تبقى فيها من آثار من تلك الأنهار والبحيرات الزائلة، وعظام الحيوانات والنباتات المتحجرة.

قال أستاذ الأحياء:

– لن أتأخر في تحقيق ما ابْتَغيتَه، وسأُرافقك وفي أقرب وقت إلى مثل هذه المناطق؛ التي شدّك الشوق إليها، لتكن إذن رحلتنا إلى هناك في بحر الأسبوع القادم.

نظر أستاذ الأحياء في وجه نادر، ليطمئن على ما تركته موافقته من علامات، فلاحظ أن شيئا ما تزال سحابته تظهر على وجهه، فسأله:

– لم تستبشر بعد؛ أما زلت تحتفظ مما تطلبه بمناسبة الرحلة؟

أجاب نادر:

– أكون سعيدا إن اصطحبنا في سفرنا أخي أنور، وصفاء.

قال الأستاذ على الفور:

– ليكن ما تريد.

شكر نادر أستاذه على ليِّن جانبه، وطيبوبة شخصيته. ابتسم الأستاذ بلطف وبحياء ثم قال:

– إن لأي رحلة عُدّتها، فسفرنا إلى هناك يتطلب الإقامة أسبوعا أو أكثر؛ في مكان مُناسب لدراسة عناصر طبيعته، والتأمل في صخوره الرسوبية، والتنقيب عمّا تحتويه من بقايا عظام الكائنات القديمة، وأنواع النباتات والحيوانات والحشرات.

قال نادر:

– نحتاج إلى خيمتين تتّسع لأربعة أفراد، ولألحفة وأفرشة، وفرن للطهي وقِدر وصحون، ومؤونة تكفي لمدة التخييم.

قال أستاذ الأحياء:

– ذلك لا مفر منه.

وكان نادر ما يزال ينظر في وجه الأستاذ، فلاحظ أنه يفكر في شيء ذي بال، ولم يجرؤ على أن يسأله، فسمعه يتكلم بعد لحظات؛ إذ قال:

– لم نعيّن بعد المنطقة التي قد تكون غنية بما سنبحث عنه من بقايا الكائنات المنقرضة، والكائنات الحيوانية والنباتية التي ما تزال حياتها مستمرة، وقد فكرت كثيرا وطيلة مدة طويلة، فرأيت أن منطقة (أرفود)[63] هي المكان الأنسب، وذلك أن علماء الحفريات والكائنات المنقرضة أخبروا أكثر من مرة؛ أنها أغنى من أي أرض أخرى ببقايا هياكل الدينوصورات، وغيرها من الحيوانات المنقرضة، والمكان الآخر هو منطقة جبلية تزخر بتنوع في طبيعتها؛ لوفرة المياه المنحدرة من ثلوج تغطي قمم جبال عالية؛ تبدأ بالذوبان في الفصل الذي يسخن فيه الجو، وحيث ما تزال بعض الزواحف والطيور البرية تلد وتبيض، وغنية بالنباتات؛ هي وادي

[63] أرفود: مدينة توجد إلى الجنوب الشرقي من العاصمة الرباط على بعد 543 كلم؛ في جهة درعة-تافيلالت؛ يصل عدد سكانها إلى 29.279 نسمة؛ حسب إحصاء 2014م.

(أوريكا)[64]، الذي تحيط به الجبال العالية، ويوجد إلى الجنوب الغربي منه جبل (طوبقال)؛ أعلى قمة جبلية في المغرب.

كان نادر يُتابع كلام الأستاذ باهتمام بالغ، وبحماسة شديدة؛ راسما في خياله طريقَ رحلة طويل؛ يسافر بهم إلى جهات متنوعة البيئات والكائنات الحية، والناسَ أهالي القرى والأراضي البعيدة، وأساليب عيشهم، فقال بعينين تبرقان حماسا وسعادة:

– ستُغني هذه الرحلة ودون شك معرفتَنا بالكثير من المعلومات عن طبيعة المناطق الحالية، وعما تُطمره طبقاتها الجيولوجية من بقايا الكائنات.

فكان ما حدث بعد هذا هو أن نادرا أخبر صفاء وأنور بالرحلة، والغاية منها، وأنهما سيكونان من بين أفراد الجماعة، وبالوقت من ذلك اليوم الذي سينطلقون فيه.

صفاء فتاة في سن الثامنة عشرة؛ عيناها واسعتان سوداوان؛ فيهما بريق، ووجهها ممتليء ذو بشرة صافية البياض؛ تملأه ابتسامة دائمة؛ تنمّ على نفس صافية ومُتسامحة؛ ترى الدنيا جميلة؛ سريعة النظرات؛ دائمة الاستكشاف، ويظهر من حركاتها وانبساط وجهها حيوية، وتُنفِّذ ودون تردد أي أمر لا ترى فيه إلا أنه واجب منها، ولا أحد غيرها يُؤمر بمثله. كانت تُكنّ لنادر تقديرا لولعه بالطبيعة والبيئات القديمة، واعتكافه طيلة الوقت على دراستها والبحث عن مواطنها، وتظهر سعةُ خاطرها، وتفيض حنانا من خلال تعاملها مع أنور ذي الثانية عشرة من العمر، فهي تجيب مُرحبة دون تصنع على أسئلة سنّه الكثيرة والملحّة، وقد سُرّ بذلك نادر؛ بإحساس توفيقه في اختيار أعضاء الرّحلة، وللاستئناس بهم، فهذه رحلة ليست كالرحلات التي قام بها من قبل؛ كما يشعر هو، ويخلق عالما مُتيّم به؛ عالم المخلوقات البائدة، فهو سيحل بمنطقة كانت تعيش فيها الدينوصورات، وهي الآن مُتحجّرة في بيئتها المتحجرة هي كذلك، وظل سؤال يملأ عليه أيامه وهو يستعد للرحلة، وهو في طريقه إلى تلك المنطقة: «هل سيُباغَث أعضاء الرحلة بفضوليين أو جماعة من أفراد متواطئين قد يكونون

[64] نهر ينبع من جبال الأطلس الكبير؛ يجري إلى الجنوب الشرقي من مدينة مراكش؛ تغذيه ثلوج القمم الجبلية في فترة ذوبانها.

محترفين؛ لا يريدون أي قادم باحث مهتم؛ قد يقوده استطلاعه إلى معرفة ما يقومون به من أعمال تنقيب على عظام الدينوصورات والمنقرضات والمتاجرة بها؟»، واصطدامه ببعض من هؤلاء في رحلاته السابقة؛ جعله يجيب بأن من المحتمل أن يكون مثلهم في المكان الذي يقصده أعضاء الرحلة، أو أشد قهرا.

وقد حدث ذلك، فبعد سلوكهم للطريق المتجه إلى مدينة (أرفود)؛ بسيارة أستاذ الأحياء، وقد انجذبت عيونهم إلى التضاريس المتنوعة الأشكال، وإلى النباتات المختلفة في طول جذوعها وأغصانها، وأوراقها الخضراء، وإلى حركة الناس في أسواق القرى التي مرّوا بها، وإلى القرويين الذين جمعتهم أحد المقاهي البسيطة في موائدها وكراسيها، ولا تتفنن مطاعمها في الأطعمة، فالغالب هو الشِّواء وشاي الأباريق المألوفة؛ توقفوا في شارع المدينة الرئيس، واشتروا ما يحتاجون إليه في أكلهم، ولم يغفل نادر عن أي حركة؛ بل تغافل عيون الجالسين في المقهى التي نظرت بأركانها إلى هؤلاء الغرباء عن المدينة، وسيعلم فيما بعد أن أول من أبصرهم ويريد أن يستعلم هو صاحب المقهى والنادل، وهل يغيب عن هذا الأخير أي شخص يمر في الشارع، فهو يطوف بأكواب القهوة والشاي، ويلتفت في كل ناحية وفي طول الشارع الرئيس يمينه وشماله، ومن يخدم في الإدارة المحلية، ويقرر سواء شطّ أو لا في ذلك، والمالكون والمروِّجون؛ يهمهم أكثر من غيرهم أن يعلموا عمّن تطأ قدمه المدينة، والهدف الذي من أجله قصد قلعتهم التي لا ينبغي أن تُخترق، وأن يَطلّع على أسرارها التي إن عُرِفت انهارت دعائم ذلك الحصن، فبلوغ درجة من اكتساب المال يدفع وبظمأ إلى الدرجة التالية في الاستزادة، وللمنطقة ثروتها الطبيعية من المستحاثات، ومن غير المستبعد أنهم وجدوا أكثر من بلاد واحدة تُورِّد ما يُتاجرون به.

اِقترب نادر من أستاذه حتى لامس كتفه، واندلقت هذه الكلمات في أُذن الأحيائي:

– إني أرى عيونا تتفرسنا، وتسْبِر نظراتِنا لتعرف هدفنا.

قال أستاذ الأحياء باثا البعض من الثقة في نفس نادر:

– ويجهلون أننا خُضنا كم من مرة مغامرات خطرة انتصرنا فيها، وخُضنا في مياه المحيط الأطلنتي؛ إننا تعلمنا الشيء الكثير.

قال نادر بثقة:

– لقد أكسبتنا تجاربنا في تلك الأمور ثقة كبيرة.

قال أستاذ الأحياء بعزم مُحارب قاصدا ساحة الوغى:

– إني أعرف أصغر وحدة لقياس المسافات والمساحات وهي السنتيميتر من هذه الأرض، ولديّ حدس مهني وعلم بالمستحاثات؛ يجعلاني أقصد المكان الذي طُمِرت في طبقاته الرسوبية مستحاثات الحيوانات المنقرضة، فإني مُتسلِّح بخرائطي وإحصاءاتي وقياساتي الجغرافية، وعملياتي الرياضية؛ إني أعرف إلى أين كانت الدينوصورات تتطلع مُشرئبة بأعناقها الطويلة، وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة؛ إلى قمر ليلة مُضيء، أو إلى قُرص شمس مُنير.

لم يمكثوا وقتا طويلا، فتابعوا سيرهم إلى الأراضي القريبة منها، ونصبوا الخيمتين؛ إحداهما سينام فيها الثلاثة، والأخرى ستستقل بها صفاء، وتفرقوا في محيطهم جالبين حُزما من النباتات الشوكية اليابسة، وفروعَ الأشجار ليحيطوا بها خَيْمتَيْهم؛ كما يحيط السوار بالمعصم؛ ليكونوا في مأمن من الحيوانات، ويُعيق إلى حد ما أحدا يحاول أن يتسلّل إلى مأويْهِم قاصِدا شرا بهم.

كان أولُ ما فكروا فيه واستمال نفوسَهم إليه، وأحبّته حبا هو أن يسهروا الليلة القادمة؛ مُتحلِّقين حول نار مُستَعِرة، فما إن زحفت الظلمة، لم يُشعِلوا مصباح البطارية التي تُعَبَّأ بلوحة الخلايا الشمسية التي نُصِبت على قمة إحدى الخيمتين، وأضرموا النار في فروع نباتات يابسة وفي خشب من جذوع خَرِفة، فتوقّدت لهيبا، وسكن المخيم إلا من صوت طرطقات الأعواد وهي تُحترق، وتتطاير منها شرارات حمراء في الجو مُنيرة إياه، ونقل أنور نظراته المتوجسة في الظلمة المحيطة بهم، وأراد أن تظهر له كائنات غريبة، فاختبأ في حضن صفاء، وهي تقول ناظرة حواليها:

– أتَسْتَجيرُ بي وأنا أخوف منك؟

قال أستاذ الأحياء بجدية مُحرِّكا شيئا بجانبه:

– لا تخافا فبحوزتنا سلاح نردّ به هجمة مُغير.

ورفع أُنبوبة بندقية صيد أمام عيونهما، فاستعظماها، وهللا مُبتهجيْن، أما نادر فإنه استلقى على ظهره؛ مُفترشا حصيرة؛ ينظر إلى نجوم السماء، وحاول عدّها،

فلم يجن من محاولته شيئا، فعَدَل عن عددها الذي لا يُحصى؛ إلى تأمل عمق السماء، وسافر بتفكيره في أرجاء الكون الرحبة؛ طارحا أكثر من سؤال واحد، وقد وجد في ذلك لذة وسعادة، إن سياحة في ذلك اللاّمتناهي نظرا وتفكيرا؛ ينأى بالإنسان عن بلبلة وتفاهات الواقع، وهمّ لا طائل منه.

كانت عيونُهُم تلتقط أضواء بيوت بعيدة منتثرةً هنا وهناك؛ على سفوح المرتفعات وفي الأودية، وأضواءَ مركبة بمحرك انفجاري تتحرك في طريق مُعبّد أو مسرب تَرِب، ويسمعون من حين لآخر وقع حوافر دابة يعتلي صهوتَها سار في الليل، وصفيرَ أحد يسوق قطيعا من الماعز أو الأغنام أو الإبل؛ قاصدا زريبة أو سوقا أسبوعيا، وتصل إلى آذانهم نغماتُ ناي، وضرب على دف، وتصفيق بالأيدي، كانت هذه دنيا الليل في تلك الناحية، وتَتَتبّع صفاء ضوء طائرة يُضِيء ويَنطفِيء تنبيها إلى تحليقها؛ في اتجاه من الاتجاهات الأربع، وفي ذلك العلو، وهي تُمنّي نفسها بالسفر في يوم من الأيام إلى بلاد ما وراء المحيط؛ إلى جزر نخيل الجوز، وشواطىء رملية تزحف عليها مياه صافية؛ تظهر في أعماق مياهها الشفافة أسماك ونباتات بحرية؛ مختلفة الأشكال والأحجام، وبألوان عديدة تُبهِر، وتثوق إلى اضطجاعة بهيئة استرخائية؛ على تلك الأسرة المتراقصة والمربوطة بطرفيها إلى جذوع نخيل الجوز، وتُطبق تجويف قوقعة كبيرة بأُذنيها مُتسمّعة صوت البحر.

سعدت نفوسهم بسهر تلك الليلة، ورجت أن تطول وتتكرر، ووعدتهم أحلامهم بالقيام بمثلها في أي فرصة تسنح لهم.

قرر نادر وأستاذ الأحياء أن يتناوبا على حراسة المخيم، بعد أن نام أنور وصفاء مهدودين بالسّفر والسّهر، وقسّما بينهما ما بقي من أوقات الليل؛ كانت نوبة الأستاذ تبدأ من الساعة الثانية بعد منتصف الليل، إلى أن يسمع صياح ديك، ويرى بصيصا من ضوء الشمس يظهر من وراء تضرس الأرض، فيُسلم أجفانه للنُّعاس، لتبدأ نوبة نادر إلى الساعة الثامنة صباحا، ولم تمر تلك الليلة دون أن يظهر شبح يمر غير بعيد عن المخيم؛ هل كان يريد أن يعرف كيف هو نظام التخييم، وكم عدد المخيّمين؟ وهل هناك علامات تدل على أي هدف ينصبون خيمتيهم، وفي ذلك المكان البعيد عن العُمران؟

في نهار اليوم التالي حملوا فؤوس شَظْي الصخور ومكبرات يدوية، وتفرقوا مُبتعدين عن المخيم؛ يحصون الحشرات والحيوانات البرية؛ التي تعيش في بيئة تلك المنطقة، ويدرسون أنواعها، ويعرفون اللاحم منها والعاشب، وأيضا النباتات، ويسجلون معلومات ميدانية عن جميع ذلك، ويرسمون شكله وحجمه العام؛ مع كتابة اسم كل عضو من أجسامها، ويلتقطون صورا لها، ويسجلون سرحانها على الأرض بالصوت والصورة، ونَحَتَ أنور عصفورا من حجر مُطاوِع أبيض؛ بمطرقة دقيقة الرأس ومِبْرد، وسيُلوّنُه طبقا لطبيعته الحية عندما يعود، وشكّل أيضا من خشب أحد الجذوع الميتة عقربا؛ كان قد شاهده وهو يدِبّ مسرعا إلى غاره، وسحلية من تلك السحالي التي تركض بسرعة فائقة؛ أكثر أوقات النهار؛ تحت وهج الشمس.

خلت الأرض التي يخيمون فيها؛ من أي طارئ، أو ساكن، أو متردد عليها لحاجة له فيها؛ إلا راعيا، وقد أطلق مِعازا قليلة العدد؛ هي كل قطيعه؛ في قعر واد؛ لم يلاحظوه، أما هو فقد تتبع حُلولَهم بالمكان ونصبَهم للخيمتين، وتفرقَهم بين صخور المنطقة، ونباتاتها، وعلى السفوح وفي ضِفَّتَي مجرى نهر، وقد عرف لأي غاية هم هناك، كما أدرك الهدف الأول الذي من أجله قدموا من بعيد، وهو على علم بأشياء كثيرة.

والذي تنبّه إليه وشعر بوجوده هو أستاذ الأحياء، وقد صرف نظره عنه، ولم يلتفت في اتجاهه إطلاقا، واكتفى بأن كان يتحسسّه برُكني عينيه، وهو يَرْتَعي، وقبل أن تغرب الشمس بقليل ساق الراعي قطيعه بمهل، ولما اقترب من الخيمتين أبطأ، وأرسل تُيُوسَه وعَنَزاته على شجيرات تقضم أوراقها؛ ما بقي من وقت ما يزال ضوء الشمس يُضيء فيه. ألقى السلام على المخيّمين، فردوا عليه بتحيتهم؛ قال وهو يوجه مِعازه برفع العصا عاليا، ويُصوّت عليها في رفق كأنه لا يتكلم:

– إحذروا، فهناك من عرف لأي غرض أنتم هنا، إنهم قساة، وقد ربحوا من تجارة العظام المتحجرة، فلا يتركوا أحدا يطّلع على موردهم، أو يُنافِسُهُم.

دبّ الرّوع في كل من صفاء وأنور، أما أستاذ الأحياء ونادر فهما أدركا ما نبّههم إليه الراعي، فكانا هادئين، ولم يستغربا تحذيره، ثم أضاف الراعي منصرفا:

– إذا ما جدّ الأمر فإني أدرى بشِعاب هذه الناحية.

لم ينْبِس لا الأستاذ ولا نادر بِبِنْت شَفة، ونظرا إلى بعضهما البعض بنظرات باردة؛ فيها قليل من التحفز، وكانت إيماءة وحيدة من أستاذ الأحياء إلى الراعي؛ شُكرا على استعداده للتعاون معهم فيما قد يقع من محن.

لم يبرح أحد منهم المخيم؛ لا في تلك الليلة أو في نهار الغد، ولم يغفلوا عن أي حركة ذهاب وإياب لأحد ما قريبا أو بعيدا عنهم، وفي ليل اليوم التالي ارتأى الأستاذ أن يضرب وفي ظلام دامس؛ في سفح واد وبصحبته الآخرين، وقد ساروا دون أن تُضاء المصابيح اليدوية؛ تفاديا لأي كان قد يرى أنوارهم، وما يزالون يَخطون خلف الأستاذ، وسمعوه يتكلم قائلا:

– هذا أخدود سننزل إليه، فخُذوا حذركم لألاّ تَهوَوْن من علٍ.

وكانت صخور صلبة تكاد تُدميهم بنواتِئها، وتضيق حتى يخيل لهم أنها ستعصرهم حتى الموت، وقد تأكد للجميع أن هذا المكان لا يطرقه أي أحد، وأن الأستاذ استكشفه في إحدى رحلاته العلمية السابقة، لأن خبرته بأماكن تواجد المستحاثات؛ هي التي دفعته وبثقة إلى أن يصل إليها، قلّ من يفكر أحد ما؛ حتى الرعاة أو حطابو القرية، أو حتى أولئك الذين يبحثون على مثلها؛ الانزواء والتواري فيها؛ بعيدا عن الأنظار؛ يشربون الراح يُصبّ في الأقداح، ويحشون أدمغتهم بدخان احتراق الورق المُخدّر، والمحشوش من تربة سفوح وأودية يُسْتنبت فيها، فيخضرُّ بوفرة طبيعية.

وهم يتقدمون بجُهد، لم يألفوا –غير أستاذ الأحياء– السير في ممرات تضيق بهم مرة وتتسع، وأقدامهم لا تثبث في الغالب، فهي تزِلّ بالحصى المصقول وبحجارة مُكسرة الجوانب، وبتراب مُذرذر من قمة السفح أو الجبل، حتى كانوا يفكرون من حين لآخر في العُدول عن المضي في هذا المسلك الصعب، ولم يمدهم الأستاذ بما ينتظرهم من طريق عسير أو آخر يسير تستوي عليه أقدامهم، ولم يشعروا بأن الممر غدا يتسع، وأن أرجلهم تطأ أرضا غير صخرية؛ هشّة التربة؛ كانت هذه الأخيرة محروثة، واتسعت المساحة، وأحاطت بها دغيلة من نباتات وأشجار كثيفة الجذوع، وملتفة الأغصان ومتشابكة، وعريضة الأوراق؛ ترتوي من ماء السماء، وتحتمي من جفاف الجو بظليلتها؛ قال الأستاذ بعطف ورعاية:

– انتهى سيرنا إلى السطح المستوي، فاتخذوا من صخور السفح متكآت تستريح عليها ضُلوعكم، واضطجعوا ليزول عنكم تعب المشي على صخور شكلتها أجواء الطقوس المتقلبة، والمناخات المتذبذة والمتتالية؛ خلال الأزمنة القديمة.

بعد عشرات الدقائق وجه أستاذ الأحياء أمرا إلى نادر؛ مادا إليه يده بمجرفة قصيرة النصل؛ سهلة الاستخدام؛ قائلا:

– قمْ وشَمِّرْ عن ساعديك، وأَزِلْ طبقة من التّراب بحذر.

ولم يزل نادر يجرف التربة ويُنحِّيها جانبا؛ حتى كَشَف عن غطاء بلاستيكي أسود اللون؛ يمتد بامتداد المساحة، وسمع أستاذه يأمره مرة أخرى قائلا:

– كَفَى.

وقال حاثّا نفسه ونادر:

– وليُمسك كل واحد منا بأطراف الغشاء، ونحاول أن نطويه بعيدا عن البقعة.

أزالا الغطاء البلاستيكي المُستغْرب من طرف باقي أفراد الجماعة، فالذي أظهراه هو هيكل دينوصور مُتحجِّر؛ صغير الحجم وكامل، ولم يكن الذي نقب عن هذه الحفيرة النادرة، وأذْرى عنها التراب بمكنسة خاصة، وكشط عن عظامه الطين المتصلب بفأس ميكانيكي، غير أستاذهم؛ في إحدى خرجات البحث في المناطق؛ التي من المحتمل أن تكون الدينوصورات عمَّرتْها في أحد الأزمنة الجيولوجية. اِنبهر أصحابه، وحدّقوا في كل عظمة متحجّرة بتأمل وعجب؛ قال الأستاذ:

– الحكاية هي أن زاحفا طائرا نشب في جسم هذا الدينوصور الصغير مخالبه الحادة، وهو حي، وطار به إلى هنا حيث العُشّ لينهش لحمه الطري، ويُهجر العُشّ، وتجرف مياه الأمطار أتربة وحجارة وحصى قمة الجبل وسفحه؛ رَدُوما لتَطْمِر هيكله العظمي، ولتطول عليه الأزمنة فيتحجر؛ الطائر العملاق من نوع (التيروصورات)؛ كان يعيش في المغرب قبل حوالي مائة مليون سنة، وكان يصل طوله إلى أربعة أمتار، والذي يتطلب منا الآن هو أن نُعجّل بتوثيقه؛ طبقا لمطبوعات أعدتها لجنة علمية؛ كنت أحد أعضائِها، وصُودق عليها من طرف

رئاسة الجامعة؛ إذ لم يكن لدي الوقت الكافي في رحلة الحفر في هذا المكان السابقة.

وحتى تُملأ تلك النماذج دون هدر للوقت، ولا يمضي بهم زمن الليل؛ إلى أن يظهر ضياء شروق الشمس؛ قال الأستاذ مُوجّها كلامه إلى نادر:

– سآخذ أنا قياس كل عظمة من الدينوصور، وأنت ستُسجّل ما أُمليه عليك من تلك القياسات، ومعلوماتٍ أخرى اِستَنتجتُها بدراسته.

ما كان مرسوما على المطبوعات الورقية هو خانات قياس، وأسهم وسلاليم مقياسية، وهيكل مرسوم بنفس الهيئة التي عُثِر عليها صغير الدينوصورة، وكان أهم توثيق إداري وإجراء قانوني هو رقم تسلسلي؛ كان الأستاذ أمر بتقييده في رأس كل نموذج، وبعد أن انتهيا؛ وقّع الأستاذ على أوراق التوثيق، وطبعها بختم يشير إلى صفة مسؤوليته العلمية، وبختم آخر دائري يُشير إلى رئاسة الجامعة، وبذلك تُثبت هذه الأوراق، وقد غدت مستندات؛ ملكيةَ المتحف الطبيعي لهذا الهيكل المتحجر، وبها يُصنّف إرثا طبيعيا؛ يستوجب هذا توثيقه، وترقيمه بآخر عدد في سلسلة عدد الدينوصورات؛ الموثقة والمعروضة في المتحف الطبيعي، فبرقت عينا الأستاذ لشعور بنجاحه، ودلت العلامات التي ظهرت عليه، ومنها ابتسامة خفيفة أضاءت وجهه، الذي كان إلى حدود ذلك الوقت يَنْقَبِض صرامةً، على ارتياح وإحساس بالفوز، وانتقل بهم الأستاذ في ذلك الوادي؛ إلى جمجمة دينوصور آخر، وعظمة فَخِد، وعظام أخرى كثيرة، إلا أن سعادتهم بوجودهم في بيئة الدينوصور القديمة والمتحجرة، وأجواءَ الطّمأنينية التي عمّت الجميع لم تستمر؛ إذ أطلّت رؤوس أشباح من القمة والسفح، وترك أحد الأشباح جذعه وطرفيه السفليين يتدحرجون، وهو يحكم أصابع يده اليمنى الصلبة على هراوة؛ برأس مُدوّر وأمْلس؛ كأنه يتوعد جميع من يدب على الأرض؛ تسبقه الحجارة التي أُقتُلعت بكعب حذائه السميك والقوي الجلد، ووطئت أخيرا قدمه اليمنى على رأس صخرة الذي كبحه، مُتلفِّعا بعِمَامة دَسْماء؛ يُخفي طرفٌ منها وجهَه؛ نطق قائلاً:

– خير لك أيها الأستاذ أن تترك هذا المكان، أعني إذا أردت أن تظل من الأحياء.

ما إن بُوغِث الأستاذ بوجود أشخاص يُطوّقُونهم؛ حتى دَسّ أوراق التوثيق والمختومة في جيب سروال أنور الأيسر، ودفعه في اتجاه مُعاكس؛ حاثا إياه على الإفلات من المكان المحاط بالصخور، والمحاصر بمهاجمين مجهولين، فالتفت أنور وراءه، فلم ير غير منفذ صغير بين صخرتين؛ تهاوت إحداهما على الأخرى، فدخله وسار قليلا، مُخْتفيا عن أعين أصدقائه. هل دفع به الأستاذ الأحيائي ليتوارى غير بعيد وراء الصخور، أم ليبتعد إلى أبعد مما يستطيع عن المكان؟ لقد فوجئوا ولم يعد لهم الوقت الكافي ليفكروا في اتخاذ القرار المناسب، والتحكم فيما سيحدث، فأخذ الوعيد القاتل باهتمامهم، ولم يسألوا إلى أين سيُفضي ذلك الممر بين الصخرتين بأنور.

قال مُهدِّدُهم بالقتل قائلا:

– إن أفرادا من أُسر، وفاشلين في الإلتحاق بالإدارات العمومية، وعاطلين، وأرامل، ومطلقات، ومدمنين؛ يتعيشون مما تَتْرف به أنت أيها الأستاذ؛ بالبحث عنه ودراسته بطرق ووسائل وتقنيات، وتتفنن في الكشف عنه.

قال الأستاذ بإحساس بخطورة الموقف، وأمل ضعيف:

– إنني مختص جامعي فيما تحفرون عنه دون علم بالطرق العلمية، وتُدمّرون هيئة المستحاثة العامة، وتقضون على العينات التي تعطي فكرة عن تطور الحياة على كوكب الأرض.

قال المجهول المتوعد:

– وما قُلْتُ بعد قليل دليل أني أعرفك، فلا تضيّع وقتنا.

قال الأستاذ بنبرة رسمية:

– إني موفد من رئاسة الجامعة، ومن مؤسسة البحث الأكاديمي، وقد وثّقت ما عثرت عليه وصنّفته، وسجّلته في سجلات الجامعة الرسمية، وسُتقاضَى في المحاكم إذا ما مسست عظمة من الدينوصور.

لم يكترث المتلفع بكلام الأستاذ وقال:

– إن حياتَك مُهدّدة، فتنحّى، وحفاظا على أرواح من معك من الأغرار.

ورفع يده اليمنى بإشارة إلى شخصين، فلم يتأخرا هذان فضربا بقضيبين حديدين طويلين في صخرة كبيرة، فهوت هذه وسدّت دون جماعة الأستاذ الممر.

إذ ذاك قال الرجل الآمر:

– ماذا ترى في هذا يا أستاذنا؛ أنُطمرك كما طمرت الرواسب والانهيارات الصخرية الدينوصورات؟

والتفت الآمر الجهنّمي إلى شبح ضئيل؛ نحيف الجسم، ففهم هذا ما عليه أن يقوم به، فطار كأن له جناحين، وضرب بقدميه نُتوءات الصخور، إلى أن حط بجانب الأستاذ، وطفق يفتشه، ثم عرى عن جذع نادر، وأمر صفاء برفع يديها، فدار حولها دون أن تمتد يده إليها، وعاد فتسلق الصخور.

قال حينئذ رئيس جماعة الأشباح:

– لا وجود إذن لأوراق التوثيق والتسجيل؟

كأن يدا يَتَحلَّى أحدُ أصابِعها بخاتم سميك من نحاس؛ أضاءت في الظلام؛ ظهرت لنادر؛ مُستدْعِية إياه وتحثه؛ كان أول ما تساءل عنه هو: «أليست يد أنور؟»، فوجه أمرا بصوت حاد وخافت:

– من هنا أستاذنا وأنت يا صفاء؛ فلتهرب بنا أقدامُنا وسيقانُنا؛ إني أتشمّم رائحة الموت.

فاختفوا في الظلام مُستنجِدين باليد الشبح؛ يجرون خلفها، وما التقطته عينا صفاء أن المتلفع ورؤوس الأشباح هووا من الأعلى؛ لقد شُدّ عليهم حبل غليظ؛ أطاح بهم جميعا، فمِن طرف من؟ لا تدري، لقد أَغاثَتْهُم تلك اليد التي تتحلى بالنحاس من موت مُحقّق، فمن يكون صاحبها؟ ومن وثّر الحبل القُنَّبي فضاق بالمباغثين، فسقطوا مُعفّرة وجوهُهُم بالتراب الذي كان يدفن الدينوصور الصغير؟

كانوا يفرّون جرْيا بأقصى سرعة تُحققها قدرتُهم البدنية، ومحاولة الابتعاد بأطول مسافة عن عيون المُغِيرين، ولم يكونوا يَرَوْن من صاحب اليد المغيثة في ظلام الليل إلا صَنْدَلَه الجلدي، وكعْبه العاري، وساقيه المحترقين بشمس البرية، وطرفي سرواله القصيرين، وفي إحدى اللحظات رُفِعت تلك اليد آمرة بأخذ نفس، فأبطأت الجماعة وحدّقوا في وجه ذي اليد المرشدة، فلم يكن غير راعي قطيع

المِعاز، وهو الذي ضيق الحبل على أولئك ليَهووا، فشكروه، وما يزال بالهم مُتعلّقا بمعرفة مصير أنور، وصاروا يتلفّتون حواليهم في الظلام؛ تسبر عيونهم الأجسام وتدقق النظر فيها، وهاجس واحد يشملهم وهو: هل أضاعوا أنور؟ هل سيقع بين أيدي أولئك، وبحوزته وثائق الدينوصور؟ فيهددونهم بحجزه حتى يبتعدوا عن طريقهم، ويُخلوا الوادي.

نطق الأستاذ بما زاد من أسفِهِم ومن همِّهِم القاتل:

– سينجُرون قاعدة الدينوصور الصخرية إلى أجزاء، وسينقلونها إلى وجهة مجهولة؛ كما تُحمل قطع التركيب، إنها مستحاثة نادرة ذلك الدينوصور، وعينة إذا ضاعت فُقِدت حلقة في سلسلة تطور الدينوصورات، والتعمق في أسباب انقراضها، والتي ما تزال موضع نقاش ومحاجّات ومنافحات، فما يتوجب علينا الآن أن نُعيق نقل الدينوصور إلى مكان ما مجهول؛ كيف؟ سنُخطط لذلك؛ بعد أن كانوا هم من يراقبوننا ويطّلعون على تحركاتنا، فنحن الآن من سيرصُدهم، ولن نخلي لهم المكان؛ حتى نُحبط عملهم غير القانوني.

وسكت لحظة، ثم تساءل:

– أين أنت الآن يا أنور؛ في أي شِعب أو واد تتيه، لم يكن لنا خيار؛ لقد دفعنا بك إلى المجهول؟

نظر نادر وصفاء والراعي الحازم إلى وجه الأستاذ؛ الذي غطّته سحابة حزن، ولكن كفّ الراعي بخاتمها المتلألأ على البَدر[65] الذي تُخفيه غيوم الليل حينا وتنقشع عنه حينا آخر؛ اِمتدّت مرة أخرى؛ جَاذِبةً إليها أبصار الآخرين؛ فما شاهدوه هو أن أصابعها كانت تحكم على ورق مطوي بعناية، فسمعو الراعي يقول:

– هذه وثائق الدينوصور.

وانتفضت صفاء سائلة:

– وأنور؟

قال الراعي بابتسامة ذكية:

[65] هو القمر المكتمل في دائرته، بعد أن يكون هلالا ثم محاقا.

– إنه يتعشّى الآن على أرنب بري مشوي؛ في كوخ مبني بجذوع الصنوبر، ومسقوف بسيقان القصب، فاطمئنوا.

ولم يكد ينتهي من كلامه؛ حتى أمطرت عليه جماعة التنقيب كلمات امتنان وشكر.

وجد أفراد الجماعة الفارون أنفسهم مُتحلِّقين حول الأستاذ؛ مُنتظرين ما سيقول بعد الحدث المخيف، فما تحرّك به لِسانه هو:

– ما علينا الآن هو أن نراقب تحرُّكاتهم، لنعرف الطريق التي سيسلكونها، ونتتبّعُم بحذر ومن بعيد؛ لألا يعلموا أننا نُتابِع فِعلهم، ولنتعرف على المكان الذي يودِعون فيه المتحجرات.

قال الراعي بتحفز:

– أنا آتيك بخبر ما يعملون عليه الآن؛ قبل أن تتحرك عشر خَطْوات من مكانك هذا.

واختفى، فكان مما يُدمِسُه الظلام في تلك الساعة، وما هي إلا عشر دقائق حتى رجع، فلم يكن له الوقت الكافي، فدعاهم من بعيد بصوت خافت؛ آمرا:

– اِتْبعوني.

ولحِقُوا به وهو يقول لهم:

– إنهم يسوقون قافلة من بغال المنحدرات الوعرة؛ مُحمّلة بَرَاذِعُها بقطع من صخور ملفوفة بأغشية من البلاستيك.

واستسلمت جذوعهم لسيقانهم ولأقدامهم، التي لم تر في الأرض غير المنجورة، والمغطاة بالأغصان اليابسة المُشوّكة، وبالحجارة الملساء والحادة الحواف؛ إلا بساطا في الهواء؛ لِلَهْفتِهِم إلى أن ترى عيونهم قافلة حفّاري محاجر البيئات القديمة، لكن في الحقيقة كانت أقدامهم تتعثر، وتوارى الراعي وراء صخرة، ومن قمتها أطل، فأشرفت معه رؤوس أفراد الجماعة، فشاهدوا جميعا البغال وهي تسير ضاربة بحوافرها الأرض الصّعب المشي فيها؛ مُهادِنة بروية الحدور والعقبة؛ تُسمع أنفاسها المجهدة من بعيد، وأردافها وبطونها تُهمز بضربات موجعة بعِصيّ من شجر الدِّفلى، وهل لمستغل البشر والدواب لمنافع مادية قلب يرقّ ويُراعي؟

قال أستاذ الأحياء:

– لنسير وراءهم.

قال راعي المعاز:

– لا بد من تعقبهم من بعيد وبتأن؛ حتى ننجح في الوصول إلى المكان الذي يُودِعون فيه ما تحمله البغال.

كان أستاذ الأحياء وأصحابه؛ يسترشدون بالمسلك في ظلام الليل؛ بالبغال وأشباح الذين يسوقونها، وتُسرِع ضربات قلوبهم في الوقت الذي تختفي فيه الأشباح من حين لآخر.

قال راعي المعاز مُحذِّرا:

– إذا ما وصلت إلى آذانهم أصوات سارين في الليل، أو أحد سائر؛ فإنهم يتأخرون وبحيطة عن البغال، ويتركونَها تسير دونهم؛ حتى يتأكدوا من خُلوّ الناحية من أحد الفضوليين، أو المراقبين، أو رجال السلطة المحليين، أو خفراء الغابات.

وتابعت البغال ومن يسوقونها أو يقودونها رحلةَ الليل؛ صاعدةً السّفوح أو هابطة في الحدور؛ إلى أن توقفت أمام كوخ مبنيّ بقِطع من صخور المنطقة، ومسقوف بصفائح من القصدير؛ قديمة وصدِئة؛ يحيط به سور غير قصير؛ مبني هو كذلك بنفس القطع الصخرية، فتلقّت أردافُ البغال ضربات متتالية وسريعة بفروع الشجر؛ هامزات حاثات، ودفعا بأيد قوية؛ فيها شدة بأس، وسُدّ باب صفيحي مُتهالك دون إطار؛ دون عيون جماعة الأستاذ المُراقِبة؛ لوصول البغال المحملة بصخور وادي الدينوصورات، وأشار راعي المعاز إلى الأستاذ ورفقائه؛ بالتوقف بعيدا دون التقدم أكثر، وانتظار ما سيحدث، وقال:

– هذا إذن هو الوَكر، وهو غريب في وجوده في هذه الناحية.

ونظر بسرعة إلى مَسرب كثير الوطء، وبه آثار حوافر الدواب، وقال:

– أستغرب ما ألاحظه؛ إنه طريق مطروق أكثر من مرة، ولا يدل على أنه مهجور أو موسمي.

قال أستاذ الأحياء:

– أوَ نكون قد تعقبنا جماعة أخرى؟

قال نادر:

– حيث نحن الآن، فإننا بعيدون بما يكفي كي لا ينتبهوا إلى من يسير وراءهم.

بعد نصف ساعة خرج من البيت الغريب في بنائه جميع رجال مجموعة البغال؛ يجرُّون البغال بالألجمة فارغة ظهورها، وهبطوا بها سفحا وغابوا بها في الظلام عن أنظار جماعة الأحيائي.

بعدما لم يعد يصل إلى أسماع أفراد جماعة الأستاذ وطآت حوافر البغال، وهمهمات مُجهدة من الأشباح التي تقودها؛ تقدم راعي المِعاز أولا، وتبعه أستاذ الأحياء، ثم باقي أفراد الجماعة، ودخلوا جميعهم الكوخ المستغرب؛ كان أول ما وجدوا فيه حَدْوات الدّواب معلقة؛ في مسامير مدقوقة في حجارة الحائط، وأدوات الحدادة مبعثرة، وموقد حمي قضبان الحديد، وسَنْدانا، وحفرة دائرية بعمق متر؛ عرف راعي المعاز لأي حاجة هي، فقال:

– إنها هُوّة يهبط فيها الحداد ليستوي مع الموقد والمنفاخ الجِلدي؛ إنه محل حِدادة؛ لتشكيل حذوات الحوافر، وسكاكين النحر، وسِكك الحرث، ومناجل جز العشب والحصاد، والمُديات، والفؤوس، ومفاتيح بدائية الصنع، وأقفال بسيطة التركيب.

سمعوا جميعا ما قال الراعي، فتنقلت عيونهم في الأرجاء والأركان مُستطلعة؛ مُجاهدة ظلمة الليل، وكانت قضبان وقطع حديدية قد روكِمت لفتت أنظارهم، فنظروا من بين القضبان والصفائح؛ فإذا هي غطاء حديدي يُخفي تحته صخور مستحاثات، فشرعوا في إزالتها جانبا؛ لعلهم يجدون مستحاثة الدينوصور، لم يكن ما هو مُخبأ سوى صخور بلورية، وأخرى بها مستحاثات عظام ونباتات؛ غير ذات قيمة من ناحية حالتها، ولم يكادوا يتيقنون بعدم وجود ما يدل على أن مستحاثة الدينوصور نقلت إلى هنا؛ حتى بوغثوا بمن سمعوا صوته يأتي من ورائهم؛ كان ذلك الصوت حادا وقويّا؛ صاحبه ثابت الألفاظ؛ نطق قائلا، وقد أحس أفراد جماعة الأستاذ بسُخرية مُثبِّطة:

– لقد عرفنا أنكم تعقبتُمونا؛ لسنا بُلداء إلى ذلك الحد؛ بأن نحفر على ما وثقتموه، فقد أعرضنا عما يمكن أن يورطنا في متاعب، فكما رأت عيناك أستاذنا فإننا نسترزق بما خف وزنه؛ أشياء من التاريخ الطبيعي؛ قليلة القيمة العلمية، ولكنها زينة أو هواية لمن تستهويه؛ صخور بلورية وبقية جذع مُتحجر،

وما يوجد بوفرة ولا ندرة فيه كالحيوان البحري المنقرض (الترايلوبيت)، فهي أحجار لتزيين أبهاء البيوت والفنادق.

قال أستاذ الأحياء:

– لقد تفاديتَ الزج بنفسك في فعل لا تتكهن بعواقبه الوخيمة.

قال صاحب الصوت، وقد عرفه أفراد جماعة الأستاذ، هو المقدم على الجماعة التي أحاط بهم أفرادها وهم في وادي الدينوصورات:

– إلى وقت قريب كنت أظن أنكم تعملون الآن على الحفر على مُستحاثّتكم، ونقلها إلى مكانها المقنن والآمن... هيا ارحلوا وعودوا إلى الوادي، واعلموا جيدا أنكم في جهة يستحوذ عليها العتاة والدهاة والمتحايلون، والعاملون خارج القانون والأعراف، والحابكون للحيل، والذي صرفني عن دينوصوركم؛ بأن أشار علي بألاّ أغامر في الحفر عنها، وأن أبحث عن غيرها لأن الطريق إليها سالم إلى حد ما؛ هو شخص الكشف عنه يُعرضني إلى القتل.

ما إن سمع راعي المعاز كلام الرجل حتى قال لأستاذ الأحياء:

– إنها حيلة مُدبرة من هذا الذي نحّى الرجل عن المستحاثة؛ لينفرد بها هو، وقد ابتعدنا عن الوادي، وأُوهِمنا بقافلة البغال، والتي لم تنقل أكياسها غير ما رأته عيناك، وما دل عليه قول الرجل المهدد في حياته.

قال أستاذ الأحياء لأصحابه وهو يسبقهم إلى سلوك طريق الرجوع إلى الوادي في ظلام الليل:

– هيا لنعود ولا نضيع الوقت، لا ندري ماذا سيحدث لمستحاثة الدينوصور.

عند وصولهم وجدوا المكان المحصور بين الأجراف الصخرية فارغا؛ فقط به أتربة حفرت فيها المعاول، والموالج، وراكمتها المجارف جانبا، وقطع صخرية مكسرة بالأسافين والمطارق الحديدية، وتتبعوا آثار أحذية آدمية وحوافر دواب؛ أوصلتهم إلى مِسرب عليه علامات عجلات شاحنة؛ تتبعوها بالسيارة؛ إلى أن التقى بطريق مُعبّد أسفلتي؛ تناثرت عليه بقايا تراب مُبللة؛ احتفظت بشكل العجلات المحفور على مطاطها، لأن الشاحنة قطعت نهرا صغيرا ما يزال يجري فيه ماء ثلوج قمم الجبال. فاجأ راعي المعاز أفراد الجماعة بأن زوّدهم؛ بما استفهمته آذانهم وتعجبوا له، وكانت صادمة:

– دون شك اتجهت الشاحنة إلى المَهْبِط.

استحثه أستاذ الأحياء قائلا:

– أيّ مهبِط هذا الذي تتكلم عنه؟

أجاب راعي المعاز بسرعة:

– مهبط طائرات.

سأله الأستاذ:

– وهل يوجد في هذه المنطقة مهبط طائرات؟

أجاب راعي المعاز مُتيقّنا بصحة معلوماته:

– غير بعيد من هنا، وبعد مسافة خمس كيلومترات يوجد مهبط مهدته ونجرته عجلات طائرات؛ تكون قادمة من بلدان أوربا؛ يستقلّها سياح مغامرون.

لم ينطق الأستاذ بأيّ كلمة، وسار بسيارته بسرعة إلى أن أشار راعي المعاز بيديه إلى يسارهم بأن ينعطف، فخفف الأستاذ من اندفاع الدّابة الميكانيكية، وتركها تتجه في طريق مُتترب ترتفع وراءها عَجاجة، إلى أن رأوا جميعا ومن بعيد شاحنة صغيرة متوقفة، وخيمتين منصوبتين، وطائرتين واحدة منهما أكبر من الأخرى، وكيسَ اتجاه الريح منصوب؛ يرفرف بنسيم الصباح، ورصيفا طبيعيا غير معبد بالأسمنت أو الأسفلت، كما كان يتصور أفراد جماعة الأستاذ، وإنما هو تَرِب ومهدته عجلات الطائرات في هبوطها وإقلاعها المتكرر؛ كما أخبرهم راعي المعاز بذلك، وكان أول ما شد انتباه أستاذ الأحياء هو الطائرتان، وعنده معلومات وافية عنهما.

بدأت عتمة الليل تنجلي ببطء بضوء الشمس؛ ظهر باهتا وراء الأرض الممتدة أمامهم، ولم يظهر أي إنسان في المكان، وكان ذلك من حظهم، فتراجع الأستاذ بسيارته، وعاد عبر المسلك؛ إلى الطريق المعبد، وفي جانب من هذه، وتحت شجرة أوقفها، فترجلوا منها جميعا، وساروا في اتجاه المهبط، ولما اقتربوا منه ظلوا يترقبون، أمر الأستاذُ راعيَ المعاز بأن يخطو بتنبّه إلى الشاحنة، ويلْمس معدن محركها، ويعرف ما إذا كان يحتفظ بسخونته، فإذا كان كذلك فهي قد توقفت منذ وقت قريب، وعاد راعي المعاز ليبشر أصحابه بأن المركبة لم تتوقف إلا بعد

عشرات الدقائق على أكثر تقدير، وما تزال تفوح منها رائحة الوقود المحترق، وأنه رفع غطاء صندوقها الخلفي فلم يجد شيئا تحمله، فهي فارغة.

قال الأستاذ بحسرة قاتلة:

– لقد نقلوا قطع المستحاثة إلى إحدى الطائرتين، وكلاهما مؤهلتان بالسفر به إلى إحدى القارات الخمس، وعبور البحار والمحيطات، والهبوط به حتى في أحراش غابة الأمازون في أمريكا الجنوبية، إنه استنتاج مما عاينته الآن، وهو مُحبط لنا، ولا أستبعد أنها الأكبر، فإليكم معلومات تاريخية وتقنية عنهما: الأصغر هي الطائرة البحرية (SCAN 30)؛ ببطن هيكل قارِب؛ يؤهلها بالطفو على الماء؛ هبوطا عليه، وإقلاعا منه؛ صنعتها بعد الحرب العالمية الثانية شركة بناء الطائرات البحرية بمدينة (روشيل؛ La Rochelle)؛ في جنوب فرنسا الغربي؛ بترخيص من بحرية الولايات المتحدة؛ ذلك أن طائرة (سكان 30) نسخة من طائرة (Grumman G-44)؛ الأمريكية الصنع، وهذه التي رابضة أمام أنظاركم؛ وهذا مؤكد؛ خضعت لعملية ترميم، وللطائرات القديمة التي صُنعت أثناء الحرب العالمية الثانية أو بعدها عُشاقها، ومنهم من كان قائدا لها شارك في الحرب.

والأكبر هي طائرة دوكَلاص (Douglass DC-3)؛ كان أول طيران لهذا النوع في عام 1935م؛ صُنعت من طرف شركة طائرة (دوكَلاص) الأمريكية؛ بُنيت بكيفية بحيث تؤدي مهاما عسكرية ناجحة؛ تهبط على أي سطح أرض، وتُقلع منه؛ سواء كان مبلطا أو غير ذلك؛ وأحدثت بسرعتها وكفاءتها في نقل الأشخاص ثورة في النقل الجوي، وطُورت واستُخدمت في النقل المدني، وصورها الإعلام الأمريكي كأسطورة النقل الجوي بعد الحرب العالمية الثانية؛ بالإغراء بالسفر على متنها إلى (فلوريدا) في أقصى الجنوب، أو إلى جزر بحر (الكارايب)، واقتنى المستعمَل منها الأفراد، وقام البعض بترميمها، وما يزال البعض منها يطيرون بها لأغراض كثيرة، ولاءمت التنقل بها في أدغال أمريكا الجنوبية، وهذه التي تُحدقون فيها إعجابا واحدة منها، وهما تستخدمان كذلك الآن بهدف السياحة والمغامرة؛ يركبها الشغوفون برحلات الطيران بها؛ لإعادة أمجادها في مجال الطيران العسكري والمدني.

قال راعي المعاز بتأهب جنوني ومخيف:

– لنهجم عليهم ونحبط عمليتهم غير الإنسانية.

رد عليه الأستاذ بهدوء:

– لا قدرة لنا لمواجهتهم، فهم مُسلّحون.

لم ينه كلامه حتى خرج من إحدى الخيمتين رجلان مُلثّمان؛ لا تظهر ملامحُهُما، وركبا الشاحنة؛ منطلقا بها السائق بسرعة، ارتفع وراءها غبار أخذ ضوء قرص الشمس الذي لم يظهر بعد؛ لَوْن ذراته الترابية، فمن يكونان؟ ماذا يشتغلان؟ من أي بلاد قدما؟ هل ستسنح لفرد من جماعة نادر أن يعرف عنهما شيئا؟ وخرج من نفس الخيمة رجلان وارتقيا سلم الطائرة القصير، وشغّل قائدها المحرك فدارت المروحتان رافعتين الهيكل الكبير إلى الأعلى في الجو، وأفراد جماعة الأستاذ يرون بذهول وبحيرة قاتلة إقلاع الطائرة الجبارة في أدائها، وكادت عينا نادر أن تدمعا حزنا على المستحاثة، التي ربما لن يراها مرة أخرى، فجلس على الأرض مُحبطا ومُغتمّا وشاعرا بخيبة حزينة، وهو مُخفّض الرأس؛ إذ شعر بيد تُنزَل على كتفه الأيسر؛ إنه أستاذ الأحياء، قال:

– لا تيأس أيها المتيّم بالطبيعة، وبكائناتها الحية المنقطعة، سنُصرّ على السفر إلى أي مكان؛ بحثا عن الذي سيكون نهاية لرحلة دينوصورنا.

وفي أثناء حديثه هذا؛ أُضيئت الخيمة الأخرى بنور مصباح كهربائي كما رجح الأستاذ؛ إذ كانت ما تزال عتمة الفجر تظلم وتحجب الأشياء عن الرؤية؛ خرج منها رجل أوروبي مُتمطّيا؛ طاردا عنه آثار نعاس الليلة الفائتة؛ ساكبا على وجهه وشعره الماء من إناء معدني، فقصده أستاذ الأحياء، وحياه تحية الصباح؛ استقبله الرجل بابتسامة مُنتعشة ببرودة الصباح، سأله الأستاذ:

– أأنت صاحب هذه الطائرة؟

أجاب الرجل بثقة:

– نعم، وهي أمل أُجدد عليه حياتي، ووصية مني بعد مماتي إلى أحد متاحف الطيران.

ولم يزد عن إجابته ورجع داخلا إلى الخيمة الكبيرة؛ ما لبث أن خرج منها حاملا كرسيين مطويين، بسطهما؛ جلس على أحدهما، وقدم الآخر إلى الأستاذ مُرحّبا به.

وجد الأستاذ نفسه أمام رجل من أقوام شمال أوروبا؛ في بنيته الجسدية القوية؛ فارع الطول؛ وجهه صلب الجلد؛ يُقدّر عمره بالستين؛ دائم الحركة؛ سريع الإجابة؛ متمرن؛ خبير؛ ذو تجارب في الحياة؛ ولعل مهنة الطيران أكسبته التعود والتمرن والسكينة والهدوء؛ دون شك تناول عشاءه بقطعة لحم مشوية أو مقلية في الزيت؛ بشوكة وسكين معدنيين عملاقين، وملعقة من معدن مختوم؛ يلبس قميصا وسروالا قصيرا؛ متينَي الخيوط وقوِيّي الحياكة؛ يشد سرواله إلى ما فوق خصره بحزام جلدي عريض؛ يحتذي صَنْدلا من الجلد البني القوي؛ يضع على مِعصمه ساعة من معدن النيكل؛ كبيرة؛ أصيلة؛ حُفرت عليها تدرّجات دائرة الثلاثمائة والستين درجة؛ سمعه يقول:

– أنا مالك الطائرة وقائدها؛ أنظم رحلات جوية سياحية من أوروبا إلى بلدان غرب إفريقيا؛ برفقتي الآن أربعة سياح من السويد؛ رجلان وامرأتان، وهم ما يزالون نياما.

قدم أستاذ الأحياء نفسه إلى منظم رحلات طائرة (سْكان 30)، فسُرّ الطيار بمعرفته بالأستاذ وقال:

– أكون سعيدا إذا ما اصطحبتك في رحلة حول العالم بحثا عن البيئات القديمة، وعن أماكن ما تزال تعيش فيها كائنات محمية من الانقراض؛ تكون إضافة إلى مشروعي السياحي بطائرتي التي نُحيِي بها الرحلات العلمية التاريخية، التي لم تكن لتنجح دون سفر جوي بطائرة من هذا النوع.

اِستمع الأستاذ إلى حُلم الطيار؛ باهتمام بالغ، وسكت طويلا مُفكرا في كلام تمهيدي؛ إلى استدراجه إلى الموافقة على اقتفاء أثر الطائرة التي حلقت بهيكل الدينوصور؛ قال أخيرا:

– إن طائرة (دوكَلاص) التي أقلعت بعد قليل تحمل مستحاثة دينوصور نادرة.

تصلبت ملامح صاحب الطائرة عجبا، وقال سائلا مُتعجلا الإجابة:

– ما هي قصة المستحاثة بالضبط؟ إن نقله عبر الجو إلى مكان ما؛ في ملاذ آخر غير مشروع؛ أليس كذلك أيها الأستاذ؟

قال الأستاذ بحسرة بادية:

– بلى أيها القائد، وأنا الذي اكتشفته في إطار بحث علمي أكاديمي؛ تُشرف عليه لجنة علمية، وتحت إمرة رئاسة الجامعة، وهو مُوثق.

قال قائد الطائرة بأسف:

– إني أجهل البلاد التي طارت إليها طائرة الـ(دوكَلاص).

وما إن أنهى القائد من كلامه حتى ظهر على يمين الأستاذ راعي المعاز؛ كان قريبا من مجلسهما يُرهف إليهما السّمع؛ حياهما ومد يده بورقة مُكرّشة إلى أستاذ الأحياء، الذي أسرع وأعادها إلى حجمها الأصلي، فانبهر؛ ذلك أنه وجد بين يديه خريطة صغيرة؛ رُسم عليها باليد خطّ رحلة يمتد من مكانهما ذاك؛ إلى جزيرة (تينيريفي)؛ إحدى جزر (الكناري)، ومنها إلى مهبط في جنوب (موريطانيا)؛ رُمز إليه برسم طائرة، وينطلق منه خط متقطع يرمز إلى طريق بري؛ إلى قرية على شاطئ البحر رُمز إليها بقُرص.

رفع الأستاذ وجهه بانبهار إلى راعي المعاز سائلا إياه:

– أين وجدتها؟

أجاب راعي المعاز بفتور معتاد:

– على قُمامة الخيمة الأولى.

مد الأستاذ يده بالخارطة إلى القائد؛ قرأها هذا الأخير وقال:

– إنها كانت بين يدي تاجر مستحاثات أو عون له وقائد الطائرة، وإنها تُبيّن خط طيران طائرة (دوكَلاص)، ومن تلك القرية الساحلية ستُنقل المستحاثة بقارِب –ولا استبعد هذا– إلى سفينة ستكون راسية في عُرْض البحر، لتشحنها إلى وجهة ما.

سكت قائد الطائرة قليلا من الوقت؛ كأنه يفكر فيما يمكن العمل به؛ تطلبه الموقف الآني، ثم نظر في وجه الأستاذ وقال بتحدّ:

– إذا كنتَ على استعداد فإني أستطيع أن أحلق بك وراء طائرة (دوكَلاص)، وأساعدك في إنجاح عملية استرجاع المستحاثة، لأن مهمّتك مشروعة، وتبّا للذين سرقوا المستحاثة، وباعوها لأفراد شبكة تهريب مستحاثات الدينوصورات خارج بلاد المغرب؛ الغنية أراضيها بمثل تلك الثروة الطبيعية، وبهذا الإرث الطبيعي التاريخي.

سأله الأستاذ بلهفة:

– ما هو المقابل:

– مبلغ من المال نتوافق عليه، وشيء آخر له قيمة علمية.

سأله الأستاذ:

– ما هو؟

أجاب الطيار قائلا:

– أن تشرف على إنجاز كتاب مثل تلك الكتب الجميلة الكبيرة الحجم، والمجلدة والمطبوعة بأبهى طبعة؛ تحمل صفحاتُه رسومات بيد رسام ماهر؛ أقول باليد؛ لأنواع الدينوصورات المكتشفة إلى حد الآن؛ بأسمائها العلمية وبأسماء عظام هياكلها المتحجرة، وتمنحني حق نشره، وباسمك طبعا، وفيه صياغة مثيرة لقصة مستحاثة الدينوصور الصغير.

لم يتردد الأستاذ وأجاب:

– أنا موافق، وإني فوق ما اشترطت ممتن لك، وتكون قد قدمت خدمة علمية وثقافية إلى هذه البلاد.

وبالرغم من أن الأستاذ، وبسرعة لم يكن يتوقعها؛ حصل على مساعدة ذهبية من قائد الطائرة، إلا أن سعادته لم تكتمل؛ إلا إذا حقق له طلبا أخيرا، فتوجه إلى القائد قائلا:

– إن من يُلازمني لأجل التحصيل العلمي، وله شغف لا يوصف بالطبيعة، ورغبة شديدة في النهل من علوم أحياء بيئات الأرض؛ هو الذي خُضت معه صِعاب رحلة بحرية إلى جزر (الكناري) لاسترجاع عقد من أصداف (ناساريوس) كان قد سُرق؛ إحدى حِلْيات الإنسان الأول، وما يزال مُستعدا بحيوية إلى السفر معي في أي مغامرة مثل هذه.

قاطعه قائد الطائرة قائلا:

– فهمت طلبك، فلتِلميذك كرسي مريح في طائرتي... لا بد من أن نسرع... سأوقظ زبائني.

عاد الأستاذ إلى أصحابه، وأول من تكلم معه هو راعي المعاز؛ سائلا إياه:

– هل تتوفر على رخصة سياقة يا صاحبي؟

أجاب الراعي بحماس:

– نعم.

قال الأستاذ:

– هذه سيارتي قُدها، وهذه صفاء وهذا أنور إرجع بهما؛ إلى مأوى تراه لائقا بهما؛ حتى نعود أنا ونادر من رحلة استرجاع مستحاثة الدينوصور، ولا فائدة في بقاء المخيم قائما بخيمتيه؛ أنت تعرف ما عليك فعله... إلى اللقاء.

وقال لنادر مُستعجلا إياه:

– هيا لنركب طائرة (سْكَان 30)؛ في مغامرة قلّ ما ستقوم بها؛ إن الإقدام وإنجاز ما يصوره الكسلُ صعبَ المنال أو مستحيلا يصنع الرجال، وفي السفر من مكان إلى آخر يزيد من الحزم، وشدِّ الرحال إلى الآفاق.

كذلك وجد نادر نفسه يركب لأول مرة طائرة قديمة الصنع، واغتبط كثيرا، فقد سنحت له فرصة سفر جوي؛ بين قائد مخضرم ومحنك وذي تجارب في الطيران بأي طراز من الطائرات، وعالم ببيئات وكائنات الأرض، ومُثقف، ومُتقِن أكثر من لغة أجنبية واحدة، فهذا جميعه ثمرة فطنته إلى البيئات الطبيعية القديمة والحالية، وحُبّه لها، وسيتفانى في خدمتها، والذود عنها؛ إنه الآن يحس أكثر أنه من حُماتها.

أقلعت الطائرة بهما، وبالسّيّاح الأربعة في صباح ذلك اليوم؛ إذ ما يزال النسيم يحمل برودة أرض الليل، فأنعشهم، وأطلّ نادر من النافذة فرأى جبال بلاده الشامخة، وتلالها المغطاة بالأشجار، وسهولها المزروعة، وهضابها الصحراوية الممتدة بلون صخورها البنّي؛ مُغطاة برمال صفراء صافية اللون. سطوح بلاده نباتات خضراء، وبحران، ومياه بحيرات وأنهار زرقاء، ولَبِنات بيوت دواوير من تربات محلية؛ قال مُحدّثا نفسه: «ما أغنى بلادي!». استحيا أن يطرح سؤالا، ولم يُحدّث به نفسه، وقال: «أرجو أن يكون من بين مواطني هذه البلاد من له من مال يمكنه من اقتناء معدات آلية وتكنولوجية، وهذه الطائرة مَرْكَبَة من مُعدّات تؤهل إلى حماية موروثنا الطبيعي وتذود عن حِمى طبيعتنا».

حطّت الطائرة البحرية على ماء المحيط الأطلنتي؛ قريبا من جزر (الكناري)؛ ببطنها؛ كانت في انتظارها سفينة شراعية، ركب فيها السياح الأربعة، ثم أقلعت

من جديد مُخترقة بمقدمتها الحادة أمواج البحر، وحلقت في السماء مُتجهة إلى الجنوب؛ إلى (موريطانيا)، وقد استعلم قائد الطائرة من ربان السفينة الشراعية؛ بإشارات وكلمات لا يفهمها أي أحد غيرهما؛ على أن طائرة (دوكَلاص) توجهت إلى الجنوب، وكل ما يعرفه هو أنها عرّجت على جزيرة (تينيريفي) لنقل سُيّاح إلى بُلدان ما وراء نهر السنيغال.

أبرقت في ذهن الطيار فكرة لم يخطء فيها، وهي أن هبوط طائرة (دوكَلاص) غير بعيد عن قرية الصيادين؛ لا يمتد وقتا أكثر من نقل شِحنة المستحاثة إلى شاحنة؛ لتسير بها هذه إلى أحد أكواخ القرية. لم يسأل بعضهما البعض؛ سواء أستاذ الأحياء أو قائد الطائرة عن إحدى مراحل خطة استرجاع المستحاثة، وهي التي سَتلِي تلك التي ستُنقل خلالها من مخبئها بقرية الصيادين؛ إلى أي مكان يُستأمن عليها، وبأي وسيلة نقل؛ ألم يحن بعد الوقت لإثارة هذه الأسئلة؟ فما يدور في ذهن صاحب الطائرة أن مهمته ستنتهي في مهبط في وادي (درعة)[66]؛ جنوب سفوح جبال الأطلس الكبير الجنوبية؛ حتى يرجع دون أن يكون محط شكوك جماعة مهربي المستحاثات؛ إلى مهبط ناحية مدينة (أرفود).

إن الهبوط بالطائرة في جنوب (موريطانيا) في وقت متأخر من الليل، وبالضبط في الساعة الواحدة من تلك الليلة؛ في موضع لا يبعد إلا بعشرات الخطوات من قرية الصيادين؛ كان مُخطّطا له من قبل الطيار؛ حتى تجري العملية في غفلة من حُراس محتملين، ومن الفضوليين، ومِمن يُثرثِر بهبوط الطائرة المفاجئ، وقد ضبط القائد خط الطيران، والمسافة التي ينبغي أن يقطعها، وقد لاحت لراكبي الطائرة صفائح أكواخ القرية تلمع بانعكاس ضوء القمر؛ الذي كان في تلك الليلة بدرا، فكان ذلك علامةً يسترشد بها الطيار ليهبط بطائرته، وقد فعل ذلك دون عوائق ولا مشاكل، وما إن ترجّلوا منها حتى هرَعوا في اتجاه الأكواخ المسقوفة بجذوع النخيل وصفائح القصدير، ومبنية بقطع من صخور الصحراء؛ يطلّون من فجوات الإطارات ومن خصاص الأبواب، ليعرفوا ما بداخلها، وكان من يسكنونها نياما، وهم ماضون في البحث عن البيت الذي ربما وُضعت فيه

[66] أحد أودية المغرب، وأطولها؛ ينبع من جبال الأطلس الكبير ويصب في المحيط الأطلنتي.

المستحاثة؛ إذ هاجمهم رجل يغطي رأسه بعِمامة زرقاء بقضيب من حديد؛ يحاول أن يُجهز عليهم واحدا واحدا؛ وقد شعر نادر بحركاته المندفعة، فنبّه رفيقيه في الوقت المناسب، فمالا بجسديهما في اتجاهين مختلفين، ورغم ذلك تلقى الطيار ضربة على كتفه، فواجه المسلح بالقضيب بأن أحكم وبسرعة قبضتَه على طرف القضيب، ورماه بعيدا، وسيطر عليه بأن ضيّق على عنقه بذراعيه القويين، وكمَّم فمه حتى لايصيح بأحد، ودحرجه على الأرض، وأحكم يديه بحبل كان يحمله في جيبه، واستل من صدره مسدسا وهدده بالقتل؛ إذا ما حاول الهجوم مرة أخرى، فاستكان الملثم بخوف، وظهر الاستسلام في عينيه، ورجاءٌ بألا يُؤذيه، وحثَّ الأستاذَ ونادر على الاستمرار في البحث مُطمئِنا إياهما، ودار قائد الطائرة حول سكن متداعي الحيطان والسقف دورتين، وأطل بقامته الطويلة بين الصفائح المعدنية، فرأى صناديقا خشبية بعضها فوق بعض، إلا أن الباب موصد بقفل، كسره بصخرة حادة، ودخلوا وبدأوا يفتحون الصندوق بعد الآخر، حتى عثروا على المستحاثة كاملة العظام، والذي ميزها عن العظام المتحجرة الأخرى لهياكل غير كاملة؛ هو سر احتفظ به أستاذ الأحياء، وهو أنه وفي الوقت الذي كان يحفر عنها؛ نَقَش الاسم العلمي للدينوصور ورقم تسلسل سجل التقييد؛ على عظمة الحوض المتحجرة، فحملوا قطع الدينوصور إلى جوف الطائرة، وعاد القائد إلى الأسير وحرره وساقه بعيدا عن بيوت القرية، وقال له مُوجها مسدسه إلى صدغه:

– هذه الصحراء الواسعة أيها المغرر به، فابتعد ما استطعت، وابحث لك عن عمل شريف تتعيش منه، ولا تشارك هؤلاء اللصوص في فعل غير قانوني، فنهايتك في الأخير ستكون مأساوية.

فأطلق الرجل ساقيه للريح؛ حافي القدمين، مُختفيا عن الأنظار، وما يزال الليل يُخيّم بظلامه على دنيا غرب إفريقيا.

شغّل الطيار المحرك المدوّي بتأن، وبحركات من يديه تدل على تجربته الطويلة في قراءة لوحة القيادة وفي سياقة الطائرات، ومعرفة باتجاه الرياح ودرجة هبوبها، ومتى يقلع ومن أي سطح من سطوح الأرض، أمسك بالمقود وترك الطائرة تحلق في الجو؛ في خط طيران، للمرة المائتين أو أكثر، فهو لا يتذكر؛ في اتجاه الشمال،

واختار أن يهبط قريبا من إحدى واحات الجنوب، قريبا من ضفاف وادي (درعة).

كان طيارا من الغرب مُستبشرا برحلاته الجوية؛ هادئا؛ يزن الأمور بالعقل؛ لا تُلاحظ عليه أي جلبة أو تسرّع في إنجاز أعماله، وقد قام بما وعد به، وكانت سعادة نادر وأستاذه كبيرة؛ عندما نقلا المستحاثة؛ من حيث هبطت الطائرة؛ في شاحنة استأجراها؛ إلى المتحف الطبيعي بمدينة أقدم جامعة بعد الاستقلال.

ظل راعي المعاز جَادّا في لقاء أفراد جماعة المستحاثة التي حلقت بها طائرتان في الجو؛ إحداهما يسّرت استرجاعها؛ ولو لم يتفان أستاذ الأحياء ونادر في الاهتداء إليها، والعودة بها من رحلة كأنها كانت ستُفضي بهما إلى المجهول، ولو لم يوفر لهما الطيار آلة تحليق؛ قطعت المسافات في وقت أقصر، لما كان الدينوصور المتحجر محفوظا الآن؛ مُستأمَنا عليه.

لم يمض شهران، وكان راعي المعاز يذهب من حين لآخر كما اعتاد إلى المدينة لقضاء ما لاغنى عنه في يومه؛ حتى أتى جماعة أصدقائه بالخبر اليقين، ففي مروره في إحدى المرات بأحد شوارع مدينة (أرفود)؛ رأى نفس الحافلة التي استُخدمت في نقل المستحاثة من وادي الدينوصورات إلى مهبط الطائرتين؛ يجلس وراء مقودها سائق يكلم رجلا يندس بوجهه ما بين باب الشاحنة الموارب، وكرسي السائق العالي، وقد التفت فظهر وجهه، فعرفه؛ لم يكن غير نادل المقهى، ومنذ ذلك اليوم وهو يستخبر البعض، فتيقن أن النادل وصاحب المقهى هما من استغفل أفراد جماعة الدينوصور في مُستحاثّتهم، وأنهما يقومان بذلك كلما اهتديا إلى عظام حيوان منقرض متحجر، وعلموا فيما بعد، وكان أستاذ الأحياء قد رفع تقريرا إلى رئاسة الجامعة التي أبلغت الإدارة الموكولة بالتحقيق في السرقة؛ أن قائد طائرة (دوكَلاص) وخلال التحقيق؛ قال بأنه نقل مستحاثة صغير الدينوصورات بعد أن قُدّمت له أوراق توثيق مُمضاة ومختومة، ولما حل المحققون بمنطقة (أرفود) لتتبّع الخيط؛ تفاجأوا بضياع طرف ذلك الخيط كما تضيع إبرة في ذلك الامتداد لكثبان الصحراء المتحركة.

الفصل السادس

دينُوصورات جبال الأطلس

قد تتملك مشاعر ذلك الذي يخرج من بيته، وهو واحد من بين بيوت المدينة التي ازداد عددها، فغزت بذلك الحقولَ التي كانت مُغِلّة، والخلاء؛ مُتجها إلى أراض ما تزال ممتدة بكل ما هو طبيعي، وقد أُلقيت عليه دروس في علوم الحياة والصخر؛ كالتأسف على بحيرات وأنهار وبحار اندثرت، ويجد عزاءه فيما هو مُتخلف عنها، كالطبقات الرسوبية، وهي دلائل ملموسة، وعلى حيوانات ونباتات؛ انقرضت هي الأخرى، ويجد فرحته التي سرعان ما تتراجع بعودة التفكير في مآل تلك الكائنات التي كانت تملأ الأرض؛ في تلمس آثارها فيما تحجر منها، وإذا ما تعمق في دراستها بآخر وسائل الفحص التكنولوجية يُصيغ قصتها المؤلمة ويغتبط بنسبة الحقيقة فيها.

سافر نادر إلى مناطق البيئات القديمة، وشاهد بقايا الحيوانات والنباتات المتحجرة، واطلع على ما يقوم به لصوص المستحاثات؛ فازداد ولعا ورغبة وتحمّسا في القيام بالمزيد من الرحلات؛ في الأجمات والأدغال والأحراش والأودية، والتخييم على ضفاف البحيرات والأنهار.

لم يعد يُلقي بالا إلى ما يجري حوله من أحداث تُزامن وجوده، لقد رجع في الأزمنة الجيولوجية، وكان الخط الكرونولوجي لحياة الأرض ينكمش على نفسه في ذهنه، حتى كان جميع ما يزال يدبّ حيا ويتوالد وينمو يملأ خياله، وقد ذكّر أستاذَ الأحياء بالرحلة التالية إلى عالية وادي (أوريكا)، وإلى الأودية والأنهار والبحيرات والمنابع والسيول، والمياه التي تجري في باطن الصخور، وتلك التي تجري على سطوح الأرض؛ الكائنة في عمق جبال الأطلس الكبير العالية والوعرة والضخمة.

فما قاله أستاذ الأحياء أنه لم ينس ما وعده به، وأنه في مثل تحمّسه إلى الرحلة، وما قال له أيضا أنها ستكون شاقة، فأودية وسفوح وقمم هنالك لا تكون طوع البغال، والسير إليها بالأقدام هو السبيل الوحيد، وسيكون الوصول إلى أي نهر

أو واد أو أجمة أو دغل أو سفح على مراحل، وتتالى محطات للتخييم؛ في طول طريقهم إلى هنالك.

وكَتخْيِيمِهم الأخير بوادي الدينوصورات؛ نزلوا في أول مكان رأوه مناسبا؛ لقضاء الليلة الأولى في وادي (أوريكا)؛ في الأسبوع الأخير من شهر يونيو. كان الماء الجاري والذي ذاب من ثلوج قمم الجبال باردا، وكان نادر يجلس من وقت لآخر؛ كلما كان غير مشغول ببعض واجبات التخييم؛ على ضفة النهر؛ يُطيل النظر في جريان الماء؛ سامعا قرْقرته، وينظر إليه مُندفعا بجاذبية المنحدرات؛ مُراوغا الصخور والحصى وجذوع الأشجار، والنباتات القصيرة السيقان، ويتأمل لمعان المويجات، وازدادت لياليهم وهم يصعدون الجبال؛ باتوا ليلة هنا، وسروا في أخرى، وبكَّروا في أحد الأصباح، وساروا وأستاذ الأحياء لا يغفل عن لفت انتباههم إلى هذا النوع من هذا الشجر، أو ذاك، أو هذه النبتة أو تلك، أو هذا الحيوان أو ذاك، أو هذه الثمرة أو تلك، ونادر دونهم جميعا؛ كأنه يسمع عُواء ذئب، أو زئير أسد، أو زمجرة دب، أو نعيق نسر، أو دبيب أفعى عملاقة، أو حفيف أجنحة عُقاب، أو سرب طير هاجر من قارة إلى أخرى في ذلك الفصل، وعرّج على جبال الأطلس، لأن طقس هذه البلاد في ذلك الشهر يُوائمه.

كان في الليل يتسمّع أصوات الغابة وكائناتِها، ويحاول أن يميز بينها؛ أهي لهذا الحي أو لذاك، ويتخيل أنه غير بعيد عن غابة كثيفة الأشجار؛ مُتداخلة الجذوع والفروع؛ وافرة الأوراق بأشكال مختلفة، فهي إبرية الشكل، أو عريضة، أو طويلة، وتتوسط تلك الغابة بحيرة واسعة، لا تُحدّ بالبصر، وتُحدّ بالإبحار فيها، أو السباحة بشقِّ الأنْفُس في مياهها؛ مفتوحة على سماء زرقاء صافية؛ إلا من سحب بياض الثلج؛ تدفعها الرياح إلى الجنوب الشرقي، ويُحدِث الجو قُشْعريرة في الأجساد؛ عندما تغطي تلك السُّحب أشعة الشمس؛ في تنقلها تحت وجه السماء، والحيوان الذي هو في سِربه يقضم بشراهة من أوراق الشجر الخضراء الممتلئة بالخضرة والطازجة، ويعوم مُغرِقا بدنه في عمق مياه البحيرة؛ المليئة بنباتات الأعماق، وطُحلب حصى الضفاف، ليرتوي وينتعش؛ هو الدينوصور.

في إحدى الليالي سمع نادر صوتا كنَهِيم الفيل أو كرُخاء الجمل أو كزَمْجرة الضّبع؛ تردد صداه في سفوح وأودية جبال الأطلس مرة واحدة، وفي الليالي

التالية لم يسمع من ذلك الصوت أي درجة من قوته أو ضعفه، ولم يُكلّم أي فرد من جماعته؛ سواء الأستاذ أو صفاء أو أنور، وفي فجر أحد الأيام، وبين تلك القمم الصخرية، التي يُحيط بها سكون مُطبِق إلى أقصى حد الإطباق؛ لا يُسمع فيها إلا بعضا من زقزقات عصافير تصدر من أغصان الشجر القريبة والبعيدة؛ سمع نادر مرة ثانية ذلك الصوت، وتصنّت وأعاده في ذاكرته؛ كان صوتا يأتي من عُمق الأرض؛ كأنه يُطلَق في غَوْر ناء، فقام من اضطجاعته وقد انهالت عليه الاستفهامات، ودبت في جسده رعْدة، وسَرى في أطرافه الجمود؛ كأنّ قيدين كبّلها، وتقدم وأصحابه ما يزالون يغُطّون في نومهم، أطل من مدخل الخيمة، وجال ببصره في السفوح القريبة والبعيدة؛ كأن العالم المحيط به ساكنا؛ صامتا، وكان ما يزال الليل يَدْمِس كلَّ جذع أو نبت نام، وسيول الماء، ففكر، وتلفّت حَوالَيه، ورفع رأسه إلى معبر طبيعي بين سفحي قمتين، فنوى أن يقوم بعمل ما، أو بأدق تعبير مغامرة، وهي أن يرمي على كتفيه الحقيبة الظهرية، فيها قنينة ماء، ويمسك بيمناه عصا، ويحتذي حذاءه الجبلي السميك القاع، ويتتبع مصدر الصوت المجهول كائنُه.

تقدم بخطوات حاول أن تكون ثابتة؛ زاحفا على غابة السفوح، وسالكا ضفاف الأودية؛ عابرا الأنهار؛ مُقتحما بتشجّع قلعة الليل؛ راميا بنفسه في هذا الصرح الطبيعي، الذي يبدو كذلك إذا لم تتهدده التغيرات المناخية الحادة وفعل الإنسان، وذهب إلى هناك ثم رجع، وأخذ اتجاها آخر إلى هنالك ومشى، وأذناه في قعور الأودية وعلى سفوح الأطواد الصخرية، وبين جذوع الأشجار الكثيفة، وفي لحظة، وكان قد توغل في دنيا الطبيعة العذراء؛ لم يفطن أنه في عالم اجتمعت فيه الأزمنة الجيولوجية في بؤرة واحدة؛ في مكان واحد، فهذه نباتات تعود لذلك الزمن، وتلك لزمن آخر، وهذه الحيوانات ظهرت في هذه الحقبة، وتلك في فترة زمنية أخرى؛ زلزل جسدَه الآدمي الصوتُ المقعر الحاد؛ جاء من عمق الأرض؛ من قعر كهف (كارسطي)، كأنه أحدث حركة تكتونية في طبقات المكان الصخرية، فتزحزح، ومادت الأرض تحت قدميه، وانطلق الصوت مرة أخرى؛ أقل قوة من الأول، فهو تعبير عما يجيش في بواطن الكائن الحي، فجمد نادر في مكانه، ولم يخط قيْد أُنمُلة، واخترقت ذهنَه فكرة عن الصوت، وقال مُحدثا نفسه:

«بأدنى شك إنه لكائن حي؛ لحيوان برّي»، ودار على عَقِبيْه؛ عائدا أدراجه؛ يستحث خطواتِه، وقد ضل عن طريق الرجوع، التي مهدها لنفسه في اتجاه ذلك المكان، وكاد أن يتيه، إلا أن الوادي ضمه في أحد الأوقات، واتسع ليُسرع فيه إلى المخيم، وليوقظ أستاذ الأحياء؛ حاملا إليه خبرا يستعد له هو الأحيائي الذي تعمق في دراسة الحياة البرية، وعلاماتها الملموسة؛ قال له:

– من هنالك... يأتي صوت كائن حي من أعماق الأرض؛ لم تسمعه أذناي من قبل؛ استغربتاه، فهو غير مألوف؛ فريد من بين أصوات الحيوانات في إيقاعه؛ يزحزح الأكباد في الأجواف، ويُصدّع أقفاص الصدور.

ظل أستاذ الأحياء صامتا؛ ناظرا في وجه نادر الذي عليه أَثَر ما خلَّفه هنالك، وبعد مدة تفكير قال:

– ما أصدقك في كلامك! إنك في سباق مع الزمن؛ في اقتحام الطبيعة ومعرفة ما تُبطِنه وتنطوي عليه، سنشد الرِّحال في الاتجاه الذي جاء إليك منه هذا الصوت الغريب.

بعد أن أفطروا –وكان تناولهم للأكل سريعا– استعدوا، وسار نادر أولا يتقدمهم، ووراءه الأستاذ، ثم أنور، فصفاء، وبعد قطع مسافة في مدة ساعة سدّ دونهم السير سور عال من الأشجار الطويلة والأيكات؛ تكاثفت أغصانها التي تفرعت عن جذوعها الضخمة، وأوراقُها التي نمت بكثرة وكبُرت؛ بحيث تُتخذ مراوحا عريضة الأبعاد للاسترواح بها في حر شهر يونيو، وليس لهم مُدْية عريضة الحدّ لتنحيتها عن طريقهم، فحاولوا المرور بين الأغصان المورقة وبصعوبة؛ بعد أن قبَّضُوا بطونهم وضمّروا صدورهم؛ ليجدوا أنفسهم على جرف صخري خطر، وتتبعته عيونهم يمينا ويسارا، فألْفوه فوهة يغرق جانبها الآخر في ضباب المرتفعات الكثيف، وفي أسفل الجرف الصخري الدائري بحيرة؛ يُدلى بحبال من يريد أن يغطس في مياهها، أو يسلك ممرات وعرة على ضفافها، وهم قد استعظموا ما اكتشفوه، وتعجبوا أشد العجب، وتساءلوا كيف نشأت هذه البحيرة؛ أجاب الأستاذ:

– إن أمطارا عاصفية غزيرة متتالية خلال سنوات؛ كافية للحفر في الصخر ونحْت جوانب الفوهة، أو قد يكون العامل نهرا باطنيا؛ انهارت وانهالت الصخور الهشة باندفاع مياهه، وبحركات هذه في جانبي مجراه.

صاح أنور الذي كان سريع الملاحظة قائلا:

– أُنظروا... إنها أجسام تبرز من تحت ماء البحيرة.

نظر الأستاذ إلى حيث أشار أنور، قائلا برُعب:

– إنها رؤوس وأعناق دينوصورات!

تفوه بهذا، واندفع كابحا جماح نادر وصفاء وأنور عندما أرادوا التقدم؛ مُحاولين التدقيق أكثر، ومُنتظرين الرؤوس والأعناق أن تظهر من جديد، والذي لم يتكرر، وقال باضطراب:

– حسبكم حيث تقفون... لا تتقدموا، وارجعوا إلى خيمتيكم؛ حتى تستوعب عقولُنا ما شاهدناه حيا؛ ماثلا أمام عيوننا، هو خلق من الله سبحانه، والسؤال الحكيم هو: أفلا ننظر إليها كيف خَلقها الخالق؟ أو أحياها بعد أن كانت عظاما مُتحجّرة ومُتفرّقة، فأدخل بعضَها في بعض، ثم كساها لحما، أهو تطور وقع في كائن حي آخر مِجهري، أو تغير في الشروط والعوامل الطبيعية الحاسمة في ظهور الكائنات وانقراضها، أهو مخلوط في المادة الحية، أو تمازج أو تلاقح أو تخاصُب؛ إنها المادة الحية في تكوينها المعقد؛ في لغزها تحد للعلم والعلماء، بل عجز للمتأملين فيها، أم ماذا يا تُرى؟ وظهرت هذه الدينوصورات في غفلة من العالم المتهالك على اللذة المادية.

وتقهقروا مُشتّتي الأفكار؛ لا يلوون على شيء؛ بشتى المشاعر والأحاسيس، فهي الإعجاب والدهشة والخوف، وبتصورات وخيالات مُرعبة، ولاذوا بإحدى الخيمتين، وظلوا ينظرون إلى بعضهم البعض، وكان الأستاذ الذي يُشهد له بتضلّعه في علم الحياة، قد وجد نفسه مجردا من أي من أدواته العلمية، وتصوراته ونظرياته، وساءت حالته، وظهر في غير مظهره المعتاد، وتأسفوا لبعضهم البعض، ويتطلب استعادة رباطة الجأش والشجاعة وقتا طويلا، وكان السؤال الخطير هو: ماذا سيحدث إذا أُنْبئ العالم بوجود دينوصورات حية في جبال الأطلس؟ والسؤال الآخر هو هل يرحلون مُغادِرين زمن الدينوصورات، ويعودون إلى زمنهم

الذي كانوا فيه؛ منذ وقت قريب؛ مُتكتِّمين على ما عثروا عليه بالصُّدفة؛ في الطبقات الرُّسوبية المُتغضِّة[67]، وفي القمم الصخرية؛ التي نحتتها العوامل الجوية في حالات الطقوس المترددة؟

والسّؤال البسيط، والإجابة عنه قرار يصعب تنفيذه، أو إلغاؤه وهو: ماذا سيفعلون بعد الذي تتبّثوا بالعين المجردة بوجوده، ولا شك فيه؟ هل يتركون الدينوصورات تنعم ببيئتها، أم يمضون في جني الكثير من المعلومات عنها، وتدوينِها وتوثيقها؛ بالدّنّو من أفراد قطيعها؟

ترك نادر صمته، وما يزال الشعور من أثر ما شاهد باديا على وجهه، وكان جسده ينتفض من صدمة الخوف على هذا الاكتشاف؛ على أن يضيع أو يختفي بفعل ما، أو قد يُعيدون الكرّة بالرجوع إلى هناك، فلا يجدون تلك الدينوصورات، وقال:

– قبل اتخاذ قرار مناسب، لا بد من أن نرجع ونشاهدها، وهذه المرة دون اضطراب، أو خوفِ وطأةِ المفاجأة.

وافق أفراد الجماعة الآخرين، وكان الذي ذهب به تفكيره بعيدا هو أستاذ الأحياء، فقال:

– هذه الدينوصورات تَغطِس برؤوسِها وأعناقِها تحت سطح ماء البحيرة، فإلى أي مكان تُغادِر البحيرة؛ لأنها ليست حيوانات مائية بغلاصِم، فهي تستنشق الأكسجين بخياشيمها، وينتظِم شهيقُها وزفيرُها، وتأخذ أنفاسا في الهواء الطلق بعد مدة غطس؟

وأطال تفكيره في السؤال الذي طرحه محاولا إيجاد إجابة له، فقطعت صفاء صمتَ أفراد الجماعة بعد ذلك؛ مُذكِّرة إياهم ما قاله نادر بأنه كان يسمع أصوات صِياحها آتيا من باطن الأرض، ويَترجّع في عُمقها؛ ألا يكون مُتردّدا في كهف أجوف، فهو مسكنها؟

– قال نادر:

[67] يحدث في الطبقات الجيولوجية الرسوبية انثناء وتكسّر.

– إذا كان ما اسْتَنتجْتيه صحيحا، فمن أين سندنو أكثر منها؛ لنشاهدها تتحرك ذاهبة وآيبة على أرجلها، أو سابحة أو غاطسة في الماء؟

قال أستاذ الأحياء:

– لنرجع وننتظر ظهورَها مرة أخرى، ونشاهد اختفاءها، ومن المويجات التي يُحدثها غوصُها، وبروز مُحدّبات ظهورها على سطح الماء، واتجاه هذه في عومها سنعرف في أيّ اتجاه تأوي.

لا يُدرِكون كم من الوقت الذي سيظلون فيه مُنتظرين الدينوصورات، فأعدوا عُدّتهم لذلك، وحملوا معهم ألحفة للاضطجاع من تعب مكوث طويل محتمل هناك، وقصدوا البحيرة.

انبطحوا جميعا على الأرض الصخرية، والنابت بعضُ أجزائها بالأشجار والنباتات القصيرة الجذوع؛ مُتخفّين بالأوراق والأغصان الكثيفة؛ ينقلون عيونهم في كل الاتجاهات في البحيرة، وفي السفوح وفي الجرف الصخري، والذي لاحظ وجود شقّ صخري مُقوس عند مستوى الماء؛ يظهر عندما تتالى عنده المويجات؛ المتحركة بالريح، فنبّه أصحابه إليه؛ هو أنور الحيوي والفطن، فقال نادر:

– هذا مدخل مغارة طبيعي؛ نحته ماء نهر باطني قادم من جوف الجبل.

وفي إحدى اللحظات تحرّك ماء البحيرة عند ذلك الكسر الصخري، وظهرت ظهور الدينوصورات، وسبحت إلى وسط البحيرة، فانبثقت من سطح الماء رؤوس وأعناق لدينوصورات كبيرة وأخرى صغيرة، فهي إذن مع صغارها؛ صارت تعوم وتمدّ أعناقها إلى الجرف الصخري؛ حيث تتدلى عليه أغصان الأشجار المورقة، فتَقْتلِعُها بفكوكها الضخمة وتبتلعها، ويُخيّل أنها ستأتي على جميعها أكلا.

وفي هذا الوقت كان أفراد جماعة أستاذ الأحياء ساكِنين؛ مُنبهرين؛ تتسارع ضربات قلوبهم؛ تكاد تنفلت عضلاتها من صدورهم؛ مُتأهّبين للانسحاب، لأن ما هو باد أمام عيونهم؛ حيا ملموسا لا تقدر عقولهم على فهمه، والبحث عن العوامل المقنعة في ظهور دينوصورات، وبهذا الحجم، في هذا العصر المناخي الذي يعيشون فيه، إلا أن أستاذ الأحياء شجع أصحابه على البقاء قليلا، وقد حاولوا التجلّد والصبر على الصدمة؛ حتى رأوا الدينوصورات وهي تسبح في الماء

وتغطس فيه، الذي يمتد إلى ما تحت القوس الصخري، فتأكدوا أنه المدخل لمغارة تأوي إليها.

عادوا إلى مُخيمهم حَيارى؛ لم يتوصلوا إلى ما يمكن أن يفعلوه.

وبعد طول صمت، وهم جالسون خارج الخيمتين يفكرون فيما اكتشفوه، وفيما يمكن أن يفعلوا؛ قال الأستاذ الأَحيائي وعلامة رهبة بادية على وجهه:

– لقد عرفنا الآن إلى أين تتّجه الدينوصورات بعد عَومِها، فإلى ذلك الاتجاه سنغطس في وقت تخرج فيه إلى البحيرة، ونعرف في أي مكان تعيش، فارتاعت صفاء وأنور مما قال أستاذُهما، أما نادر فقد تحمّس بالرغم من خُطورة الغوص في عُمق بحيرة لا يعلمون ما يوجد فيه من صخور ناتئة، ونباتات مائية ليّنة الالتفاف حول الأجسام، وطمي وغِرين قد يُمسكهم في الأعماق، فقال مُحذِّرا:

– لا بد من غطسة استطلاعيةٍ يا أستاذَنا.

قال الأستاذ دون تردد:

– سنرى من يغوص منا نحن الإثنين، ويحاول التقدم أكثر، ولا يذهب أبعد مما قد يهدد حياته، فإننا سنستكشف أعماقَ البحيرة، والغورَ الصّخري على مراحل.

قال نادر مُتحمّسا:

– لن أتأخر، فهلمّ بنا إلى الاستعداد لمغامرة الغوص.

قال أستاذ الأحياء:

– سأُسافر ابتداء من الغد إلى (الدارالبيضاء)؛ لأشتري عُدّة الغطس، كما لا تجهلون فهي ألبسة إسفجية تقينا برودة البحيرة التي تُغذِّيها مياه الثلوج؛ الذائبة في القمم الجبلية العليا، وقِنان الأكسجين، وخناجر الأعماق، وزعانف دافِعة، وبنادق تحتمائية؛ بحِراب فولاذية تخترق جسد حيوان مائي أو بري يهاجمنا، ونحن نجاهد تيارات الماء؛ حفاظا على أرواحنا، وستصحبُني صفاء في سفر التزود بهذه المعدات، فخُذ أيها النّادِر ويا أنور حذركما، وإذا ما رأيتما ما يُهدّد وجودكما في هذه الجهة، فاهبطا الوادي وخيّما في حيّز تكونان فيه آمِنيْن.

في الوقت الذي اكتشفت فيه جماعة الأستاذ الأَحيائي وجود دينوصورات في جبال (الأطلس) المغربية[68]، كانت الكرة الأرضية ذات الأبعاد الهندسية؛ بقاراتها الخمس وبمحيطاتها الأربع، وبعوالمها المتعددة الأجناس والأقوام والمؤسسات والجمعيات؛ قد أصبحت قرية واحدة، وقرّبت وسائل الاتصال والتواصل ونقل الصورة والصوت التكنولوجية؛ إلى الأفراد والجماعات؛ جميع ما يحتاجون إليه في يومهم، وما تحب نفوسهم الجائعة والعطشى، وتتمناه، وما يستلذُّونه، وفي نفس الوقت غزا سكانَ الأرض القلق والخوف، واستبدت بهم الحيرة، وغادروا سياراتهم الفارهة، وقصورهم المُنِيفة، وبيوتهم المجهزة بآلات التحكم عن بعد، وبروبوتات حلت محل الإنسان، وناطحات سحاب مدنهم، وشوارعها الفسيحة، وفضاءاتها المشجّرة والمعشوشبة، وهاموا على وجوههم في أودية وسفوح الجبال، وفي المحيطات والبحار؛ لقد أتخمتهم مدنيّة العمران، وحُرِموا وتعطّشوا للطبيعة التي لم يبق مكان لعذريتها؛ باحثين عما يُداويهم من اضطرابات في النفس، ومن أرق ليالي الشتاء الطويلة، فلا يجدون ما يُخرِجهم من أمراض حضارتهم إلا ذلك اليوم الذي قرأوا فيه ما حُرر من مقالات وأخبار في الجرائد والصحف، عن ذلك الموضوع المثير الذي شد إليه أنظار وأسماع العالم، واصطف الناس في طوابير الشبابيك لشراء تذاكر سفر بالقطار أو بالطائرة إلى جبال الأطلس؛ لمشاهدة دينوصورات ظهرت في زمنهم هذا، فزال بظهورها قلقُهم وأحزانهم.

فكيف علم بذلك السكان المهددة أرضهم في بيئاتها، وأرواحهم بحروبهم التي لا تنتهي إطلاقا؟

رجع أستاذ الأحياء من سفره، وكان قد اقتنى أدوات الغطس، ووضعها في صناديق بلاستيكية تتسع لأحجامها، وجذب عليها أطراف غطاء يُخفيها عن العيون الناظرة بفضول، والمثرثرين أصحابها بغريب ما التقطته عيونهم تلك؛ كان قد غادر (الدارالبيضاء)، وسار بسيارته في الطريق التي أوصلته إلى (مراكش)[69]،

---

[68] تمتد جبال الأطلس من وسط المغرب إلى جبال الأطلس التلية بالجزائر، وإلى الظهر التونسبي؛ أعلى قمة في هذه السلسلة الجبلية الممتدة في البلدان الثلاثة؛ هي جبل توبقال بجبال الأطلس الكبير بالمغرب يصل ارتفاعه إلى 4167م.

[69] مدينة توجد في وسط المغرب؛ يصل عدد سكانها 928.850 حسب إحصاء 2014م.

ومن هذه إلى القرية، وفي الطريق المعبد الذي يربط بينهما قاد فيها سيارته، أما في الوادي وفي المنحدرات والسفوح الجبلية، فلا يُستغنى عن بغلين يوصل بهما صناديق عُدة الغوص إلى المخيم القاعدة، ومن هذا إلى البحيرة؛ ستكون ظهورهم هي الحاملة لقنينات الأكسجين، وثُقّالات الرصاص، وخياشيم التنفس المعدنية، وأنابيبها، والزعانف الطويلة والثقيلة، وباطمئنان لأنهم سيكونون وحدهم، ولا أحد آخر قد ينضم إليهم فيعلم بالهدف من شرائها؛ والذي لا يريدونه بتاتا، ويكرهونه إلى حد الإحساس بعدم جدواهم في اكتشافهم، الذي تفرّدوا به، وسيحزنون ويخسرون في رحلتهم العلمية.

ونقْلُ تلك الأدوات بالبغال من محطة وصولها بالسيارة إلى مخيمهم؛ يتطلب اتفاقا وتراضيا في المقابل مع سائق البغال، والذي لا هم له بسؤاله عما تحتوي عليه الصناديق؛ هي أشياء لا غنى عنها في مُدّة التّخييم في أعالي الجبال؛ هذا ما أجاب به الأستاذ الأَحيائي عن سؤال مالك البغال العفوي؛ الذي لم يستخبر منه شيئا فكر فيه من قبل، فهو سؤال ألقت به لحمَة اللسان المتعودة على ذلك، وهي إجابة من الأستاذ عابرة لا تنفع صاحب البغال في شيء.

*****

هبط صاحب البغال الذي نقل الصناديق البلاستيكية الكبيرة من قمم الجبال؛ عائدا إلى القرية، التي كانت بيوتها لا تبتعد عن ضفة وادي (أوريكا)، وكان لإحدى البنايات باب عريض؛ بدفتين عريضتين هما كذلك، ومفتوحتين على مصطبة تعلو على الضفّة، ومُدعّمة القاعدة بقطع مُقتلعة من صخور السفح الجبلي؛ على سطحها وُضعت كراس وموائد مركبة من أخشاب منجورة محليا بمنشار يدوي، فهي مقهى يتردد للجلوس فيه سكانُ الجبل؛ المتفرقة بيوتهم في القمم وفي السفوح، وسكان القرى المجاورة؛ مختلفو الأعمار، وكان كذلك من يختار جانبا منها يجلس فيه وحده شخص غريب عن المنطقة؛ لا يشارك أحدا في حديث أو لعب الورق؛ تسافر عيناه في الأمكنة القريبة والنائية، وفي المارين، والقادمين إلى المقهى والمغادرين لها، وكان قد التقطت عيناه المحدقتان أستاذ

الأحياء، وهو يتوافق مع صاحب البغال؛ على ثمن نقل صناديق إلى إحدى قمم الجبال.

فمن يكون هذا المُرتاد للمقهى؟ وما هو شكله؟ وما هي حرفته؟ وماذا يهمه في معرفة حاجة أستاذ الأحياء إلى ما تضمّه الصناديق؟

انتظر هذا الشخص رجوع مالك البغال من قمة الجبل، فلما ظهر له من انعطافات الوادي؛ صاح به، ودعاه إلى الجلوس معه، ونادى على النادل؛ وقال له رافعا إليه وجهه الذي دلّت العلامات الآنية التي ارتسمت عليه أنه من الذين يُداوِمون على الجلوس في مقاهي المدن الكبيرة والصغيرة، والقرى، ومحطات الاستراحة المقامة على مسافة معينة بجانبي الطرق؛ الرّابطة بين مدن الشمال والجنوب:

– أحْضِر ما يشتهي هذا الرجل الذي يكْدح طول النهار في تسلّق السفوح الوعرة ببغاله، وفي الهبوط بها من القمم الجبلية؛ من أجل لُقمة عيش عصية.

كان قائد البغال؛ حتى وقت دعوته من طرف هذا الرجل؛ يتصبب عرقا، ومُجهدا بالصعود والهبوط في الأودية والمنحدرات، وإن اعتاد ذلك، وغير مُطمئن إلى ما جمعه في ذلك اليوم من نقود مقابل العمل الذي يقوم به، ولم يكن يجلس في المقهى إلا نادرا، وبعد أن أسلم جسده إلى الكرسي، وأرخى ذراعيه على المائدة الخشبية، وتحت السقف الذي ترفعه أربعة أعمدة، ويتقدم ذلك السقف المقهى على الأرضية المبنية بالتراب والحجارة؛ أحس بتحرك ريح مُنعِش هبت في ظل العريش، وقدّم ذلك النادل إليه صَحْن مرق من خضر ولحم، وكوبا سكب له فيه الشاي؛ جعله هذا الجو مُستسلِما، وهذا ما خطط له الرجل الذي كان مُختليا في ركن المقهى بعالمه، والذي دعاه بعطف؛ وهو تمهيد لما سيطرحه عليه من أسئلة سيستخبر بها، فكان أوّل سؤال نطق به هو:

– أيكْفيك ما تكسبه؟

أجاب الرجل حامدا الله الرازق:

– ليس لدي خيار في ذلك، فإن ما أجنيه يكفي لمتطلبات الحياة.

قال الرجل الغريب:

– رجعْتَ بعد قليل من قمة جبل؛ حَمَلَتْ إليها بغالُك صناديقا كبيرة.

قاطعه الرجل قائلا:

– كانت المسافة طويلة، ولا أصل إلى هناك إلا في بعض المرات، وقد لا أوافق إلى الصعود إلى حدود ذلك المستوى من الارتفاع.

عندما وصل قائد البغال إلى ما قاله؛ تحيّن الرجل الفرصة وسأل:

– أوَ علمت ما يوجد في الصناديق؟

أجاب صاحب البغال دون أن يفكر فيما يرمي إليه سائله:

– إن ما في الصناديق ثقيل كأيّ حِمْل آخر.

سأله الرجل مرة أخرى:

– ومن يكون صاحب الصناديق ذاك؟

أجاب:

– إنه يخيم مع أصحاب له؛ فتى وفتاة وطفل لا يتعدى ثلاثة عشر عاما.

سؤال آخر:

– ألم تستدل من هيئة الرجل عما يشتغل، ولأي هدف هو في مخيمه هناك مع مرافقين له؟

أجاب:

– لا.

قال الرجل:

– فأنت تصعد إلى هنالك في كل يوم؛ فلو اطلعت على ماذا يفعل أولئك المخيمون، وعرفت لماذا هم بالضبط في قمة الجبل، وأخبرتني، وسأدفع لك مقابل ذلك.

علت وجهَ الرجل حُمرة، وابتسم بحرج، وقال:

– ما كلفتني به سهل القيام به.

قال الرجل مُشجّعا إياه:

– إذا بدا لك الأمر كذلك سأدلُّك على البيت الذي أقيم فيه، وتُعرّج عليّ كلما عرفت ما طلبته منك؛ من شأن تلك الجماعة.

أدخل الشخص يده اليمنى في جيب قميصه وأخرج منه أوراقا مالية؛ لم يعُدّها ووضعها في كف صاحب البغال؛ الذي أسرع ودسها في جيب بِذلته، وسمعه يقول:

– قُم، واذهب إلى عملك كما اعتدت أن تقوم به دائما.

كان أول ما نقل إليه من أخبار جماعة الأستاذ هو ما كان في الصناديق، ففي بيت الرجل المتردد على مقهى القرية قال له قائد البغال:

– إنها أدوات الغطس في الماء.

استغرب الرجل ذو الثّقة في النفس ما تفوه به سائق البغال، ولم ينطق بأي كلمة، وأمره بالانصراف.

*****

كان أستاذ الأحياء وصفاء، وسائق البغال يتبعهما؛ قد دَنَوا بالصناديق المحملة من القمة التي كانت قد نُصِبت عليها الخيمتان، ونظرا بعيدا في ذلك الاتجاه دون أن يرياهما، فكان السؤال بينهما واحد وهو: أين نادر وأنور؟ فأرسلا عيونهما في المحيط باحِثيْن عن الخيمتين التي قد تُنصبان في مكان آخر؛ وكان قد أوصى الأستاذ نادر وأنور من قبل بأن ينتقلا إلى جهة أخرى إذا ما رآيا ما يُهدّدهما، وأسرع الأستاذ سائرا خلف القمة، فبدا له جرف صخري يُطلّ على امتدادات سفوح وقمم وأودية المنطقة الجبلية، ونُصبت أعلاه خيمة واحدة، وكانت على مسيرة عشر دقائق، فأمعن فرأى نادر وأنور يُلوِّحان له، فاطمأن لهما، وكان صاحب البغال قد أنزل الصناديق من على ظهري بغليه، وقفل راجعا؛ مُنحدِرة به السفوح الوعرة، وجاء نادر وأنور وقالا للأستاذ وصفاء بأنهما اختارا مكانا آخر؛ كقلعة يراقبان منها جميع الممرات المؤدية إلى الجبل.

تعاون أفراد جماعة الدينوصورات في إعادة نصب الخيمتين، وكانت قد مرت ثلاثة أيام على سفر الأستاذ وصفاء، وبعد مرور يوم من وصولهما ومعهما المعدات؛ استيقن الأستاذ خطأ أنهما وصلا سالمين من عيون الملاحقين؛ لفضول أو لهدف آخر يجهله، كما يُداهمه من حين لآخر إحساس بعِظم مسؤولية الاكتشاف؛ الذي قد يُطفِئ عزمه وإصراره على الاستمرار، وعندما يرى في هذه

الرحلة تجربة أخرى في مسيرة رحلاته العلمية، وموضوعا آخر، وفيه جِدّة لا يستسلم، ويقول بينه وبين نفسه: «إني ونادر نسير في طريق، ودون انجذابات قد تُؤخِّرنا أو تزيغ بنا عن هدفنا، وهو التوصل إلى ما يُغني حصيلتنا العلمية؛ مما يُستكشف في علم الأحياء وعلم الإحاثة».

هل هناك وقت مناسب للغطس في البحيرة؟

الإجابة على هذا السؤال يستوجب معرفة بسلوك الدينوصورات، هل هناك وقت بعينه تخرج فيه إلى ماء البحيرة؛ لترتوي وتأكل الأعشاب والأوراق، وتسرح في امتدادات الأمكنة واتساعاتها، ومُستدفئة بالمزيد من أشعة الشمس المختلفة زوايا سقوطها على صفحة البحيرة، وعلى سطوح الأرض؟

فكان الإثنان من الجماعة اللذان كُلّفا بمهمة ملاحظة أوقات ظهور الدينوصورات واختفائها؛ هما نادر وصفاء، فالذي سجلاه أنها تتقدم إلى البحيرة، وتتراجع عنها دون أن تظهر مرة أخرى في نفس اليوم؛ يكون قبل منتصف النهار، ويكون انصرافها قبل أن يغيب ضوء الشمس قليلا عن أجراف ضفاف البحيرة، وفي أوقات أخرى، وهذا لا يحدث إلا نادرا، وهو أن قدومها لا يتعدى ساعة، والذي يدفعها إلى تلك البحيرة وإلى أجراف ضفافها هو غِذائها من النباتات، ووجباتِها هذه دليل قاطع على أنها حيوانات عاشِبة؛ تُحرّك شهيّتها أعشابُ الغابة المحيطة بالبحيرة، والملاحظة التي تُحمّس أفراد الجماعة على أن يغامروا بالغطس وراءها؛ هو أنها لا تعود بعد أن ترحل في النصف الثاني من النهار، ولم يسجل نادر وصفاء ظهور إحداها بعد ذلك، وانطلاقا من هذا جميعه حددوا وقت الغطس، وهو بعد أن تترك الدينوصورات البحيرة عائدة، وحتى لا تختفي أو تغيب عن أنظارهم؟

فمن سيكون أول الغاطسين المستطلع والمتعقب للدينوصورات؟

لن يكون أكثر أفراد الجماعة شجاعة وإقداما غير نادر، فقال باستعداد:

– سأغوص مُستكشِفا عمق البحيرة، والمدخل الصخري الذي لا نعرف أهو مغارة أو ممر لجريان نهر باطني؛ لافّا جذعي بطرف حبل؛ تاركا لكم طرفه الآخر، وإذا ما كان هناك خطر سأجذب الحبل وأرخيه فتسحبوني.

اتجهوا جميعا إلى البحيرة، وساعدوا نادر على ارتداء لباس الغطس، ووضع الأستاذ قنينة الأكسجين على ظهره، وأحكمها عليه بالأحزمة الاصطناعية، ثم أدْلوه بحبل محكم الفتل؛ متين وصلب، ورجلاه متدليتان بزعانف عريضة وطويلة، وغاص، ولم يروا مما تركه من أثر غير مويجات الماء؛ التي تحركت واتسعت في دوائر مُتتالية انكسرت على جرف الضِفّة، ولم يشدّ نادر الحبل أو يُرخيه اضطرابا أو خوفا أو مغلوبا، وإنما رجع صاعدا من عمق البحيرة بهدوء بعد عشرات من الدقائق، وانبثق رأسه، فهلل أصحابه مُطمئنين مرتاحين، فجرّوه عندئذ مساعدين إياه على بلوغ الضفة التي تختفي في بعض أجزائها تحت كِنان صخرية؛ المنحوتة بشكل فيه خطورة التشبث بها أو الصعود عليها، ثم رفعوه بالحبال، وقد كساه رداء من طين كأنه تمثال من تلك المادة الخام، والْتَفّت بأطرافه النباتات المائية، فبدا كائنا غامض الملامح، وازالوا عنه أدوات الغوص؛ مُخفّفين عن جسده ثقلها، وعناء التسلح بها في عمق الماء، وغطوه بقطعة من ثوب قطني تُدفِئه من برودة البحيرة، وجلس هو مُمدِّدا رجلا وطاويا أخرى، ومُدعِّما جذعه بإحدى يديه، وجلسوا هم كذلك مُتحلقين حوله؛ مُنتظرين ماذا سيحكي لهم، وبماذا سيُفاجئهم بغرائب الأمور. ظل نادر صامتا ينقل نظراته بينهم، وأخيرا نطق قائلا:

– إنه عالم ظَلِيلة... إنه عالم لم يبق له مثيل في الأرض؛ التي اخترقت الطرق العريضة سطوحَها الخضراء، وتوغلت الأخرى الممهَّدَة في الغابات، وتكاثفت المسارب في السّفانا وفي السّهوب، ودكّت سيور المركبات الميكانيكية المتحركة المناطق الثلجية، وتسلقت ممراتُ الواطئين سفوح الجبال... إنه عالم يستظل بأغصان وأوراق شجر بجذوع عريضة وطويلة؛ يندلق من بينها ضوء الشمس مُشكلا حزما مُنيرة من ضباب الغابة؛ ينتشر ضباب سفوح الجبال ناثرا رذاذا يُنعِش الكائنات الطائرة والزاحفة والتي تدبّ... عالم من صفائح الصّخر تتالى في العلو كأنها سُقُف أو ظُلّات بصفائح خضراء وحمراء؛ من صخر الأردواز، فكل منها هي مآو تسطع فيها أشعة الشمس... غُصْت وتقدمّت تحت الكسر الصخري، وصعدت في الماء، وأخرجت رأسي، ورفعت عيني إلى الأعلى، فاصطدمتا بسقف مغارة ضارب في العلو في جوف الجبل؛ أسبق أن رأيتم جبلا

بجوف؟ مفتوحة تلك المغارة على الغابة الظليلة المتشابكة الجذوع والمتداخلة الفروع والأغصان والأوراق؛ غابة تستمد حياتَها من جذور مغروسة إلى الأسفل في أرض ذلك العالم، وإلى الأعلى في تربة الأجراف المشرفة وفي أجواف الجبال.

قاطعته صفاء سائلة إياه، وقد أثارتها صورة عالم الظليلة التي نقلها إليهم:

– والدينوصورات... أشاهدتها؟

أجاب مُتابعا روايته:

– لم أر من قطيعها سوى رِجْل آخِر دينوصور كان قد رفعه إلى الأمام ومضى؛ كانت قد غابت تلك الدينوصورات ممهِّدة مسالكها في بساطات من النباتات الكثيفة؛ دافعة بأكتافها أسوارا من الجذوع والأغصان؛ تُكسّرها بأعناقها تكسيرا، فلم أستطع أن أتبعها، ولا نقوم بذلك إلا بعد أن نسبقها إلى طُرقها تلك المتوغلة في الغابة الظليلة، وهي عائدة من البحيرة، وانطلاقا مما رأيته فإني أطرح سؤالا هو: إلى أين تمتد الغابة الظليلة؟ أبين الغيران الصخرية أو في أجواف جبال الأطلس؟ ما أروع تلك الألواح الصخرية البنية اللون؛ إنها بساطات دقيقة السمك في بعضها؛ حُفر عليها تاريخ جيولوجية أرض ذلك العالم! وترقبوا ما ستعجبون له؛ إن تلك الصفائح الممتدة هي التي تنبطح عليها الدينوصورات مُقيّلة؛ تبثُّ شجونها تصايحا تحت أشعة الشمس؛ عندما تنقشع عنها السحب حينا وتحجبها حينا آخر؛ أو في الليل –كما أتصورها– تُناجي القمر بأصوات مكتومة هادرة في سكون ذلك الوقت؛ تسترخي على تلك الأفرشة الصخرية بأجسامها الضخمة، وليست وحدها، فقد رأيتُ سلاحفا تمشي عليها بتباطئٍ؛ بسير مُتّئد، وأحناشا تتلولب على نفسها، وترفع رؤوسها عاليا مستقبلة أشعة شمس ربيع ذلك العالم؛ تنظر بتيقظ في الأرجاء، وإليكم أصوات الغابة الظليلة، فإنها بين رفرفة أوراق الشجر عندما يحركها الريح، وطنين النحل، وحفيف الخنافس، وصرير الجراد، وتغاريد العصافير، ونقيق الضفادع، وخشخشة أوراق ميتة ساقطة على الأرض، تطأ عليها السلاحف المائية، وعواء ذئب يأتي من بعيد، وصوت ضرب جناح نسر كبير للهواء في هبوطه أو طيرانه، ولن ينقص من أصوات تلك الغابة الفريدة صوت آخر تقترب منه، فيُطربك ويسترخيك إنه خرير المياه الجارية في قعر المغارات، أو نازلا شلالات من بين صخور جُدر

أجواف الجبل؛ مُستمرا لا ينقطع، فتبتعد عنه أنت، فيستبدّ بك الحنين إليه، وتتطلع إليه من بعيد بذلك الشوق، والدينوصورات بوطآت حوافرها المتزنة، ومشيها البطيء، والتفاتاتها في حركاتها الحانية والثقيلة، ونظراتها الهادئة والعميقة؛ تعيش بسلام في سِربها؛ وبما تمنحه لها طبيعة الغابة الظليلة من نباتات؛ عليها طَلُّ صباحات الربيع؛ خضراء طازجة؛ ليّنة القضم... إنك تسمع تلك الأصوات مُوزعة في ذات الوقت، كل واحد منها يصل إلى أذنيك بعد آخر، ومختلفة، فهذا ضعيف وهذا قوي، وفي ضعف ذاك وفي قوة هذا طبيعي في حدته أو في إيقاعه، والذي يلمس وجهك برفق فتحس بانتعاشة في جسدك وتزداد حيوية؛ هي نسائم تهب في زهر الشجر، فتحمل إلى جُعْبتي أنفك شذى الورود البرية وعِطر الخزامى والياسمين والفل والزُّنبق؛ إن روائح عالم الظليلة الطبيعية يزيد من عُنفوانك الطبيعي، ومن سعادتك بوجودك كائنا من بين كائناتها النباتية والحيوانية.

سكنت أجسادُهم، وتعطلت أطرافهم على أن تأتي بحركة، ولم تطرف جفونهم، وتوقّف رمشُهم، وظلت عيونهم تُحدّق في نادر، وفغروا أفواههم، وآذانهم تسمع بانتباه، فكان نادر قد نقلهم إلى عالم الظِّلل ذاك، فخصّب خيالهم بأشياء طبيعية لم يروها من قبل، فجمحت بهم رغبة الذهاب إلى هناك، واشتد حماسهم إلى مواجهة ما يعوقهم إلى ذلك العالم؛ من فتور أو خوف أو حواجز طبيعية، ولهم من التفكير والدهاء والذكاء لمراوغتها وقهرها.

قال أستاذ الأحياء:

– إن الكيفية التي تُخوّلنا رؤية الدينوصورات ونحن قريبون منها هي ما فكرتَ فيه، وهي أن نسبقها في رجوعها إلى بيئة عالم الظليلة.

غاص جميع أفراد جماعة الأستاذ، بعد أن قدمت الدينوصورات إلى البحيرة عائمة، وكان في غطسهم إلى جانب هذه الحيوانات التي لم يُعرف بعد وبعمقٍ سلوكُها، هل هي وديعة أو عدوانية؛ فيه خطورة، خصوصا عندما بدأوا يشقون طريق غوصهم بين النباتات المائية، والحصى والصخور التي انهارت من عل إلى عمق البحيرة، وبين أرجل وأعناق تلك الحيوانات مُجانبين عيونها، وبعد مجاهدة تيار مائي مُتدفّق؛ دبّوا بأيديهم وجذوعهم على صخور، وخطوا على أقدامهم إلى الألواح الصخرية، فاختبأوا بين الشقوق الأفقية يترقبون رجوع الدينوصورات،

وحان الوقت الذي اعتاد فيه القطيع أن يقفل عائدا؛ رأى فيه أصحاب نادر مرور القطيع، فحدقوا في حركات سيرها، وغابت من أمام عيونهم بين أدغال الغابة الظليلة؛ تبعوها حتى تفرقت في بقعة أرض منبسطة تصلها أشعة الشمس، وتمددت بأجسادها؛ بالشّبع من ملء معدتها بأوراق الشجر؛ المُقتلعَة بقواطعها، والمفتتة بأنيابها، والمطحونة بأضراسها.

شدّهم عالم الدينوصورات والأجمات الظليلة إليه؛ فلم يعودوا يفكرون في أي شيء، أو تعود بهم ذاكراتهم إلى ذلك العالم الذي تركوه خلفهم، وهم لا يعلمون هل ستسنح لهم فرصة أخرى للانطلاق في عالم لم يعد له مثيل في عالمهم الذي قدموا منه، ولا يدرون أسيستمر في وجوده؛ بحالته الطبيعية تلك، أم ستطرأ عليه تحولات وتغيرات، أم ستكون له نهاية مُؤلمة؟

وأتى ذلك اليوم الذي كانوا فيه بين جالس على الجرف بين النباتات وجذوع الأشجار، وبين واقف ينظر مُتمتعا بمنظر البحيرة، ومُتأمّلا مجيء الدينوصورات العائمة، أو مغادرة -كما دأبت- البحيرة إلى مأواها؛ في تلك الأرض الممتدة بسطوح صخرية، وبجوانب ينبت فيها عشب ونباتات قصيرة الجذور؛ هي مُقدمة بيئة أو هي جزء من الغابة الظليلة؛ في ذلك اليوم لمع من بعيد شيء ليس من طبيعة المكان، وكان يزول لمعانُه ذاك ويعود في اتجاه عيني صفاء، فنبهت إليه الآخرين، ونظروا فعرفوا أنه من عمل الآدميين، فقال نادر وقد أدرك ذلك الشيء بحسّه:

- إنه عدسة؛ إما لآلة تصوير أو لمنظار مُكبر، يُصوبها أحد ما، فمن يكون؟ ولأي هدف؟

قاطعه أستاذ الأحياء بغضب:

- لقد عرف هذا المُصوّب للعدسة ما يجري هنا، فهو إما يلتقط صورا، أو يتابع من بعيد وجودَنا ووجودَ الدينوصورات.

تحرك نادر من مكانه وقال:

- سأتعقبه لأعرف من يكون، وقد رأى الدينوصورات، ودون شك أدرك اهتمامَنا بها.

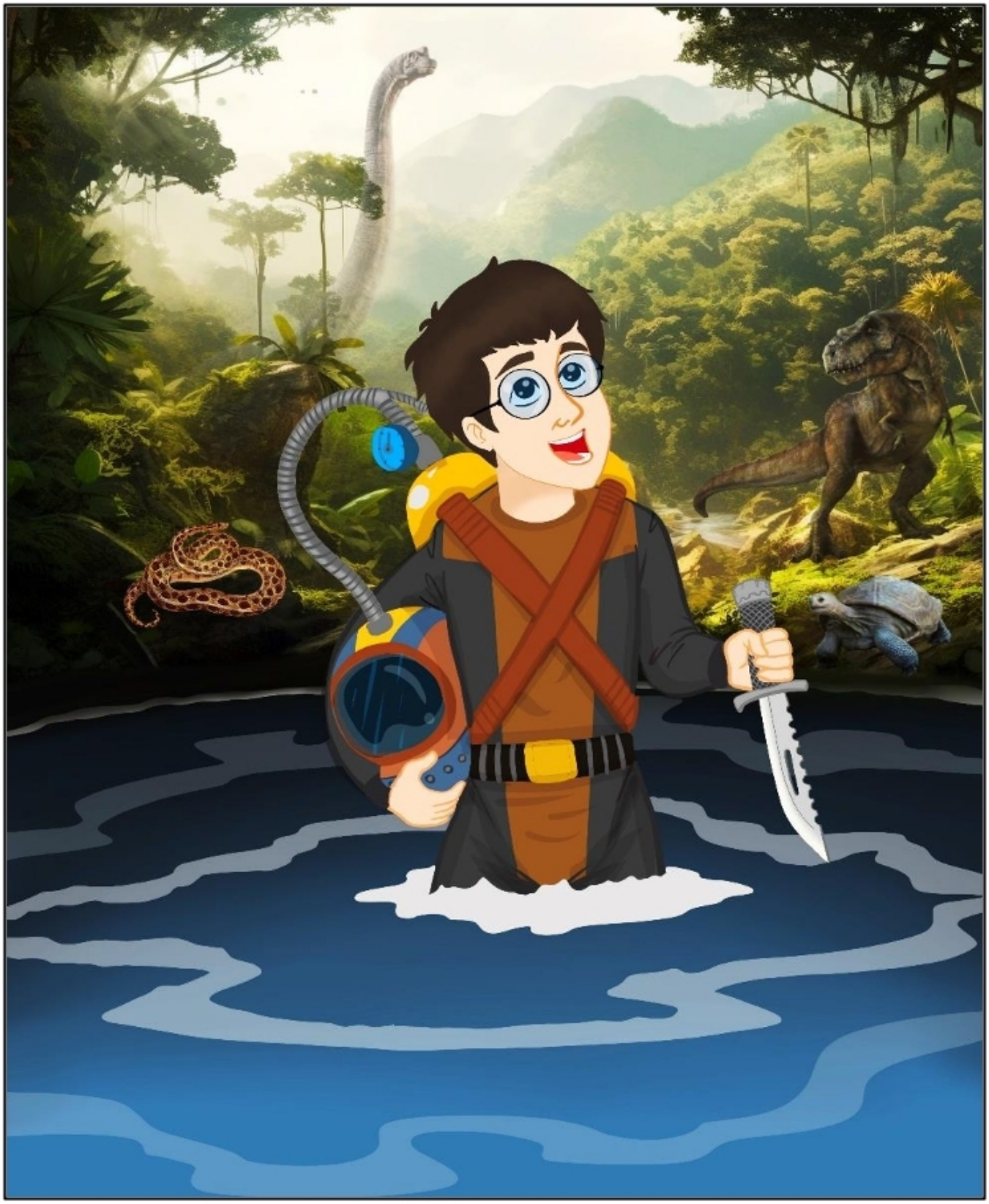

«إنه عالم يستظل بأغصان وأوراق شجر بجذوع عريضة وطويلة؛ يندلق من بينها ضوء الشمس مُشكلا حزما مُنيرة من ضباب الغابة...»

فدار نادر على الفوهة الصخرية، واستمر في سيره مُتواريا بين الأشجار والصخور؛ في اتجاه المكان الذي ظهرت فيه العدسة اللامعة تحت أشعة الشمس، فلم يجد من كان فيه، وإنما رآه ينزل إحدى المنحدرات وينطلق هابطا السفوح، فتبعه نادر.

ومشى ذلك الشخص بمحاذاة مجرى النهر، ثم انعطف فجأة، وعبَر قنطرة مُركّبة من جذوع الأشجار؛ إلى بيوت قرية بُنيت على سفح الجبل، وما يزال نادر يسير وراءه حتى دخل ذلك المصوّب للعدسة بيتا من تلك البيوت، ولم يتابع نادر سيره، وأطلق عينيه ناظرا في الزقاق الضيق حتى تيقن من خلوه من أي ذاهب فيه أو آيب، فتقدم وأطل من كُوّة إلى الداخل بحذر، فرأى ذلك الشخص قد دخل حجرة البيت، ووضع آلة تصوير على مكتب خشبي عليه آلة كاتبة قديمة، وكراسة وأقلام، وصحف ومجلات، وعلى الحائط عُلّق ما يشبه سبورة إعلانات؛ أُلزِقت عليها بأشرطة لاصقة صفحات من جرائد وصحف؛ مطبوعة عليها مقالات، وفي زاوية منها صور هذا الشخص، فأدرك أنه صحفي، وكان هذا هو من دعا سائق البغال الذي حمّل بغاله بصناديق معدات الغوص؛ إلى وليمة، وهو جالس ينتظره بمقهى القرية، وكلفه بأن يأتيه بأخبار تلك الجماعة التي تُخيم في قمم الجبال.

كانت مفاجأة كبيرة لنادر وستكون لأصحابه، وخيبة كبيرة أحس بها؛ للسرعة التي علم بها هذا الصحفي تخييمَهم لأجل متابعة ظهور دينوصورات البحيرة، فأي رادع يُثني الصحافي عن نشر الخبر كتابة في الجرائد؟

فهذا الصحفي؛ كما استنتج نادر له تجربة طويلة، ويُدرك من أي مصدر يتيقن من الخبر، فبظنونه، وبنهج المحتمل الوقوع، وبشكّه في كل حركة؛ يطرق بسرعة على ما توارب أو تُغلّق عليه الأبواب والنوافذ، ولو لم يسرع نادر وفي لحظات دخول الصحفي إلى البيت الذي يسكن فيه، لأَغْلق الصحفيّ خوفا من أن يُراقب وهو يعمل دفّة كوة البيت الطيني.

فهذا صاحب عدسة التصوير، وذو قلم سيّال يبْتَر؛ بالكلمات والألفاظ، وكاشف عما يُسَرّ ويُخبّأ، وقد التقط صورَ ما هو واقع حقيقة، فعلى نادر أن يُسرع إلى أصحابه؛ ليُخبرهم بأن دينوصوراتهم ستكون موضوع مقالة تُزلزل ذوي

الاختصاص وغير المختصين، وستستقطب البشرية التي يئست من المألوف من الحروب، ومن بعض الساسة الملهبين للمشاعر، ومن الأثرياء المحتكرين للسلع، وغير هؤلاء كثيرين؛ إلى مكان اكتشافهم.

وقد انسكبت الكلمات من فم نادر في أسماع أصحابه، فصاروا كأنهم تماثيل جامدة؛ منصوبة على قمة الجبل من أثر ما سمعوا، وسؤال واحد في نفوسهم وهو: ماذا سيفعلون؟

قال الأستاذ الأَحيائي:

– لا بد من الاتصال بهذا الصحفي، فإذا كان يكتب من أجل قضية ومبدأ واستجلاء للأمور؛ سيستجيب لطلبنا وهو أن حياة الدينوصورات وطبيعة المكان ستكونان مهددتين بالموت والانقراض، وإذا لم يُعلَن وبإجراءات مُشدّدة بأنهما محميتان في بيئتهما المجهرية، التي لولا شروط طبيعية متوازنة لما ظهرتا على سطح الأرض، ويتطلب الأمر الروية والتفكير بعمق في النتائج التي ستكون جد سلبية.

ولكن الذي يجهله الأستاذ وأصحابه، وهو أن قائد البغال قد فاه وبسذاجة الناطقين غير العارفين؛ بأن ما يجري في البحيرة وفي محيطها غريب، ولم يُعرف بعد وبالضبط ما هو، وما سيقع في الأيام المُقبِلة القريبة.

إن الوقت المناسب الذي يساعد على إبقاء اللقاء بالصحفي سريا هو الليل؛ ذلك أن العالِمَ الأحيائي وتلميذَه نادر لم يتيقّنا بعد ما إذا كان خبرُ ظهور الدينوصورات لم يتعد أسماع الصحفي، فسارا مُسترشديْن بأضواء بيوت القرية التي تبدو لهم من بعيد في الظلام؛ في أسفل السفوح، ومُتتبّعين مجرى الماء؛ إلى أن قال نادر بأن عليهما أن يعبُرا القنطرة الخشبية؛ إلى بيوت القرية المشيدة حيطانها بأحجار وصخور وتربة محلية؛ على الجزء الأسفل من سفح الجبل، وقد مروا بمياه النهر تجري تحت القنطرة، وسارا في زقاق على يساره سطوح بيوت انخفضت بانحدار السفح، وحيطان أخرى على اليمين ارتفعت بالسفح الضارب إلى أعلى القمة، إلى أن توقف نادر قائلا بصوت منخفض ومشيرا بسبّابتة:

– هذا باب البيت الذي يقيم فيه الصحفي، وهذه نافذته الخشبية التي شاهدت من خلالها ما يدل على شُغل القاطن به، وما أُثثت به؛ قال الأستاذ:

– إذا تأكدنا من صوت حركة يأتي من الداخل؛ يدل على أن الصحفي هو الآن آو إلى بيته؛ ندق عليه الباب، وإذا ما فتح نقدم إليه أنفسنا، ونتحدث إليه في أمر الدينوصورات؛ مُقنعين إياه وبهدوء وبجدية الموقف، وبكلام فيه تدرج وترتيب للأفكار، وبمنطق علمي.

ولم يكد يُنهي كلامه حتى رأيا شبحا قادما في الزقاق، فتراجعا بسرعة وابتعدا إلى فراغ بين بيتين؛ أرسلا نظراتهما في طوله، فوجداه ممرا ضيقا صاعدا بين حائطين خرِبين لبيت يعلو بيت الصحفي، فتفاجآ بأنهما أشرفا على باحته؛ يُغطّيها عريش يسرح عليه جذع وفروع كرمة عنب، والعناقيد مُتدلية منه، وكانت المفاجأة كذلك عندما وصلت إلى آذانهما نقرات ذلك الشبح على الباب في الجانب الآخر الذي تراجعا عنه، فرأيا من بين عناقيد العنب وأوراق الكرمة الصحفيَّ وهو يفتح الدّفّة الخشبية للشبح؛ ليدخل ويجلس على كرسي خشبي بجانب كرسي آخر يجلس عليه شخص، وكرسي ثالث، ورابع، وخامس، وسادس؛ إنهم جماعة من رجال؛ يحيطون بمائدة خشبية مربعة؛ تصِرّ أرجل الكراسي تحت أثقال أجسادهم، وبينهم الصحفي نحيف الجسم؛ يتدلى على كتفيه كُمّا سترة قديمة؛ مضطرب النظرات؛ مُشعّث الشعر؛ يحرك بعصبية على خشب المائدة الخشن كفّين يابسين؛ بهياكل أصابع طويلة ومُرتجفة.

كان الذي انضم مُتأخّرا إلى أولئك المجتمعون؛ طويلَ القامة؛ عريضَ الرّقبة؛ غليظ الجذع؛ بطنه منتفخ ومندفع، ومُتدلّي طيات الشحم؛ تكاد تتفجر عروق خديه القانية بالدم، ويقطر جلد وجهه الممتلئ إداما، وما إن جلس حتى شهر سكينا عريضا؛ تبرُق شفرته بضوء مصباح الغاز الذي يتوسط المائدة، ومِبردا طويلا، وصار يحُدّ شفرته ليُحسن الذّبح، وصوت السنّ يصك الأسماع، وحُكي لنادر والأستاذ فيما بعد أنه مالك محل جِزارة مشهور؛ قائلا:

– أهي حيوانات مُجترّة تلك الدينوصورات؟

وخرج أحدُ المجتمعين عن صمته؛ صينيّ الأصل، وقال مُلوّحا بساطور من المعدن الصلب؛ من تلك السواطير التي تُقطّع بها لحوم الذبائح، ونقر بها مِقلاة من تلك المقالي الآسيوية المقعرة والعملاقة:

– تُدهن المقلاة المسخّنة بلهيب النار بشحْم الخنزير، تُقلى فيه شرائح من لحم تلك الدينوصورات؛ المتغذية على نبات بري؛ مُعطر بسائل زهر الأغصان المزهرة في الربيع، وتُبهّر بتوابل الهند العريقة، وبزعفران (تَالِوين)[70] و(كشمير)[71].

وتمطّى جذع آخر، وتمدّد خوفا من أن تُفوّت عليه الفرصة؛ طويل اليدين؛ قال:

– ليس مثيل لمتجري، فهو معروف لدى القاصي والداني بجودة ما يُهيؤه، فكل ما هو مُقدد من اللّحوم أعرضه لذة للاحمين من بني البشر، فمن فُقمة القطب الشمالي، ومن تماسيح نهر النيل، ومن ضبّ صحراء العرب، ومن خنازير جبال (البرانس)، ومن أبقار مراعي سفوح جبال (الألب)، ومن غنم (زعير) و(بني خيران) الشّقراء، ومن حيتان المحيط المتجمد الجنوبي؛ أُقدد قطع اللحم، وأُبخّرها، وأُملّحها.

ونادى آخر بدوره في الكلام فقال:

– أنا فندقي، ولا يُتناول ما تسلسل عملكم فيه إلا وجبات مُتفنن في طهيها، وتقديمها في صحون من خزف صيني أخضر اللون، وعلى موائد من خشب الصنوبر؛ مصقول وملمّع باللون البني؛ مُوزعة بنظام في قاعة فسيحة؛ بين حيطان خشبية، وأعمدة ترفع بناية جاذبة؛ فريدة الهندسة؛ تُطل شرفاتها على بحيرة الدينوصورات؛ يزيد جوها من استمراء ما يُقدم من أكل دسِم.

أخرج أحدهم هامته من بين رؤوسهم؛ بحيث يظهر للجميع، وقال:

– عملي الذي أتعيش منه هو أخذ صور للصغار والكبار من السيّاح، وهم يمتطون ولأول مرة في حياتهم ظهر جمل الصحراء العربي ذو السنام الواحد، أو جمل آسيا الوسطى الجافة وسهوبها ذو السنامين، أو صهوة فرس قزمي؛ قصير

---

[70] توجد مدينة (تالوين) إلى الجنوب من العاصمة الرباط؛ على مسافة 668 كلم؛ في جهة (سوس- ماسة)، يصل عدد سكانها إلى 6706 نسمة؛ حسب إحصاء 2014، تشتهر منطقة (تالوين) بزراعة الزعفران؛ المعروف عنه أنه يعطي للطعام نكهة طيبة.

[71] توجد منطقة (كاشمير) بين الصين والهند وباكستان؛ مُتنازع عليها بين باكستان والهند، وهي ذات أغلبية مسلمة؛ كانت قد أُلحقت بالهند على إثر التصويت على أصل حاكمها الهندي، معروفة بزراعة الزعفران.

الأطراف، فتلك الدينوصورات؛ بعد ترويضها؛ مطايا لأخذ صور تذكارية فريدة لهؤلاء.

تكلم هؤلاء مُعرفين بمهنهم، وبما يمكن أن يستغلونه من دينوصورات البحيرة، إلا اثنين؛ ظلا هادئين. مال أحدهما بصدره على المائدة، واتكأ بذراعيه عليها، وضم يديه بعضها ببعض، وقال:

– أنا عالم أحياء؛ مختص في التعديل الوراثي وفي الاستنساخ، فهذه الدينوصورات نادرة الظهور، ولا ندري أستعيش أم ستموت وتنقرض، فعينة منها نستنسخ قُطعانا، وقد نعدِّلها وراثيا لمقاومة أمراض عالمنا المعدية.

وقال الآخر بنظرات عميقة:

– أنا أدير أكبر متحف طبيعي في العالم، وإن متحف هياكل الدينوصورات المتحجرة يفتقد إلى دينوصور مُحنط من حي؛ يُغني المتحف الطبيعي، ويجذب الملايين من الزوار.

وكأن ذلك الذي يجلس خلف الأكتاف العريضة، والمنحنية على الطاولة بإصرار منقطع النظير؛ يريد أن يتكلم، ولم يزاحمهم في صفّهم الأمامي، ولا تلمس رجلاه إن مدّهُما رِجْلي الكرسي الذي أمامه، ولا هو بمنزو عنه ولا هو مغلوب على أمره في أخذ نصيبه من الكلام ومن الغنيمة، مُقطب الحاجبين؛ محمر العينين؛ خشنة أصابع يديه؛ متآكلة أظفارها؛ فقال بصوت أجش:

– أنا دباغ الجلود؛ أمتلك مدبغة بأحدث آلات كشط الدهون، والمعالجة الكيماوية، ومصنعا لكل ما يصير بأيدي مهرة تحفا فنية من جلد حيوان أصلي؛ لا حيوان يدب على ظهر هذه البسيطة إلا ودبغت جلده، وصنعت منه حقائب، وأحزمة، وأحذية، وكراس برائحة الجلد الطبيعي للسيارات الفارهة، وألجمة لأحصنة العربات الجنائزية؛ من تماسيح وسنانير وثعالب ودِببة وحُمر وبغال وأحصنة وأفاعي (الأناكوندا) وأرانب برية وأغنام وأبقار، فجلود هذه الدينوصورات لا تدبغ إلا في دار (الدّباغ) بمدينة (فاس) العتيقة، وهذا يعطيها في معالجتها هناك قيمة صناعية وتاريخية وثقافية، وتُصنع منها ألجمة لأحصنة

العربات التي يقودها المتدينون (الأميش)[72]، والمتورعون عن استخدام مركبات الوقود؛ المؤجِّجة لنوازع ونزوات النفس البشرية المنحرفة، وأحزمة عريضة لنسائهم الحازمات؛ المُسْبِلات الملابس عليهن احتشاما، وأساورٌ جلدية لساعات سويسرا الأصيلة؛ يتباهى بها الأغنياء.

وقال آخرهم، وهو صانع عُطور ومواد التطيّب:

– إن في مِعى تلك الدينوصورات مسك وعنبر الطبيعة العذراء.

وهُم بعرضهم لأدوارهِم هذه، والفائدة الاقتصادية، والعائد المالي من دينوصورات جبال الأطلس؛ كان الصحفي يحد من اندفاعهم، ويُثبِّط عجلتهم، ويُهدّئ من أعصابهم، ويُعيدهم إلى رُشدهم؛ بعد أن دب الخوف في نفوسهم من أن تضيع الفرصة التي سنحت لهم.

ترك المُعدل الوراثي محراب صمته، وانزوائه، وقال مُذكرا إياهم جميعا، ومُوجها في آن إنذارا مُرعبا إلى الصحفي:

– جئنا إليك أيها الصحفي جميعا، وأمرناك في بداية وقت هذا الاجتماع بعد أن تشممنا بأن أمرا غير عادي يجري في هذه المنطقة، وتيقّنّا من الذي ثرثر بجهل بذلك الأمر؛ ألا تكتب عن ظهور الدينوصورات؛ لألا ينتشر الخبر؛ إلا بعد أن نقضي أوطارنا من تلك الدينوصورات، وإلا سيهجم عليها المنتحلون والزاعمون والدّهاة وصيادو الفرص والادعائيون، وإذا ما استهواك قصبُ السّبق، وكتبتَ تعنُّتا واعتدادا بنفسك؛ بأنك صاحب قلم لا يُشق له غبار؛ فإنا سنُنهي حياتك.

وانفضوا من حول الصحفي، تاركين إياه وحيدا يفكر في مصيره الذي آل إليه، واستأجروا قنّاصة محترفين؛ يجيدون تصويب ماسورات بنادقهم إلى الموضع من جسد الرمية التي يريدون أن تنتهي إليهم به؛ إما شلاّ لحركة أحد الدينوصورات أو قتله.

انتظر أستاذ الأحياء ونادر حتى تلاشت أصوات وطآت أقدام هؤلاء؛ بابتعادها في تراب أزقة القرية الطينية وغير المرصوفة، وبعد أن وصلت إليهم

[72] (الأميش) هي طائفة دينية محافظة بالولايات المتحدة الأمريكية.

ضربات كُعوب أحذيتهم الجلدية في خشب القنطرة الجاف؛ أفضى بهم إلى الضفة الأخرى، ليلتقيا بالصحفي، فاتّجها إلى الباب، وكان نادر هو الطارق، ففُتحت الدفة، وأطل من ورائها الصحفي مُضطربا؛ محبوس الفكر فيما قرّر مُهددوه، ولم ينطق، ونابت عن لسانه ملامحُه التي سألت باهتمام باهت؛ عمن هذين اللذين لم يمنحا وقتا له يفكر فيه؛ فيما قال المحاصرون له، وختموا التقاءهم عنده بتهديده بالقتل.

قالا له بأن جماعتَهما هي التي اكتشفت الدينوصورات، وإن كان ذلك بالصّدفة؛ إلا أنه حبّ وشغف بعالم الأحياء والمستحاثات والبيئات الطبيعية الحالية والقديمة، فهي جائزة لنادر الأهوس منهم بالطبيعة. وقد سمعا جميع ما دار من استعراض لمنافع أولئك في الدينوصورات، وكلمات الوعيد.

فعادت الطمأنينة قليلا إلى الصحفي، واسترخى على الكرسي، وقال:

– سأكتب عن الحقيقة؛ فأنا صحفي وفيّ للصحافة الحقة التي لا تقبل إطلاقا الترهيبات وتسلط العتاة والمساومات.

ورجعا إلى المخيم؛ مُحذرين صفاء وأنور مما سيقع في الدقائق أو الساعات القادمة من أحداث خطرة، وتراجعوا إلى سفح آخر مُحتمين بواد كأنهم مخيمين لجمال الطبيعة لا غير.

قطع سكونَ المكان وصمتَهم في أحد الأوقات صوتُ نادر؛ قال:

– سأذود عن الدينوصورات... سأُعسكر في الجرف الصخري المحيط بالبحيرة.

قال أستاذ الأحياء مُحتذيا بتحدّي نادر:

– وأنا سأغطس وسأكون قريبا من الدينوصورات.

قدمت الدينوصورات إلى البحيرة، ورأى نادر أشباحا تتحرك بين الأغصان والنباتات الكثيفة، وشاهد بروز أنبوب بندقية في اتجاه البحيرة، وما يزال مُوجِّهُها يتتبع بها الرمية، وهي إما أن تكون رأس دينوصور أو عنقه، فعدا نادر بسرعة وأحكم قبضته على الماسورة وحاول جذبها من بين يدي المُصوِّب بقوة؛ إلا أن ماسورة أخرى أخذت اتجاها خطرا بأن مالت، وأُطلقت منها رصاصة أصابت ساق نادر، فسقط، فجرى إليه أنور وصفاء وجرّاه بعيدا عن دائرة إطلاق الرصاص، قام مُستندا على كتفيهما، وسار بينهما على رجل واحدة يعرُج؛

«وكان أستاذ الأحياء قد غطس في البحيرة، وضرب بزعْنَفتيْه في نهر الشقّ الصخري، وغادر عمق الماء بعد أن أطل برأسه، وتأكد من وصوله إلى الصفائح الصخرية...»

مُنفلتا من طلقة رصاص أخرى؛ إلى المخيم، ليُسعفاه ببعض الضمادات، والسائل المداوي المخفف للألم، ومن حسن حظه أن الرصاصة خدشت العضلة، ولم تغُر في عظمة السّاق، ثم ليطلبا قائد بغال يحمله وبسرعة إلى مستوصف القرية ليعالج ويلتئم الجرح الغائر.

أما الدينوصورات فقد روّعها صوتُ الرصاص المنطلق من بندقيات كثيرة دون أن تصيب هدفا، فغاصت واختفت، ولم تعُم مرة ثانية، لقد صارت مُهددة منذ قليل في بيئتها التي كانت لها، وقد رحلت منها وإلى الأبد.

وكان أستاذ الأحياء قد غطس في البحيرة، وضرب بزعْنَفتيْه في نهر الشقّ الصخري، وغادر عمق الماء بعد أن أطل برأسه، وتأكد من وصوله إلى الصفائح الصخرية، وخطا يتسمّع أصواتا غريبة عن عالم الظليلة، وإذا بالدينوصورات تبرز بأجسادها من ماء الجوف الجبلي؛ عائدة؛ هاربة بروع، فأدرك ماذا وقع، ثم خففت جريها عندما التأم أفرادها وانتظموا في صف يسير في دغل الغابة الظليلة، وكانت أصوات قد سمعها الأستاذ، إنها لحوّامات؛ لطياريها دربة في مراواغة قمم الجبال والسفوح وجذوع الأشجار العالية، فرفع رأسه وشاهد كائنات بشرية مُقنعة الأجساد؛ مُلثّمة الوجوه؛ مُختصة في قطع جذوع الغابات المطيرة في (الأمازون)، وفي الغابة الاستوائية بإفريقيا، وفي غابات (سومطرة)، تُدلى بحبال من بطون تلك الحوامات؛ قابضة أيديها بمناشير ميكانيكية، مُشغّلة جميعها في الوقت نفسه؛ مُصدرة أصواتا حادة ومستمرة، مُروِّعَة بذلك الدينوصورات التي توغلت في الغابة الظليلة؛ مُتقهقرة في أودية باطنية وأغوار وكهوف، وتحت ثقلها ساخت بها الصخور التي صارت هشة بمياه بحيرة باطنية، فغارت وانهارت عليها الجبال المجوفة، فلم يبق يظهر منها فرد واحد، لقد طُمرت ودُفنت تحت تلول من الصخور والأتربة، مُحبَط ويائس، ولا أمل له، ويعيش فاقد الصواب؛ معتوها؛ من يحاول وهو يمنّي نفسه بأشياء كالحلم؛ النّبش عن أجساد

الدينوصورات، ذلك أنها تحللت وأُذيبت بمياه عمق جبال الأطلس المعدنية الساخنة، ثم تبخرت[73].

*****

كان نادر الجريح يتمدد على أحد أسرة المستشفى، ولم يكن يُبالي بذلك الخدش الذي غار في لحمة ساقه اليمنى؛ برصاصة أحد أولئك القنّاصة؛ أعوان أولئك الذين يستغلون خامات الطبيعة؛ بقدر ما كان كثيرا ما يستحضر الدينوصورات وهي تضطرب برؤوسها وأكتافها ورقابها؛ نافرة وشاردة من أصوات إطلاق الرصاص من أنابيب البندقيات الحادة، ومن حركة الماء المضطربة التي أحدثها اختراق الرصاصات للماء، وغوصَها دون أن تظهر مرة أخرى، ولم يتحسّر أو يتألم عندما حكى له أستاذه بأنها سقطت في مهاوٍ سحيقة وخسفت بها الصخور؛ فهي الطبيعة ابتلعت ما خُلق من رحمها، وعاد إلى مهده ليفنى فيه، ولم يبق له أثر بأيدي المتحيّنين لكل ما يحدث، فيعرفون كيف يُسخّرونه وينتفعون به؛ جعله ما خلُص إليه يتغلب على شجونه ولواعجه.

وكان قد تصدى طبيب المستشفى والممرضة؛ لذلك الجرح؛ بوعي تام بواجبهما، وبطريقة تشهد على خبرتهما في معالجة الجروح بالأدوية السائلة والكمادات والضمادات، فكان جرح نادر يلتئم، وإن تخلف عنه أثر يُعيد به تصور يوم الواقعة، كلما كشف عنه طرف سرواله، وكان باب الحجرة التي يقضي فيها مدة العلاج؛ يُفتح عندما يحين موعد الزيارات المقنن؛ لأحد جاء لعيادته؛ يسعد بحضوره ويأنس بجلوسه مدة من الوقت؛ فكان أن فاجأه ذات يوم أولئك الذين قدموا من مدينة (وادزم) بوجوه مبتسمة، وهم أصحابه الذي رافقوه في مغامرة البئر العميق والممرات الأفقية في مناجم الفوسفاط المسدودة المنافذ، فهذا صديقة عبد الرحمن الميكانيكي وابن عمه إحسان، وذاك مُستضيفه إلى بيته ذي الحجرة الواحدة حفار الآبار؛ ذكّروه جميعا بمستحاثة الدينوصور والسلحفاة

[73] من العوامل التي تنشأ عنها الكهوف الباطنية؛ تحلل معادن الصخور وإذابتها بواسطة المياه الجوفية، وهذا يُدرس في علم الجيومورفولوجيا، ولا يستبعد أن يكون لها تأثير كبير في اندثار أجسام حية، لبيئة تحلّلية توجد في باطن الأرض.

البحرية المتحجرة، كما ذكّره بمتحجرة صغير الدينوصورة راعي المعاز؛ الذي وصل إليه هو الآخر خبر إصابة نادر في إحدى رحلاته بطلق سلاح ناري؛ فقدِم هو أيضا للعيادة، كما عاده أستاذ الطب المحاضر؛ مالك المركب الشراعي.

وفي أحد الأيام، وهو ينتظر مرور يومين بقيا من مدة الاستشفاء المقررة من طرف الطبيب؛ سمع وقعات حذاء حازمة في الممر وهي تقترب، ثم تتوقف لحظة، فرفع رأسه ناظرا إلى الباب العريض، فرأى وجها يُطل؛ كانت مفاجأة له؛ إن قائد الطائرة البحرية (سْكان 30)؛ بقامته الطويلة؛ يحمل شيئين؛ في ذراعه الأيسر باقة تنوعت مروحتها الكبيرة بزهور وورود مختلفة الأشكال والألوان والأريج، وفي اليد اليمنى كتاب كبير الحجم؛ أقبل ناطقا بسلامة نادر، فرد عليه هذا بتحية وامتنان وشكر، وشاهد نادر يد الطيار تزحف نحوه بكتاب في أبهى طبعة؛ قال قائد الطائرة:

– هذا هو الكتاب الذي ألفه أستاذُك، وتولاه وتعهده برسومات مُعبرة عن حياة الدينوصورات؛ في بيئات الأرض التي لم يعد لها وجود، تنازلت لك عن حقوقي التي منحها إياي أستاذُك في نشره، والقصة تعرفها، فإنك تستحق أكثر من هذا.

كانت فرحة نادر كبيرة بقدوم الطيار لعيادته، وبعودة حق نشر الكتاب الجميل في طبعته، والمفيد في مضمونه؛ إلى أهل هذه البلاد، وإلى من اهتموا بدينوصوراتها.

تابع نادر دراسته حتى حصل على الشهادة الجامعية العليا، ولم يرد أن يعمل بإحدى المرافق العمومية، أو بإحدى المؤسسات الحرة، وفتح محلا لبيع تحف فنية؛ تتخذ من تلك الدينوصورات تماثيلا مُطابقة لها، وحِليا أحيائية، وأخرى إحاثية طبقا للرسومات والتصاميم التي أبدعها وهو في تلك الحجرة من حُجرات بيت يتوسطه بئر، وهو في رحلته الأولى إلى (وادزم)، وتابعت صفاء دراساتها هي أيضا إلى أن نالت شهادتها الجامعية، ونجحت في إحدى مباريات توظيف أساتذة للمرحلة الثانوية، فاشتغلت مدرسة لعلوم الطبيعة.

أحب بعضهما البعض، وزاد الشوق إلى وجود أحدهما قرب الآخر، فتزوجا مُشتركين في الاهتمام بالبيئات القديمة منها والحالية، وكائناتها التي ما يزال نوعها

يتوالد، ونباتات تُزهر وتخرِف أوراقها في الخريف، وتنمو براعمها في بداية الربيع، وتلك الحيوانات والنباتات التي انقطعت.

اجتاحت نادر حالة تفكير يكاد أن يتفرد بها، هو الذي يمكن أن يُقال أنه عاش مدة من الزمن قريبا من مجتمع الدينوصورات؛ المتحجرة منها والحية؛ بحلوله في بيئة الغابة الظليلة، التي كانت إلى زمن قريب ما تزال موجودة، وبدأت بالزوال، أو بالأحرى انقرضت يوم قُطعت صفوف متوازية من جذوع أشجارها، وأخرى مُنعرجة؛ كان في أول الأمر للاهتداء إلى الدينوصورات الحية، وفيما بعد غدت أرصفة للاستجمام، واسترجاع ذكراها؛ لم يعد يعي بحضوره ذهنيا، ولا بتفكير في العالم الذي هو موجود فيه جسديا، وذهب ذهنه طيلة الأوقات إلى ذلك العالم الذي غدا لا يوجد إلا في مخيلته، ولكنه يحياه في باطنه؛ وبخلق صور له في خياله؛ لذلك اختار أبعد سفح عن الوادي، وما وراءه البحيرة التي ظهرت فيها الدينوصورات، وبقايا الغابة الظليلة؛ بُنيت على ذلك السفح بيوت قرية؛ اشترى سكنا منها؛ حيطانه من صخور وحجارة وتراب، وسقفه من جذوع الأشجار، ليسكن فيه دائما، تُطل إحدى نوافذه على وادي المياه المتدفقة من ثلوج القمم، ومنها يُطلق عينيه متأملا في السماء، وناظرا إلى قمة بحيرة الدينوصورات والغابة الظليلة، وكانت زوجته صفاء قد جلست بجانبه في ذلك اليوم المثلوج؛ تنظر هي الأخرى؛ مُشاركة إياه في ذلك؛ في الاتجاه الذي يُرسل إليه نظراته، وقد صبت لها الشاي في كأس وصارت تتنعّم بدفئه، كما كان هو قد شرع من قبل في الشرب من كأسه؛ الساخن زجاجه بحرارة الماء المغلي، ويرتفع من الكأسين معا بخار يتكاثف في أجواء شتاء جبال الأطلس، وكان نادر قد لمس في ذلك الوقت أثر الرصاص الغائر، فابتسم وقال مُحدثا نفسه: «إنها دليل على أني حاولت أن أدفع الخطر عن الدينوصورات».

تَمَّت.

تمارة؛ في ربيع عام 1445هـ؛ الموافق لِـ 2024م.

الفهرس

الفصل الأول: الأحيائي والإحاثي 7

الفصل الثاني: رحلة إلى البادية 29

الفصل الثالث: مستحاثة دينوصور وسلحفاة متحجرة 75

الفصل الرابع: عقد من أصداف ناساريوس 145

الفصل الخامس: وادي الدينوصورات 187

الفصل السادس: دينوصورات جبال الأطلس 215